عُمر الشقي

عُمر الشقي: رواية
الطبعة الثانية
الكاتب: معتز شرباش
تصميم الغلاف: أحمد الصباغ
تدقيق لغوي وإخراج فني: الباشا عبدالباسط
رقم الإيداع: 28654 / 2017
الترقيم الدولي: 2 - 10 - 6642 - 977 - 978

دار لوغاريتم للنشر والتوزيع والترجمة :Facebook Page
E_mail: Logarithpublish@gmail.com
Tel.: 01015642559

المدير العام: إيناس ناصر
مدير التوزيع: حمزة القاضي

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

عُمرُ الشَّقي

رواية

معز شرباش

الإهداء

إلى حُلم، لَم ولَن يُنسى، راودني يومًا، ولَن أقبل سوى بتحقيقه.

إلى عائلتي..

أبي وأمي وأخي وأختي..

كنتم دائمًا، الأربعة حوائط التي أحتمي بداخلها من كل شيء.. وما زلتم.

دُمتُم.

كل شخصيات هذه الرواية، هي شخصيات خيالية، وأي تشابه بينها، وبين أي شخصية حقيقية، هو محض صُدفة غير مقصودة.

كل أحداث هذه الرواية، لَم تحدث في الحقيقة.

١

أضاء البرق لثانية هذا المكتب العتيق، ليكشف، لثانية واحدة، عن مكتب تفوح منه رائحة القِدَم، الأسود والأبيض يطغيان على المشهد، حتى يظن من يلمح المشهد، للوهلة الأولى، أنه ينظر إلى مشهد من فيلم سينمائي أُنتِج قبل اختراع التصوير الملوّن، لولا ضوء أصفر باهت، لأباچورة مكتب مائلة، يزيح الظلام، وينتزع سيطرة اللونين الأبيض والأسود من على بقعة صغيرة، تظهر بها أصابع مُدرَّبة، تكتب بسرعة مُحترفٍ على آلة كاتبة مُزعجة، تلك التي فشل الرعد الغاضب في أن يغطي على صوت أزرارها، سوى لثانية واحدة.

اِنتهى الرجل الغارق في الظلام، والذي يبدو من يده خمسينيًّا صاحب صحة لا بأس بها، من كتابة آخر كلماته، وضغط بارتياح على زر النقطة، ليسدل الستار على أحد أفضل مشاريعه، من وجهة نظره هو. ثم انتزع الورقة الأخيرة، ليضعها إلى جوار الآلة، مقلوبة فوق كومة ليست بالكبيرة، من الأوراق التي سبقتها.

ثم قام ليخرج تمامًا من دائرة الضوء، ليبدو كظِلٍّ قاتم، وهو يُعيد الآلة الكاتبة، إلى خزانة، تبدو من الصوت التي أصدرته، عند استخدامها، حديثة نوعًا ما، ويتأكد من إغلاقها، ويعود ليلتقط كومة الأوراق التي انتهى من

كتابتها لتوِّه، ويقلبها ليضعها في مغلف أبيض يناسب مقاس الورق، لتظهر الصفحة الأولى البيضاء جدًّا، سوى من كلمتين مكتوبتين بالأسود في منتصف الصفحة تمامًا: "**عملية الميزان**".

ثم أطفأ النور، وغادر المكتب دون صوت، كأنه شبح.

* * *

لا يصِح أن يصبح الحلم وسيلة.

٢

رفع هيثم غطاء الكوب الزجاجي الذي امتلأ عن آخره بدُخان أبيض كسول، ووضع أنفه داخل الكوب واستنشق دخان الحشيش كله دفعة واحدة، حتى لا يفلت الدخان الثمين، ويتبخَّر كأحلام اليقظة. ثم أرجع رأسه إلى الخلف، وأسند ظهره على كُرسيه، وأغمض عينيه، كست ملامحه لذة طاغية لثوانٍ احتفظ خلالها بالدخان داخل رئتيه، وكأنه كنز يأبى أن يُفرط فيه.

نفخ الدخان في سماء الغرفة عديمة الترتيب، والإضاءة، إلا من النور البسيط الذي تصدره شاشة حاسوبه. فتح عينيه ومد يده داخل الكوب الزجاجي، وأخرج السيجارة التي كان قد ثبّتها في وسط الكوب بحرفية، وكان قد علّق فيها قطعة الحشيش التي تحوّلت لدخان كان قد استنشقه كله، ونفخه في سماء الغرفة، لتكتمل الصورة الكلاسيكية لغرفة شاب مُدخن مُهمل من الدرجة الأولى. أشعل السيجارة بعدما سدّ الثقب الذي علّق فيه "الخابور"، بقطعة صغيرة من ورقة بفرة، فبدَت كقميص مسكين فقير مُرَتّق، ونفث دُخانها باستمتاع ملحوظ.

كان هذا ال"خابور" هو مكافأته لنفسه بعد إتمامه المُهمة التي كُلِّف بها. والتي سيحصل بعد إتمامها بنجاح - كما حدث بالفعل- على مبلغ محترم من

المال، الذي قد يعتبره البعض مالًا حرامًا، ولكنه لم يهتم، لعِدة أسباب، منها أنُّه يعشق التحدي الخاص باختراق أجهزة الكمبيوتر، وأيضًا لأنه يعتبر تسريب امتحان وضَعه دكتور جامعي ظالم - حسب وصف طُلابه- قلّما يعطي أحدهم الدرجة النهائية، عملًا بطوليًّا وفيه الكثير من الخير. وأخيرًا لأنه بالطبع، كسائر البشر، يُحِب المال. فكان يجوب مواقع الإنترنت، العادي منها، والخفي؛ المُسمّاه بالـ Dark أو Deep Web، ليبحث عن مُهِمات تحتاج إلى "هاكر" محترف، فيتواصل، عبر وسائل لا يمكن تتبُعها، مع طالبي الخدمات، ويقوم باللازم.

لَم يحاول أن يقترب من الأعمال، التي بها نسبة مخاطرة عالية، حتى يتجنب الوقوع في المُشكلات، مع نوعٍ يُخيفه من البشر، فكان يكتفي، بالمُهمات السهلة، قليلة العائد، شبه مُنعدمة الخطورة. برغم أن إمكانياته الإختراقية، تفوق ما يقوم به من مُهمات إلكترونية؛ التي انحصرت في أعمال اختراق حسابات مواقع التواصل، أو بريد إلكتروني، أو صُنع فيروس، أو برنامج يسمح بتسلل صاحبه إلى الجهاز الذي يُثَبّت عليه، ولكنه كان، حتى تلك الليلة، راضيًا وسعيدًا.

فالقناعة كنز، طالما بقيت. ولكن القناعة نفسها تفنى أحيانًا، وهو ما كان يحاول هيثم تفاديه.

كان يتمنى أن يأتي اليوم الذي يعمل فيه في إحدى الشركات الكُبرى، أو في إحدى الجهات الأمنية، حتى يقوم بما يحبه، ويجيده، في صالح الخير، وبمقابل مادي يُريحه.

وصلت النار لمنتصف السيجارة، حيث كانت بقايا قطعة الحشيش مُعلقة في السيجارة، فوصلت اللذة لمُنتهاها، ولكن قطع كل هذا رنين جرس الباب، الذي انتزع هيثم من لذّته بقسوة. انتفض هيثم كمن ضُبط متلبسًا، وهو ما يبدو أنه قد حدث بالفعل.

"مخدرات واختراق كمبيوتر وسرقة امتحان"

تردد صوت في خلفية عقل هيثم مع تكرار رنين جرس الباب، وكأنه صوت أحدهم يسرد قائمة الاتهامات في قاعة المحكمة، وكادت عيناه، بفعل المُخدرات، أن ترى قضبانًا حديدية حوله من كل الاتجاهات.

هَزّ هيثم رأسه ليطرد تلك المشاهد المُرعبة التي هاجمته دون هوادة، والتي جاءت مع من جاء، والذي تمنى أن يختفي هو الآخر، أو أن يكون وهمًا هيَّأهُ له "الخابور". وأيضًا ليطرد بقايا أثر الحشيش من رأسه على أمل أن يكون في كامل وعيه لمواجهة هذا الزائر، غير المرغوب فيه بالتأكيد. فوقت الزيارة لا يبشر بالخير أبدًا.

فمن يزور أحدهم بعد منتصف ليل شتوي قارص البرد كهذا؟

توجه هيثم إلى باب غرفته، مترنحًا بعد تعثره بشيء ما، في غير مكانه الطبيعي، كالعادة، على أرض غرفته، وفتحه وتوقف لثانية واحدة تعجب خلالها لعدم وجود الطارق، ولثانية توقع أن أحدًا لم يأتِ وأن الحشيش قد تلاعب به. ثم أدرك عند انطلاق جرس الباب للمرة الثالثة أنه فتح باب غُرفته فقط، وليس باب الشقة كما هيّأ له "الخابور" أنه فعل. فأكمل طريقه وهو يتخيل فزع نصف وعيه الحاضر نسبيًّا في حالة وجد الطارق عند باب الغرفة، وليس خارج باب الشقة، كما توقع نصف وعيه الغائب.

"أي كلام بيتقال" رَدد عقله تعليقًا على عبث المُخدر بوعيه. كانت الحالة التي وصل إليها هيثم من التخدير، تُشير إلى جودة الصنف الذي تعاطاه.

"والله خسارة الدماغ دي تتفصل" فكّر بخيّبة أمل.

فتح هيثم الباب ليجد هيكل شاب، منعت إضاءة السلم الضعيفة، ومعها وعيه غير مكتمل التركيز، وتوقيت الزيارة، عقله من ملاحظة ملامحه بشكل كامل. وقبل أن يسأل هيثم عن أي شيء، دفعه الزائر للخلف بهدوء وثقة، ودخل الشقة وأغلق بابها خلفه، لتغرق الشقة مجددًا - بعد منع الضوء القادم من السلم- في ظلام دامس. بدّد جزءًا بسيطًا منه ضوءٌ قادمٌ من باب غُرفته، حيث شاشة كمبيوتر هيثم الحديث جدًّا، وسلاحه الوحيد في العالم، والذي لن يساعده في تلك المواجهة، غير المتوقعة.

* * *

٣

وضع نادر فنجان قهوته بجوار جهاز اللابتوب الخاص به، وهو يستمتع بمذاق الرشفة الأولى التي ملأت فمه بالبُن المُر. جلس على كُرسيه، ونظر لشاشة جهازه ليقرأ النَص الذي كان قد بدأ في كتابته قبل ساعات، واستمر يعمل عليه كتابةً وحذفًا وتعديلًا لساعات دون كلل. مما أنتج نَصًّا يتكون من سبع صفحات كاملة، تصف أحداث قصة جديدة كان واثقًا من أنها ستكون سببًا في تغيير حياته.

كان نادر مجرد كاتبٍ هاوٍ يعشق قراءة الروايات، وكتابتها، قرر منذ فترة أن يبدأ في نشر قصصه القصيرة في مدونة خاصة له على شبكة الإنترنت، على موقع من المواقع التي تتيح تلك الخدمة مجانًا. ونشر بالفعل أول قصصه القصيرة، والتي انتشرت سريعًا بين هواة القراءة على مواقع التواصل الإجتماعي، مما شجّعه على تكرار التجربة. خاصة وأن الكثير من قُرّائِه نصحوه بالبدء في التفكير في نشر كتاباته في كتاب من خلال دار نشر، لأن - حسب قول بعض القراء- ما يكتبه يستحق النشر، والطرح للبيع.

انتهى من قراءة مسودة موضوعه الجديد، المعنوَن بـ "تغيير اضطراري". كان يشعر منذ جاءته الفكرة بالإثارة، فهو كان يبحث عن فكرة جديدة، تثبت له

أولًا ثم لقُرائه ثانيًا أن نجاح مشروعه الأول لم يكُن ضربة حظ، ويمكن أن يكون بداية لمسيرة طويلة، يتمناها ناجحة.

وبدأ عقله في تصوّر ردود أفعال قُرّائه على هذه القصة بعد نشرها، ونجاحه الساحق، ورأى نفسه في خياله ضيفًا مُتأنقًا في برنامج حواري يُجيب على أسئلة إحدى المُذيعات الجميلات، والابتسامة تملأ ملامحه، والمذيعة تتغزل في موهبته على الهواء.

كانت الساعة لم تتجاوز السابعة صباحًا بعد، وبرودة آخر شهور الشتاء اللذيذة تملأ الغرفة. تعجّب بشدة عندما سمع طرقات على باب شقته، فهو لا يستقبل ضيوفًا أبدًا، ولا صديق له قريب لدرجة تسمح له بمعرفة محل سكنه، ولا يتذكر متى كانت آخر مرة طرق فيها أحدهم بابه.

نظر صوب فراغ الغرفة إلى جواره، عاقدًا حاجبيه وقال:

- سمعت حد بيخبّط؟

وبالطبع لَم يُجِبْهُ الفراغ سوى بالصمت.

قام عندما سمع نفس الطرقات تتكرر وكأنها إعادة لسابقتها، وكأن الطارق لم يفترض عدم سماعه للطرقات ليطيلها أو يزيد قوتها، ولكنه فقط أراد أن يرسل له رسالة مفادها أنه لن يرحل قبل لقائه، ونجح في ذلك.

في اللحظة التي فتح فيها نادر باب شقته، تحركت الصفحات على شاشة حاسوبه من تلقاء نفسها وكأن هناك شبحًا غير مرئي يتفحص النَص. توقفت الصفحات عند الصفحة الأخيرة، ثم تم تسويد النَص كاملًا، ثم مَسحه كله مرة واحدة، لتعود الصفحات كلها كما كانت، بيضاء وكأن النَص لم يكُن.

ثم ظهرت شاشة سوداء في منتصف الصفحة، وظهرت عليها بعض الكلمات تُكتب بسرعة كبيرة، ثم انطفأ الجهاز بعدها بثوانٍ، وبدا كجثة هامدة لا روح فيها، ولا نبض، على عكس نادر، الذي كان قلبه يدق بقوة في تلك اللحظة في مواجهة ضيفه غير المتوقع.

* * *

لا تنظُر حيث يريدك الساحر.

٤

حالة من الاسترخاء تُخيّم على أحد أقسام الشرطة في أحد أحياء القاهرة الراقية، الضباط على مكاتبهم يتبادلون النِكات والتعليقات على كل شيء، كل منهم يمسك بهاتفه المحمول ليرسل رسالة، أو ليكتب تعليقًا ما على الfacebook، ولم يمنعهم هذا من الضحك أو التعليق على كلام بعضهم البعض، على الحائط خلف مكاتبهم لوحة كبيرة تحمل عبارة "الشرطة والشعب في خدمة الوطن"، كان الجو العام يوحي بمرور تلك الوردية على خير ما يرام، ولكن الجو العام كالسياسي الناجح في العالم كله؛ قلّما يقول الحقيقة.

خارج القسم كان الشارع هادئًا هدوء أفلام الرعب قبل مقتل أحد أبطاله، لا شيء يتحرك في الشارع سوى نسمة صيف نادرة، يقف أمين شرطة بجوار باب القسم الخارجي يتحدث عبر أحد الهواتف التي تقع سمّاعتها في الجهة الخلفية، مما يُعطي انطباعًا زائفًا لمن لم يستخدمها من قبل أن صاحب الهاتف مُخطئ، أو أن الهاتف به عيب تصنيع سخيف.

يقترب من باب القسم شاب متناسق الجسد حليق الذقن، وسيم الملامح، يرتدي "چينز" أزرقَ اللون، "وتي شيرت" أبيضًا، بلا أي علامات تميّزه، يداه في جيوبه في مشهد لا يناسب حر مايو الذي ينذر بصيف شديد الحرارة، وعلى ظهره حقيبة رياضية سوداء. اقترب من الأمين وكأنه ينوي سؤاله عن

شيء مُحدد، ولكن الأمين أدار وجهة للناحية الأخرى في إشارة كانت تقول بوضوح "هقطّعك لو فكّرت تفصلني" وكانت أوضح من أن يُخطئ أي أحد ترجمتها إلا لو كان أغبى من "هبنّقة" شخصيًّا.

ابتسم الشاب وتركه حيث هو تجنُبًا "للتقطيع" وعبر باب القسم. مشى خطوات بطيئة في الممر الضيق المؤدي لساحة القسم، ولكن الأمين استوقفه قائلًا بنفاد صبر:

- رايح فين يا أستاذ؟

وقف الشاب ونظر جانبه دون أن يعتدل بجسده كاملًا ليواجه الأمين ورد بأدب:

- محضر لشركة التأمين.. العربية اتخبطت ولازم محضر.

- في وشك على طول، قالها وأكمل مكالمته التي لم يكن يريد لها أن "تُفصَل"، وأكمل الشاب طريقه إلى الداخل.

كان الشاب يتحرك ببطء يبدو مُتعمّدًا، ينظر يمينًا ويسارًا وكأنه رَب العمل جاء ليتأكد من سيره على الوجه الأمثل، أو ليتصيّد خطأً ارتكبه أحد موظفيه قبل أن يتمكن الموظف من إخفاءه.

خرج الشاب من الممر الضيق، ليجد نفسه في ساحة واسعة، تضيؤها مصابيح "النيون" البيضاء، بصوتها الذي يذكرك بالذباب، وتوزعت على سقفها، وبين المصابيح الزنّانة مراوح سقف تعمل على إزاحة حرّ الصيف

دون نتيجة تُذكر، جعلته يتساءل عما سيكون عليه الوضع هنا أثناء نهار أغسطس، إذا كان هذا هو الوضع في منتصف ليل مايو.

كان في مواجهة الشاب مكاتب ضباط وردية الليل بملابسهم البيضاء ونجومهم اللامعة. وحولهم بعض المدنيين المُستسلمين كُل لمصيره؛ منهم من ينتظر أن ينتهي الأمين من مكالمته التي لا يبدو أنها ستنتهي الليلة لتحرير محضرًا، ومنهم من نسي من كثرة مشاكله، أو همومه، أو طول انتظاره، سبب انتظاره، ومنهم من ينتظر إطلاق سراح أحد معارفه من الحجز. إلى يمينه كان هناك سلم تكسّرت بعض درجاته وظهر منها حديد التسليح، تبدو وكأنها فخ لمن يصعد دون حذر، وإلى يساره كان هناك مكتب عليه دفتر كبير مُغلق لا يجلس خلفه أحد، غالبًا هو مكتب الأمين صاحب المكالمة المُهمة، خلف مكاتب الضباط ممران، إلى اليمين الممر المؤدي لغرفة الحجز والحمامات، والآخر المؤدي لغرفة المأمور ورئيس المباحث ومعاونيه والبوفيه والأرشيف.

ابتسم الشاب عند سماعه جلبة قادمة من خلفه، من ناحية باب القسم، حيث الأمين صاحب المكالمة المُهمة. نظر إلى ساعته ليجدها تخطت منتصف الليل بدقائق، ميّز صوت الأمين صاحب المكالمة المُهمة يقول ولكن بصوت تعمّد زيادة خشونته بهدف إرهاب السامعين:

- رايح فين ياد انت وهو بالورد دا؟؟

ثم يلين صوته فجأة، ولكنه دون قصد خرج عاليًا كما كان في جملته الأولى، قائلًا:

- ثواني يا عسلية. افترض الشاب أن تلك الجملة الأخيرة كانت لمن كان يتحدث معه عبر الهاتف، وها قد جاء من يقاطعها.

ثم يعيد الأمين ظبط حنجرته بدقة تفوق دقة عبد الحليم حافظ نفسه في أغنية "قل لي حاجة"، قائلًا بصوت يليق بالمجرمين:

- دا قسم يا ابني مش فرح.

رد عليه شاب مُعدم يحمل لفّة ورد كبيرة ذات قوائم خشبية، من النوع الذي لا تراه سوى في الأفراح:

- الطلبية دي جاية للمأمور.. الهانم بعتاهاله مفاجأة عيد جوازهم أو عيد ميلاده مش عارف.. احنا محل "روز" اللي في الشارع اللي وراكم.

- روز؟!! أراجوز لما يركبك.. الصناديق دي لازم تتفتش.. انت داخل بيتكم؟ وبعدين المأمور مش هنا.

- يا باشا باقول لك تورتة وجاتوه للمأمور.. عايز تلعب فيها براحتك.. بس انت المسؤول لو حاجة اتعاصت.

صرخ الأمين وكأنه أُهين في شرفه:

- اتعاصت عِيشتَك بجِلّة يا بغل.. ما تتكلم عِدِل ياد وبلاش لماضة.

تحولت أنظار كل من في القسم صوب الباب بالطبع، ما عدا الشاب الذي أخرج يديه من جيوبه. كان يرتدي قفازين رقيقين من النوع المُستخدم في

عيادات أطباء "ولاد الناس" فقط، وضبط منبه ساعته، ثم رفع نظره ليتأكد من أن أحدًا لا يراه، على الرغم من وقوفه أمام الجميع دون اختباء، ولما تأكد، خلع حقيبته من على ظهره، وارتداها عكس اتجاهها الصحيح على صدره، ليجد نفسه مُقلدًا من صنع الهاتف ذا السماعة في عكس اتجاهها المُعتاد، فابتسم.

فتح الحقيبة بهدوء وهو ينظر للضُباط، ليجد بعضهم تحرك ناحية الباب لفَك اشتباك على وشك الحدوث.

فنجاح حيلة الساحر تعتمد في الأساس على تحويل انتباه الجمهور بعيدًا عن مكان وقوع الحيلة.

أخفض رأسه عند مرور بعض الضباط بجانبه، وأخرج من الحقيبة أربع اسطوانات صغيرة الحجم، في أعلى كل منهن حلقة، ثم نزع الحلقات كلها بهدوء خبير، وألقى كل واحدة منهن في اتجاه حتى يُغطي الساحة كلها بهدوء شديد وكأنه عجوز يسقي نباتات حديقته الخلفية في إجازة صيف طويلة بعد التقاعد.

تصاعد الدخان الأبيض المُسيّل للدموع من كل الاسطوانات مُطلقًا صوتًا عاليًا يشبه صوت تسرب الغاز من أنبوب يتم تجربته في المستودع، وانتشر بسرعة في الساحة التي بدأت تفقد معالمها.

انتزع الشاب قناعًا من حقيبته واتجه للستار الأبيض واختفى خلفه، ليتوه وسط فوضى عارمة ضربت المكان فجأة.

سادت القسم حالة من عدم التصديق ممزوجة بالدموع والمخاط وصيحات متفاوتة في كل شيء، منها العالِ الواضح، ومنها الممزوج بحشرة مختنقة، ومنها الذي لا تميزه بسبب النحيب الذي يصاحبها، كلمات تطايرت على أمل أن تجد مكانًا لها في أذن تنصت، أو وعي يدرك:

- أقنعة الغاز...

- السلاح...

- حاسب يا حمار...

- ااااااااااه...

- اقفل الباب.. اقفل الباب يا زفت ما حدش.... كح كح كح.. يخرج.

في تلك الأثناء كان الأمين مجدي المسؤول عن غرفة الحجز مُتجهًا إليها لتأمينها ضد ما يمكن أن يكون محاولة لتهريب الخطرين، ولكنه شعر بيد تقبض عليه من الخلف، وأخرى تنتزع حلقة مفاتيحه، عندما أراد أن يقاوم برغم هجوم الغاز الذي لا يرحم على رئتيه ووجهه، شعر بتيار كهربائي قوي يسري في جسده، ارتج له كل كيانه، وسقط على الأرض غير قادرٍ على الحركة، ولكنه لمح قبل أن يسقط في غيبوبة، قناعًا واقيًا من الغاز يغطي ملامح من اعتدى عليه.

اتجه الشاب تحت غطاء الغاز ناحية الممر المؤدي لغرفة الحجز، أخرج من حقيبته قنبلة غاز أخرى، فتح باب الحجز وألقى القنبلة إلى الداخل بعد أن سحب حلقة أمانها، لتطلق القنبلة الغاز داخل الغرفة الضيقة. بعد ثوانٍ

فتح الشاب باب الحجز ودخل بسرعة وكأنه يعرف طريقه، بحث لثوانٍ وسط المذعورين عمن جاء من أجله حتى وجده: شاب تبدو عليه ملامح الثراء، ولا ينتمي لهذا المكان بأي حال.

اتجه إليه وانتزعه من مكانه انتزاعًا، وأخرج قناعًا مماثلًا لذلك الذي يغطي ملامحه من حقيبته ووضعه على وجه الشاب المذعور، ليتنفس الهواء النقي بقوة وكأنه أُنقِذ لتوّه من الغرق.

خرج الشابان في اتجاه الساحة مُجددًا، أحدهما هادئ ومسيطر والآخر لا يدرك أي شيء سوى أنه يجب أن يطيع صاحب اليد التي تمسكه من الخلف.

كانت الفوضى لا تزال مسيطرة على الموقف، ولكن المُعتدي لاحظ بداية ظهور أقنعة الغاز، فنظر لساعته، حيث أدرك أنها - أقنعة الغاز- كانت كفيلة بمعادلة ميزان القوى، فمن السهل أن تقتحم قسمًا يملأ هواءه الغاز وأنت صاحب قناع الأوكسچين الوحيد، ولكن عندما يحصل الطرف الآخر عليه فإن الوضع يختلف تمامًا.

تحرك الشاب ساحبًا خلفه الهارب بسرعة عكس اتجاه باب القسم، دخل الممر الآخر المؤدي لغرف ضباط المباحث والمأمور، وهو يخرج من حقيبته آلة صغيرة لتكسير القفل، إذا وجده مغلقًا.

فتح غرفة مأمور القسم، التي لم تكُن مغلقة بأي قفل، فأعاد الآلة الصغيرة إلى حقيبته، ونظر حوله في الغُرفة، التي كانت مظلمة وهادئة وكأنها لا تنتمي

لهذا القسم الذي يخوض حربًا ضد عدو خفي حتى اللحظة. دفع الشاب أمامه وأغلق الباب خلفه، وقال للشاب:

- لؤي بيه.. ما تخافش.. بابا باعتني عشان اجيبك.

في تلك اللحظة انطلق صوت المنبه الذي ضبطه قبل بداية هجومه مُعلنًا انتهاء الوقت الذي حدده الشاب للعملية قبل بدايتها، وهو الوقت الذي قدّر الشاب أن تحتاجه القوات لإعادة السيطرة على الموقف، ولهذا كان عليه أن ينتهي من مهمته الآن و"الآن تعني الآن".

* * *

مُذكرات

١

هي؟

هي حياة..

بل هي الحياة.

أنا أحيا بها، دون أن تعلم هي..

وكيف يستطيع من هو مثلي، مُصارحة من هي مثلها، بما أشعر به تجاهها؟

انتمائي للفرع الفقير من العائلة، وصمني بلعنة أبدية..

كَتَب عليّ أن أرى حِلمي يتحقق لغيري.. وكأن الفقر وحده لا يكفي.

فلا أنا بعيد كفاية، لأحاول، ولو عبثًا، زرع بذرة النسيان، في أرض ترفضها.

ولا أنا أهل للاقتراب.

* * *

٥

يفتح رجل كبير السن صغير الجسد باب ڤيلا الملياردير رامز غالي التي تُعتبر واحدة من أجمل ڤيلّات التجمع الخامس.

تبدو عليه بقايا علامات نُعاس فارقه لتوّه. رامز غالي: رجل الأعمال الذي لم يترك مجالًا إلا واقتحمه برأس ماله، مُستعينًا بشبكة واسعة من العلاقات التي كوّنها على مدار سنوات عمله منذ أن كان شابًا في بداية حياته، يتمتع بعلاقات طيّبة مع رجال الأعمال، والسياسة، والإعلام.

كان الطارق شابًا ذا جسد رياضي، يبتسم ابتسامة مصطنعة لم يبذل أي جهد في محاولة إخفاء اصطناعها، وخلفه شاب في مثل عمره تقريبًا ولكن يصغره حجمًا بقليل، ولكنه لم يحاول حتى اصطناع الابتسامة، فكان متجهِّمًا وهو يلقي بسيجارة لم يتمكن من الانتهاء منها، وهو ينظُر خلفه وكأنه يتأكد من أن أحدًا لم يتبعه، وكأن الوقت والمكان فرضا جوًّا من الغموض، فأكمله هو دون وعي بالتفاتة لا سبب لها، سوى - ربما- صوت نباح كلب غير ظاهر.

قال "زائر الفجر" بصوت يحمل في طياته غضب مكتوم، حاول أن يكون عاليًا كفاية ليُغطي على صوت نباح الكلب القريب:

- رامز بيه موجود؟ أنا الرائد وائل تحسين.. مباحث.

أفسح لهم الرجل طريق الدخول، ولم تظهر عليه ملامح الدهشة المتوقعة أو القلق، التي عادة ما يستقبل بها أصحاب البيوت هذا النوع من الزيارات المتأخرة، وكأن الرجل كان يتوقع الزيارة.

حيث قال:

- اتفضل يابيه.. دقايق ورامز بيه هيكون مع سعادتك.

قادهما الرجل عبر ڤيلا ظَلَمها مظهرها الخارجي الرائع، حيث أن داخلها كان أروع بكثير من مظهرها الخارجي عصري الطراز.

كانت الڤيلا على غير المتوقع عصرية بجدارة. الرخام الأسود على الأرضية يمكن للسائر فوقه أن يرى فيه أدقّ تفاصيل ملامحه بسبب لمعانه الذي جعل منه مرآة غامقة اللون.

لا وجود لحوائط سوى تلك التي تفصل داخل الڤيلا عن خارجها، حتى أعمدة الخرسانة التي لا يمكن الاستغناء عنها كانت من كثرة اللوحات المُعلقة عليها، والزخارف التي تغطيها، تبدو وكأن وجودها كان لهدف جمالي وليس هندسي.

جلس الرائد وائل على كرسي يكسوه جلد بني اللون غامقه، وهكذا فعل رفيقه، الذي كان لا يزال متجهمًا وإن كانت ملامحه قد حملت الكثير من الانبهار بالإضافة إلى الغضب المكتوم في نفسه الذي جاء به. وبعد دقائق ظهر إلى جوارهم رجل تخطى الخمسين من عمره، أسمر البشرة، ذو جسد

متوسط، وكأنه ظهر من العدم، حيث لم يصدر عنه أي صوت وهو في طريقه إليهم، سلّم على الرائد وائل ورفيقه بفتور، وقال مُقدمًا نفسه:

- مساء الخير يا افندم.. رامز غالي.

قدّم الرائد وائل نفسه مُجددًا، وقال:

- الرائد وائل تحسين.. مباحث قسم الشرطة اللي ابن سعادتك محتجز فيه.

ثم أشار لرفيقه وأكمل:

- النقيب شريف معاون المباحث في القسم نفسه.

نقل رامز نظره بينهما، وساد صمت، ثقيل كالظلام المشهدَ لثوانٍ، ثم قال متسائلًا:

- تشرفت يا افندم.. أقدر أساعدكم ازاي؟؟

رد وائل وهو ينظر لرامز بقوة تليق بضابط مباحث، وكأنه - هو نفسه- جهاز لكشف الكذب، وستكفيه نظرة ليعرف صدق الملياردير، أو يكشف كذبه:

- رامز بيه.. واضح إنك كنت متوقع الزيارة.. ما فيش أي ملامح انزعاج عليك من زيارة غالبًا بتكون بسبب مصيبة لما بتيجي من ناس زيّنا وفي وقت زي دا.. ودا معناه إنك غالبًا عندك معلومة بخصوص سبب الزيارة.. دا لو مكانش حضرتك ليك يد في اللي حصل النهاردا.

تسرب بعض القلق لنفس الملياردير من اتهام وائل الصريح والمباشر له، وهجومه المُبكر، على عكس توقعه، التقطت عين الضابط الذكي، التي

أثقلت موهبتها سنوات من التحقيقات، القلق الذي تسرب لنفس رامز، فأكمل ليطرق على الحديد وهو ساخن:

- حضرتك يا رامز بيه علاقتك كويسة جدًّا بالحزب.. ويمكن بالوزير شخصيًّا.. واللي حصل النهاردا ممكن يؤثر على صورة الوزير نفسه.. ودا أعتقد إنه مش هيكون له تأثير إيجابي على علاقات سعادتك.. يا ريت تساعدنا نفهم اللي حصل علشان توضح الصورة اللي من مكاني دا دالوقت شايفها مش لذيذة بالمرة.

نجح وائل في نزع الكثير من الثقة عن ملامح رامز بعد تهديده المُستتر، وظهر هذا النجاح جليًّا في نبرة صوت رامز غالي التي خرجت ضعيفة عما كانت عليه منذ ثواني:

- طب حيث إن الموضوع كدا.. يبقى نشرب قهوة لأن الكلام هيطوّل شوية.

أومأ وائل رأسه موافقًا، ولم يتحرك رفيقه الصامت شريف، ولم يتوقف عن النظر لرامز أيضًا، فاعتبره رامز موافقًا، فأشار للرجل الذي فتح لهما الباب منذ قليل وقال:

- قهوة يا عم حمدي من فضلك.

اقترب عم حمدي وسأل الضيوف عن قهوة كل منهم كيف يشربها وغادرهم بهدوء. "هل تلك الأرضية كاتمة للصوت؟ أم أن نباح الكلب غطّى على أصوات خطوات الرجل؟" فكّر وائل وهو يتابع خطوات حمدي الصامتة.

- وائل بيه.. أنا بكل بساطة ممكن أنكر أي معرفة ليَّ باللي حصل.. وكمان أحرج الداخلية وأطالب بعودة لؤي ابني.. لكن زي ما حضرتك قُلت أنا علاقتي كويسة بالحزب وبالحكومة ومش عاوز أبدًا حد ياخُد عني فكرة إني باستغل علاقاتي لمصالح شخصية والدليل إني سايب ابني مرمي في الحجز بقاله ٤ أيام وأصرّيت إنه يتعامل زيّه زي أي مواطن مصري في مكانه.. وكمان مش عايز حد ياخد عنِّي صورة مش حقيقية إنّي مسرّح مجرمين يعملوا لي شغلي.

صمت لثوانٍ حتى وضع عم حمدي القهوة أمام كل منهم وغادر، تبادل خلالها الضابطان نظرات الحيرة، ثم أكمل:

- الموضوع إني من ساعة جالي تليفون على موبايلي من رقم غريب ودا شيء غريب وفي وقت أغرب.. لقيته حد بيقول إنه هرّب ابني من الحجز وفي خلال نُص ساعة هيرجّعه تاني لو ما دفعتش ٢٥٠ ألف جنيه كاش غير قابلة للرصد.. وقفل السكة.

اتصلت بمدير مكتبي وعمل اتصالاته وأكد لي إن القسم دا فعلًا حصلت فيه عملية اقتحام.. ساعتها حسبتها ببساطة.. ابني مع واحد بيطلب فلوس.. ونجح بالفعل إنه يهرب بيه من قسم شرطة وطالب مبلغ تافه.. يبقى لازم ادفع.. خاصة إنه لو حوّلها لحالة خطف ودا سهل جدًّا وفي متناوله بالفعل ممكن يطلب ملايين وهادفع طبعًا بس هتبقى فضيحة للداخلية أولًا ثم ليَّ.

عاد صوت نباح الكلب في الخارج ليملأ الصمت الذي خيّم على الڤيلا لثوانٍ، وكأنه أراد أن يستغل فترة الصمت ليشارك في الحديث، بعد صمت رامز ليرتشف بعض من قهوته.

- كلمته على نفس النمرة وطلبت منه وقت أحضّر الفلوس.. قالي فات ٢٢ دقيقة من المُهلة.. وقال إن خزنة مكتبي فيها بالفعل أكتر من الـ٢٥٠ ألف جنية.. ودا صحيح.. مش عارف عِرف منين ولا كان بيخمّن.. بس ثقته كانت باينة من صوته.. وبيتكلم بهدوء حد في إجازة استجمام مش في وسط عملية كبيرة من النوع الخطير دا..

وافقت.. الغريب إنه لما سألته نتقابل ازاي كانت المفاجأة الكبيرة.. لأنه قالي إنه واقف على باب الڤيلا في عربية لانسر.

صمت رامز لثوانٍ ليرى وقع التفاصيل على ملامح ضيفيه، وكانت ملامحهما كما توقع، تحمل الكثير من الغضب الممزوج بالدهشة أو التعجُب ثم أكمل بعدما تأكد من أن حالة الانبهار الذي استحوذت عليه من جرأة السارق لم تكُن مقصورة عليه فقط:

- لما بصّيت من شباك أوضة مكتبي لقيته فعلًا واقف قصاد باب الڤيلا بكل جراءة.. فكّرت ثواني أبلّغ الشرطة بس طبعًا افتكرت إنه لسَّا جاي من عندكم.. سامحوني بس دي الحقيقة.

فكّرت أصحّي الأمن يضربوه بالنار.. أنا عندي الأمن مرخّص لهم سلاحين.. لكن لاقيتها فكرة ساذجة.. عربيته دايرة ووشه للشارع.. دوسة بنزين وهيبقى

بعيد.. وواحد قدر يدخل قسم ويخرج بابني من غير ما يتقبض عليه، رجالة الأمن عندي مش هيكونوا مشكلة بالنسبة له.. دا غير إن لؤي كان ممكن يكون في العربية ويتصاب.

المهم؛ طلب مني أنزل بشنطة الفلوس بنفسي.. نزلت.. لقيته قافل قزاز العربية.. فتح شنطة العربية من جوّا حطّيت فيها الفلوس.. ومشي.

صمت ليرتشف رشفة أخيرة من قهوته، فقال وائل ساخرًا:

- مشي؟ طب وبعدين؟ وابن سعادتك؟ قال لك هتستلمه مع التحليل بعد يومين؟

ابتسم رامز وقال:

- تصوّرت كدا لدقايق.. تصورت إنه نصب عليَّ.. بس بعدها بعت لي رسالة فيها مكان لؤي.

تملّك الذهول من ملامح الضيفين، ضحك رامز لثانية واحدة، ثم أكمل:

- أنا بعتّ حد يجيبه وهو في الطريق دالوقت.. وأول ما يوصل لُه هيكلمني.. لكن اسمحوا لي طبعًا إني انكر كل اللي قُلته دالوقت في أي تحقيق رسمي.. أنا قُلت لحضراتكم اللي حصل عشان اثبت حُسن نيّتي.

ابتسم وائل ابتسامة ساخرة ونظر لشريف الذي ظهرت على ملامحه ابتسامة مماثلة لأول مرة منذ نزل من بيته منذ ساعات، واستمر الصمت لثوانٍ، حتى قال وائل وهو يحاول جاهدًا أن يخرج صوته جامدًا ولكنه فشل وخرج صوته ساخرًا رغمًا عنه:

- طب وابن سعادتك.. بعد ما تلاقيه.. مش هترجّعه الحجز؟
عقد رامز حاجبيه حيث لم تعجبه نبرة السخرية التي خرج بها سؤال وائل ورد بثقة بها بعض الغضب المكتوم:
- ابني كان في القسم.. المفروض في حماية حضراتكم.. وواحد دخل القسم وخرج بيه.. المفروض مني أضمن سلامته تاني ازاي؟ والله أعلم لو كان لؤي بخير ولا حصلت له حاجة.
صمت لثوانٍ ليرى رد فعل موقفه على ملامحهما، ولكن لم يصله منهما سوى استهزاء خفي، فأكمل ضاغطًا على كلماته، وهو يُعيد فنجانه على الطاولة السوداء أمامه، بصوت جامد وبثقة جاهد حتى يجعلها كاملة:
- شوفوا يا بهوات.. أنا ابني في خلال دقايق هيكون في الحفظ والصون.. لأني
- وما تستغربوش- مصدّق الواد اللي خطفه.. ومش هيرجع الحجز تاني.. بس في نفس الوقت ما حدش عايز يحرج الداخلية.. تمام؟؟
انتظر منهم موافقة متوقعة، ولكن كل منهما لم تفارق ملامحه تلك الابتسامة الساخرة المُستهزءة، فأكمل ولكن بثقة بدأ لسبب لا يعلمه، يفقدها هو شخصيًا، كان هُناك شيءٌ في ملامح الضباط يدفع ثقته للتلاشي، وكأنها - ثقته- قلعة من الرمال على الشاطئ في مواجهة موجة بحر هائج:
- أنا فكّرت إن النيابة تطلق سراح لؤي بكفالة تحددها هي براحتها.. ونقنن الوضع.. وما حدش يعرف حاجة عن اللي حصل الليلة دي عشان ما

نحرجش حد.. وزي ما حضراتكم عارفين إن لؤي ممسوك في حادثة عربية.. والموضوع هيخلص في خلال أيام والبلاغ هيتسحب وهيخرج قانوني.. ولاد الست اللي اتعوّرت بيضغطوا بس عشان يزوّدوا التعويض لما عرفوا إنه ابني.

بس وجوده في الحجز مُقلق جدًّا.. خصوصًا بعد النهاردا.. ووجوده فيه مش بيفيد حد.. وكمان خروجه منه مش هيضُر حد.

وعندما لم يجبه أحد من الضيوف، ولم تفارق ملامحهم تلك الابتسامة الساخرة، قال بغضب مكتوم:

- أحب اسمع رأي حضراتكم في كلامي.. ولا اكلم حد كبير من الوزارة اتفاهم معاه؟؟

في إشارة منه إلى نفوذه الذي لاحظ أن ضيفيه قد نسياه أو تناسياه، فقال وائل والابتسامة الساخرة لا تزال تملأ وجهه:

- طب مش لما نتأكد الأول إن ابن سعادتك بخير؟؟ ولّا إيه؟؟

- اعتبره فـ...

قطع جملته رنين هاتفه المحمول، فظهرت تلقائيًّا ابتسامة المنتصر على ملامحه مُعلنة لضيفيه أن من ذهب ليحضر ابنه يتصل به في الوقت المناسب، ولكن لم تدُم ابتسامة المنتصر على ملامحه سوى ثوانٍ بعد ردّه، حيث عَلَت ملامحه خيبة أمل يكاد لا يميّزها من يراه من كثرة الغضب الممزوج بها.

تسارعت أنفاسه، وضاقت عيناه، ودون كلمة واحدة أغلق الهاتف وألقى به على الطاولة ونظر بغضب وشر لضيفيه اللذين كانا ولا يزالا يبتسمان باستمتاع ملحوظ، ولم يقطع الصمت سوى نباح الكلب، الذي ترجمه عقل رامز وكأنه ضحكة طويلة متقطعة تسخر منه، وبعد ثوانٍ من انتظاره لأي رد فعل من ضيفيه لم يحدث، قال أخيرًا:

- واضح إنكم عندكم معلومة مش عندي.. حد منكم ناوي يتكلم؟؟ كفاية تضييع وقت لحد كدا.. ابني فين؟؟

رد وائل بثقة وكأنه يُقِر أمرًا مفروغًا منه لا يحتاج لإقرار:

- في الحجز طبعًا يا رامز بيه.. هيكون فين يعني؟؟

- نعم!!!!!!!! قالها بصوت عالٍ وبغضب واضح، وشعر بعدها بعدم لياقة الطريقة التي تحدث بها، فعاد وقال مُغمغمًا بصوت مرتجف:

- بتقول في الحجز؟؟

- بالظبط.

- طب ليه قلت ان حد هرّبه من القسم؟؟

هنا تكلم شريف لأول مرة منذ حضوره، وقال بهدوء مُستفِز يبدو متعمّدًا:

- لا مش احنا اللي قُلنا كدا.. دا الواد اللي نصب عليك هو اللي قال كدا.

- بس.. بس أنا باقول من شوية إن ابني هرب والنيابة تفرج عنه وماحدش صحح لي المعلومة.

ابتسم شريف ونظر لوائل الذي كان مبتسمًا بدوره، وكأن كل منهما يعرض على الآخر الرد، ليستمتع بشرح الموقف للرجل، حتى حسم شريف الحوار الصامت ونظر لرامز قائلًا:

- حضرتك كنت بتتكلم.. واحنا عندنا قاعدة في المباحث بتقول طول ما اللي قصادك بيتكلم سيبه.. لأن طول ما الظابط ساكت اللي قصاده هيتكلم طالما عنده اللي يقوله ولما يخلّص اللي عنده هيسكت.

إحنا بقى كُنا مستنيين سعادتك تخلّص كلام وتقول كل اللي عندك، وصمت لثانيتين بهدف استفزاز رامز ثم أكمل باسمًا:

- وتسكُت.

صمت رامز لدقيقة كاملة نقل أثناءها بصره بين ضيفيه، ثم ابتسم وهز رأسه يمينًا ويسارًا، وقال أخيرًا:

- حلوة منكم يا بهوات.. سايبيني اتكلم واقول كل اللي عندي برغم إن كل اللي باقوله عكس الحقيقة.. حلوة.

بس انا لسَّا مش فاهم.. طالما ابني في الحجز.. اسمحوا لي اسأل؛ إيه اللي جابكم هنا غير إن ابني هرب؟!!

اعتدل وائل وأجاب كأنه كان ينتظر السؤال:

- هو دا السؤال الصح.. اللي حصل الليلة دي في القسم كان له علاقة بلؤي فعلًا.. بس ما كُناش قادرين نعرف ازاي.

قطب رامز حاجبيه في عدم فهم، فأوضح وائل:

- مش هتفهم إلا لما تعرف اللي حصل.. اللي اقتحم القسم دخل الحجز فعلًا وأخد ابنك منه وخرج منه ودخل مكتب المأمور.. وكان بينه وبين تهريبه خطوة واحدة إنه ينُط من شباك الدور الأرضي.. الغريبة إنه سابه في المكتب متكلبش إيد ورجل ومِشي.. واحنا جينا لسعادتك على أمل إننا نفهم اللي حصل.

وهنا تدخل شريف قائلًا بحزم:

- اللي حصل واضح طبعًا.. إن سعادتك بعتّ حد فعلًا يهرّب ابنك بس لما اكتشف إنه ممكن يتمسك هِرب وسابه عشان ما يتمسكش ويربطك بجريمة زي دي.

نظر له رامز بغضب وقال بضيق:

- انت بتتهمنى إني حاولت أهرّب ابني من الحجز؟؟ دي إها...

تدخل وائل مقاطِعًا رامز بهدوء:

- اهدى بس يا رامز بيه.. ما حدش بيتهمك بحاجة.. احنا بنحاول نرسم كل السيناريوهات المنطقية للي حصل.. يا ريت تساعدنا.

قالها ونظر لزميله بلوم واضح، كانت حركة مدروسة، و"مهروسة" إن صَح التعبير، حيث يهاجم أحد الضباط الشخص، ويدفع عنه الآخر الهجوم، فيثق الشخص في الضابط الطيّب، ويتحدث بما يخفيه، إن كان هُناك ما يخفيه. ونجحت الحركة؛ حيث قال رامز بعدما لاحظ نظرة اللوم تِلك:

- صيغة جملة زميلك فيها اتهام وتقرير واضح.. بس أنا هاعتبر نفسي ما سمعتهاش.. بس لو حسيت بأي اتهام تاني ولو بالتلميح هاعتبر المقابلة دي انتهت.

ثم نظر لشريف وقال:

- وياريت سعادتك تراعي إني لسَّا منصوب عليَّ في ربع مليون جنية.. وإني مخنوق زيّك واكتر من ابن الصايعة دا وعايزه يتمسك اكتر منكم.. وبخصوص نظرة الشماتة اللي كانت مسيطرة عليكم بقالها فترة.. ما تنسوش إن الواد دا دخل القسم عندكم لعب فيه عسكر وحرامية وخرج وانتم قاعدين.. يعني على رأي المثل لا تعايرني ولا اعايرك.

لم يرُد أيٌّ منهما على كلامه، سوى الكلب الذي بدا وكأنه يؤمّن على كلامه، ويعلن موافقته على منطقه، فأضاف رامز:

- مش منطقي أبدًا إن حد يدخل القسم من طرفي ويكلبش ابني ويسيبه ويهرب.. وانت قُلت إن الواد هِرب طب ما أخدش معاه لؤي ليه طالما كل اللي كان بينه وبين الهروب خطوة؟؟

- طب ليه أخد ابن سعادتك من الحجز من الأساس؟؟ في حاجة ليها علاقة بيك أكيد.. اشمعنى لؤي؟؟ ساعدني افهم.

صمت رامز لثوانٍ وظهرت عليه علامات التفكير، ثم ابتسم وزفر ساخرًا، وقال وهو يهز رأسه يمينًا ويسارًا:

- يا ابن الصايعة!!!

تعلقت به عيون ضيفيه فأضاف:

- أنا عرفت هو أخد لؤي ليه من الحجز.. أنا نسيت اقولكم إنه لما اتصل بيَّ في المرة الأولى سمّعني صوت لؤي بيقول "أيوة يا بابا.. سامعني؟؟" وأخد منه التليفون.. كدا يبقى سمّعني صوته وسابه في القسم ومشي.

فكّر وائل لثوانٍ، ثم قال:

- لا مش منطقي.. ازاي قعد يتكلم في المكتب والدنيا مقلوبة برَّا.

صمتوا لثوانٍ لم يملأها الكلب في الخارج نباحًا، وكأنه كان يُفكر معهم في تفسير ما حدث، ثم تدخل شريف:

- يبقى مش دا اللي حصل.. الواد أخد لؤي من الحجز.. واداله التليفون بعد ما أقنعه إن رامز بيه هيكلمه.. بس في الحقيقة كان بيسجل.. وبعد ما لؤي قال الكلمتين.. أخد منه التليفون وكلبشه وسابه ومشي.

قال وائل مُتسائلًا:

- يعني دخل القسم عمل الغاغة دي كلها عشان يسجّل كلمتين من لؤي يسمّعهم لرامز بيه ويقنعه إن ابنه فعلًا معاه عشان ينصب عليه؟؟ يا ابن الفاجرة.

أضاف رامز:

- وعشان عارف إني هاسأل من مصادري عن اللي حصل في القسم.. وساعتها هاعرف إن القسم حصل فيه مشاكل زي ما قال.. وهاتأكد إنه خطفه.. وخاصة إنه ما سابش وقت كفاية للأمور تكون وضحت.

خيّم صمت ثقيل على الكُل بعد اتضاح موقف النصّاب ودوافعه وخطته العبقرية الجريئة، ونبح الكلب فيما بدا وكأنه تحية للنصّاب على عبقرية، ثم نجاح مُخططه.

لم يمنع رامز نفسه من الابتسام إعجابًا بهذا الجريء الذي خدعه، وهو الذي لا يتذكر متى كانت آخر مرة تم خداعه فيها، أو إذا كان حدث هذا أبدًا. لمح شريف ضحكة رامز فعلّق بنبرة كساها الغيظ:

- أنا شايف سعادتك مبسوط منه قوي.

نظر له رامز وحافظ على الابتسامة وقال:

- مُعجب بيه.. مش مبسوط.. بتحترمه كخصم ذكي.. مش شايف إنه ذكي يا شريف بيه؟

- أنا شايفه نصّاب.. يستاهل يترمي في السجن بقية عمره.

- علشان كدا عمرك ما هتقبض عليه يا شريف بيه.. أول حاجة اتعلمتها في حياتي عن المنافسة أو الخصوم هي إنك تحترم قدرة خصمك وتقدّر ذكاؤه.. دي "أ، ب" يا شريف بيه.. مش عيب إنك تعترف إنه أذكى من تقديرك له علشان يمكن المرة الجاية تتفوق عليه.

ظهر الضجر على ملامح شريف جليًّا، فتدخل وائل للحيلولة دون وقوع جدل توقعه، وقال مبتسمًا:

- بما إن سعادتك الوحيد اللي اتكلم مع الواد دا النهاردا ممكن تقول لنا كل حاجة عنه؟؟

- زي إيه؟؟

- سِنه.. شكله.. حجمه.. أي حاجة.

في تلك اللحظات أخرج وائل مفكرة صغيرة من جيبه الخلفي وقلم من جيب قميصه وانتبه لما سيقوله رامز، الذي رفع عينه للسقف في علامة على التفكير ثم قال بعد ثوانٍ:

- أنا ما شُفتش منه حاجة خالص للأسف.. لما نزلت كان قافل قزاز العربية.. وكان قزازها أسود.. بس من صوته وطريقة كلامه أقدر أقول لك إنه من ٢٨ لـ٣٥ سنة بالكتير.. ومعايا طبعًا رقم التليفون اللي كلّمني منه.. ورقم العربية ومواصفاتها.. بش غالبًا مش...

قال وائل مُقاطِعًا بابتسامة سريعة:

- ما تقاطِعش يا رامز بيه.. ما فيش مجرم مش بيغلط.. وإلا ما كانش السجن اتبنى من الأساس.. هيغلط وهيتمسك إن شاء الله.. قول يا رب انت بس واكتب لنا البيانات.

قالها وهو يكتب أعلى ورقة خالية في مُفكرته؛ كلمة "الاقتحام".

بعد دقائق كان الضابطان يستقلان سيارة وائل في طريقهما للقسم الذي تعرض للهجوم قبل ساعات وبعد فترة قصيرة من الصمت، قال شريف وهو ينظر خارج السيارة:

- أنا مصدّق رامز.. مع إني مش باطيق الشخصيات دي.. اللي فاكرة البلد بتاعتها.

ضحك وائل بسخرية وهو يفتح شباك سيارته لينفخ دخان سيجارته وقال:

- فاكرة؟؟ البلد فعلًا بتاعة الناس دي يا شريف.. أمال سامحني يعني.. بتاعتي أنا وانت؟؟ بس هوّ فعلًا ما فيش عنده أي دافع يخلّيه يكدب.. لو هوّ اللي باعت الواد دا ما كانش أصلًا قابلنا.. دا غير إنه فعلًا ابنه هيخرج في ظرف يومين بالكتير.. مش منطقي يعمل كدا أبدًا.

- مظبوط. قالها وهزّ رأسه موافقًا وهو يتابع الكلب الذي يجري بجوار السيارة بإصرار واضح ويملأ الصمت بصوت نباحه الخشن.

* * *

٦

وصل الصحفي عماد المنسي مُبكرًا لمقر الجريدة المعارضة التي يعمل بها منذ ثلاث سنوات، جريدة "**الضمير**". أبيض البشرة، جميل الملامح، بشعر بني، يبدو للوهلة الأولى ابن مصري وأجنبية، أو العكس، قصير القامة، يرتدي "چينز" أزرقًا واضحٌ أنه - عماد- قد فقد بعض الوزن بعد شرائه، "وتي شيرت" أخضرًا عليه بعض الخطوط باللون الأبيض، وحذاءً رياضيًّا، على وجهه نظارة سميكة. شكله العام يوحي بأنه لم يحصل على أي قدر من الراحة منذ الليلة السابقة.

لم يكن عماد سوى شاب، خفيف الظل، ومكافح، جاء من ميت غمر المنصورة للقاهرة ليبدأ مشواره الصحفي، الذي كان يراه في مخيلته، وأحلام يقظته، ناجحًا.

كان دائم الرفض للظلم، والقهر، ورافضًا لقبول الوضع الذي شبّ عليه، فقرر تغييره، أو على الأقل، قرر المحاولة.

كان ثوري الهوى، يكره النظام، ويؤمن أنه سبب كل بلاء أصاب دولته، التي يعلم يقينًا أنها تستحق مكانة أفضل مما هي عليها، كان يؤمن أن مصر تستحق أن تكون دولة عُظمى، وتملك من الإمكانيات ما يكفي، ولكنها تحت أسر نظام قامع، وفاسد، يخنقها ويستنزفها، من أجل راحته، وثرائه.

مُستخدمًا في سبيل تحقيق ذلك، الداخلية، وضُباطها، كأداة للبطش، والقمع، والقتل أحيانًا كثيرة.

كان نشيطًا كالنمل، يبحث عن الخبر في كل شق، وتحت كل صخرة دون كلل، كان في معظم الأحيان عندما يحاول التحقيق في قصة ما، أو كتابة مقال عن تحقيق أجراه، كان رئيس التحرير يمنعه بسبب خوفه عليه وعلى جريدته من بطش مُحتمل.

كان رئيس التحرير يحترمه ويحترم رغبته في التغيير، ولكن يراه لا يعلم عند أي حد يتوقف، فجعل من نفسه وصيًّا عليه، ليرسم له الخط الأحمر الذي لا يجب عليه تخطيه، فهو لا يزال طفلًا في عالم الصحافة يتلمس خطواته الأولى.

قطع عماد الخطوات القليلة بين باب الشقة التي هي مقر الجريدة ومكتبه سريعًا برغم الإرهاق الواضح جدًّا على ملامحه، لم يُسلم على أحد، وكأنه لا يرى غير هدفه، ترك حقيبته وتوجه لمكتب كبير يحمل لوحة مكتوبًا عليها "رئيس التحرير".

ابتسم لسيكرتيرة رئيس التحرير وأشار للباب، فأومأت برأسها دون أن تتوقف عن الكلام عبر الهاتف.

دق على الباب دقّتين هادئتين لا تعكسان انفعاله الظاهر على ملامحه، وتوتره الذي تسبب في عدم وقوفه ثابتًا في انتظار الإذن بالدخول، ليُعطي انطباعًا خاطئًا لمن يراه من الخلف وكأنه في انتظار دخول الحمام.

- ادخُل. جاءه الفرج.

اندفع عماد إلى داخل مكتب رئيسه "كمال حجاب" الذي ما إن رآه حتى ترك ما كان يفعله ونظر له نظرة طويلة، نظرة مسحته من رأسه حتى أسفل ما استطاع أن يرى منه من خلف مكتبه. وكانت النظرة بالقوة الكافية لتجعل عماد ينسى، برغم أهميّة ما جاء من أجله لثواني، حتى قال كمال صارخًا:

- من امبارح ما فيش عنك خبر.. تليفونك مقفول.. ولا متنيل قايل انت فين.. عندي موضوع عايزك تغطّيه وانت مختفي.. وانت مختفي.. أنا عندي موضوع مهم.. وانت مختفي.

كانت من صفات كمال حجاب أن يُكرر كلامه، ولا يعلم أحد تحديدًا هل يفعل هذا واعيًا، أم أنها تحدث تلقائيًّا. وعند سؤاله، يؤكد أنه لا يكرر كلامه، إلا نادرًا !!

قال عماد متمتمًا:

- أنا كنت باغطي قصة مهمة.. وتليفوني فَصَل.. وماعرف...

قاطعه كمال قائلًا بضيق:

- قصة إيه اللي مُهِمة يا عم الخطير؟؟ ولو قصة مُهمة مش مبلّغني بيها ليه؟؟ وما طلبتش مصوّر ليه؟؟ ها؟؟ قصة إيه؟؟

- يا أستاذ كمال أنا ما كنتش متأكد من الحكاية.. قلت اتأكد الأول قبل ما آجي لَك.

- وبقالك كام ساعة بتتأكد؟؟ على كدا بقى المفروض يكون معاك حكاية تقيلة.. المفروض تكون اتأكدت ومعاك قصة تقيلة.. قصة الموسم.. قول يا سيدي.. ربنا يستر.

تردد عماد لثوانٍ، ثم قال بخفوت:

- ما هو أنا ....

- أنا؟؟ قاطعه كمال:

- انت لسَّا هتقول لي أنا؟؟ لسَّا هتقول أنا يا عماد؟؟ مش كنت من امبارح بتتأكد من قصة حسب كلامك؟؟ ومن منظرك شكلك ما روّحتش من امبارح.. إيه القصة اللي اتأكدت منها؟؟ إيه الموضوع اللي مطبّق لُه من امبارح؟؟

- ماهو.. أنا لسَّا ما تأكدتش بصراحة.

- لسَّا ما تأكدتش؟؟ كل دا غطسان وطالع تقول لي لسَّا ما تأكدتش؟؟ ليه يا عماد؟؟ ليه يا عماد؟؟ انت بتحاول تتأكد من إيه؟؟ مقبرة الإسكندر؟؟

- يا كمال بيه اديلي فرصة أفهّمك.

- أمال انت بتعمل إيه في مكتبي؟؟ ما تفهمني!! ما تفهمني!!

جلس عماد أمام مكتب كمال بسبب تعبه، ولثانية ترك جسده يرتاح ثم تنهد بإرهاق واضح وقال:

- امبارح كلمني حد من مصادري قال...

عَلا الاستنكار ملامح كمال وصوته مقاطعًا:

- مصا... إيه؟؟ إيه؟؟ مصادرك؟؟ الكلام دا تقوله للقارئ.. أنا تقولي المصدر.. تقولي المصدر يا عماد.

- أيوة يا أستاذ كمال.. أنا صحفـ...

- عماد.. ما تصيعش عليَّ وغلاوة مصادرك.. مين اللي كلمك؟؟ مين يا عماد؟؟ قالها والتقط كوبًا زجاجيًّا ليرتشف منه بتلذُذ واضح مشروبًا بني اللون، كان قد أجاب عماد عندما سأله منذ شهور عن محتواه أنه تركيبة من عند العطار، تحوي الكثير من المكونات، يذكر منها عماد الزنجبيل، والقرفة، والمرمرية. وقال له كمال يومها أنها تساعده على فقدان الوزن الزائد، كما تزيد من فحولته الجنسية.

وتساءل عماد في باله هل زادت فحولته بالفعل، لأنه لم يبدُ عليه أي فُقدان في الوزن، فما السبب الذي يجعله متمسكًا بالمشروب لاذع الطعم إن كان فشل في كل مهامه، إلا إذا كان قد تعوّد عليه ونسي لماذا بدأ في تناوله من الأساس.

فالبشر أحيانًا يتمسكون بعادات تعوّدوا عليها حتى بعد زوال الغرض من وجودها.

ترك كمال الكوب ونظر لعماد في انتظار رده فقال بعد أن نحّى تساؤلاته جانبًا:

- بصراحة أنا كنت سهران عند جماعة صحابي.. وانا نازل بالصدفة اتكعبلت في قصة.

ظهر الغضب على ملامح كمال ونفاد الصبر، فأكمل عماد مُسرِعًا قبل أن يحكم رئيسه على محاولته بالفشل كالعادة:

- والله الموضوع خطير يا أستاذ كمال.. حاجة هتضرب مبيعات الجرنال في السما.. وماتقلقش مش هنهاجم حد من الحكومة ولا رجال الأعمال الكبار اللي إيديهم طايلة وسعادتك بتخاف منهم.

أدرك عماد خطأ ما قال في لحظة سماعه جملته التي نطقها، فحاول أن يتدارك ليبرر ولكن صراخ كمال سبقه وأفزعه:

- باخاف؟؟ أنا ما باخافش غير من ربنا.. ما باخافش غير من ربنا يا عماد...

- أنا ما قصـ...

قاطعه كمال بصياح لم يسمعه منه قبل اليوم، مصحوبًا بخبطة على سطح مكتبه أدّت إلى انتفاض جسد عماد، على غرار بعض الأدوات على مكتب رئيسه إثر الخبطة القوية:

- اسمعني كويس يا عماد.. اسمعني كويس.. كون إني باحاول أوجّهَك للصح.. وارسم لك خطوط ممكن شبابك يخليك ما تشوفهاش لوحدك.. دا لأني عارف إن الوقت دا له اعتبارات.. واعتباراته مهمة.. مهمة.. ولأن الكلام عن الفساد والظلم بدون تفكير وأدلة ممكن يوديك في ستين داهية.. في ستين داهية.. لكن واضح إنك ما فيش فايدة فيك.. ما فيش فايدة.. هتفضل حمار لحد ما ينتهي بيك الحال بحكم محكمة في السجن.. ابقى افتكرني ساعتها يا عماد بيه.. ابقى افتكرني.

صمت عماد لثوانٍ، نظر خلالها إلى سجادة الأرضية التي تغيّر لونها وبَهَت، ثم قال بصوت مرتجف وخافت:

- صدّقني يا أستاذ كمال ما قصدتش اللي حضرتك فهمته.. يمكن خانني التعبير.. بس كنت اقصد اقول الناس اللي دايمًا باجيلك بخصوصهم.. وصدقني عارف إنك كتر خيرك بتحميني.. من فضلك اقبل اعتذاري.. أنا فعلًا ماقصدتش أوجه لك أي إهانة.

لم يرُد كمال وإن لانت ملامحه كثيرًا وهدأت أنفاسه، وساعده المشروب، ففكر عماد أن المشروب قد يكون له ميزة في النهاية، ثم قال مستفسرًا:

- ممكن بقى من فضلك أعرض عليك قصّتي وتقول رأيك؟؟

لم يرُد كمال، ولكنه لم يعترض، ونظر لعماد نظرة من لا يمانع، ولكن لن يعطي الإذن، وهذا كان كافيًا لعماد ليبدأ في سرد ما حدث معه في ليلته الماضية بالتفصيل على أمل أن يسمح له رئيسه بأن ينشر مقاله الذي يرى فيه بداية انطلاقته لمستقبل طالما حلم به.

- امبارح على الساعة ١٢ بالليل كدا سمعنا أنا وصحابي اللي كنت سهران عندهم قلق قريب مننا.. ولقينا ناس ملمومة حوالين القسم القريب من بيت صاحبي.. نزلت اشوف في إيه.

ظهرت ملامح الانتباه والفضول على كمال، فهو في الحقيقة صحفي، ويملك حدس صحفي قلّما يُخطئ، وشعر بالتأكيد أن ما يسمعه من عماد - برغم هزله- قد يخفي خلفه قصة تستحق التحقيق. كانت ملامح التفكير العميق

تظهر على ملامح كمال، مما شجّع عماد على مواصلة الحديث، لأنه في المرات السابقة كان النقاش ينتهي أسرع من هذه المرة بكثير، فأكمل وقد تملّكته الحماسة قليلًا:

- نزلت جري ولما وصلت القسم من النظرة الأولى اتأكدت إن في حاجة غلط.. كل حاجة هناك كانت بتقول إن في مصيبة حصلت.. كانوا قافلين حوالين القسم كوردون ييجي ٣٠ متر.. قرّبت وحاولت اطلب إني ادخل اتمنعت بدون تفسير وبردود أقرب للهلوسة.. ريحة الغاز المسيل كانت طالعة من جوا القسم.. ما حدش عنده رد منطقي على سبب الغلق.. وفي الأخر لما حبيت اتأكد قُلت لأمين على الباب إني صحفي وجاي اعمل تحقيق كان هيقبض عليَّ.. وبالعافية أقنعته إني معدّي بالصُدفة.. وكان عايز يشوف بطاقتي ولو شافها كان عِرف إني من المنصورة وكان هيعرف إني مأجّر بعيد ولا يمكن اكون هناك بالصدفة وما كنتش هاروّح.. بس الحمد لله احتاجوه فجأة وعرفت افلِت منه وهو مشغول.

اعتدل كمال وأسند مرفقيه على المكتب وسأل باهتمام:

- طب وبعدين؟؟

- بصراحة ما فيش بعدين.. ما قدرتش أوصل لحاجة متينة تأكد أو تنفي.. بس في حاجة حصلت في القسم دا امبارح.. دا أكيد..

بعدها مشيت غبت شوية كدا ورجعت وكان الوضع زي ما هوّ.. عربيات داخلة خارجة.. ناس شكلهم رُتب كبيرة وقايمة من السرير على القسم عِدل.. أنا متأكد من اللي شُفته.. بس ما فيش دليل واحد قدرت امسكه للأسف.

قالها وهزّ رأسه بأسف وتنهّد مُعلنًا عن نهاية ما في جعبته من تفاصيل، وملامحه تنتظر بصبر نافد ردّ فعل رئيسه، الذي كان غارقًا في تفكير عميق، وملامحه جامدة لا تبيّن ما وراءها من أفكار أو نوايا.

وبعد دقيقتين من الصمت التام، والتفكير، قال كمال ولكن بلهجة من لا يقتنع بنسبة كبيرة بقراره:

- ماشي يا عماد.. اكتب المقال واعرضه عليَّ ونشوف.. لو قدرت تكتب موضوع متماسك بالعدد صفر من المعلومات والأدلة اللي معاك دي، هاته اشوفه وممكن ينزل.. ما اوعدكش.. بس ممكن.

ثم أضاف بصوت خافت وكأنه يحاول إقناع نفسه مُفسِرًا:

- واضح إن في حاجة حصلت فعلًا.. وممكن تكون تم تداركها وكل حاجة طبيعية دالوقت.. بس دا ما يمنعش إنها قصة جديرة بالاهتمام. ثم نظر لعماد وقال بحزم:

- حابب اشوف هتكتبها ازاي.. وبعدها هاقرر.. اكتبه وبعدين نقرر.

لم يرغب عماد لحظة دخوله المكتب منذ دقائق في أي شيء سوى ما حصل عليه لتوّه، شعر بنشوة اقتراب الحلم تغمره لثوانٍ، وخفق قلبه بشدّة، وكأنه عاشق، لأول مرة، يلمس يد حبيبته، وهذا بالتحديد ما كان يحدث في

تلك اللحظة. فالصحافة هي معشوقة هذا الشاب منذ أن كان طفلًا، وها هي تسمح له، بخجل، أخيرًا أن يقترب.

الحلم كالبحر، يمكنك أن تشعُر باقتراب تحقيقه قبل أن تراه يتحقق. وها هو عماد يشعر ببحره الخاص يقترب.

تذكر عند الباب أنه لم يشكُر رئيسه، فالتفت له وقال:

- شكرًا يا أستاذ.. أوعدك مش هتندم.

ثم غادر المكتب بنشاط جدّده، برغم تعبه، اقتراب تحقيق حِلم طال انتظاره.

فغمغم كمال بصوت لم يصل لعماد:

- الخوف انت اللي تندم يا عماد.. الخوف انت اللي تندم.

* * *

٧

وصل الرائد وائل تحسين، قبل موعده المُعتاد، لأسباب واضحة بالطبع، بسيارته عند المكان الذي يتركها فيه أمام القسم الذي تعرض لعملية اقتحام الليلة الماضية، لم يتمكن من النوم، فقط ذهب للمنزل بعد زيارة رامز، اغتسل وعاد للقسم.

جاء عسكري مهرولًا عندما لمح سيارة الرائد ليزيح الحاجز الذي يمنع سيارات المدنيين من ترك سياراتهم - التي تشعر أنها أصبحت أكثر عددًا من الشعب نفسه- أمام القسم في المكان المُخصص لسيارات الضُباط.

ترك وائل سيارته وغادرها، وفي خطوات سريعة، دخل القسم، وكأنه يُرسل رسالة لمن يراه أنه ينوي، اليوم قبل الغد، القبض على هذا اللعين الذي سوّلت له نفسه أن يقتحم مكان عمله.

كان مرتديًا قميصًا أزرقًا ضيقًا يكشف عن جسد رياضي متناسق، وبنطالًا من الكتان عسلي اللون، وحذاءً بنيًّا من القطيفة.

كان الرائد وائل أحد الضباط الذين التحقوا بالوزارة بهدف الخدمة العامة. لم يطمع في جاه أو سلطة تُمكنه من ظلم البشر، حيث كان يرى البشر لديهم ما يكفيهم من ظلم. كان رقيق القلب، يرفض الظلم، ويحترم الإنسان قدر إمكانه. كانت أفكاره كثيرًا ما تُسبب له المُشكلات مع رؤسائه، وزملائه في العمل، حيث أنه كان يرفض علنًا الكثير من المُمارسات التي يرتكبها بعض

الضباط، وتُسيء للوزارة كلها. ولطالما احتدمت مناقشات بينه وبين معظم رجال عائلة خطيبته، حيث أن معظمهم من رجال الوزارة ذوي الرُتب العالية، مما ساعد سيرته الثورية أن تنتشر داخل الوزارة، بسرعة انتشار الفضائح على مواقع التواصل، ولأنه ضابط كُفء، وذكي، ومثابر، كان الجميع يحترمه، ولكن كان دائمًا ما يطاله اللوم، بسبب استثماره الكثير من الجهد والوقت في بعض القضايا، وصل في بعض القضايا إلى حد الهَوَس، التي كانت، من وجهة نظر بعض الضباط زملائه وقتها، تبدو وكأنها لا تحتاج لكل هذا القدر من التعب، مما يجعلهم - زملاءه- يظهرون بمظهر المُقصّرين في عملهم، ولكنه لم يهتم، فعندما كان يحدثّه حدسه بشيء، لا يستمع لسواه، ويتبع حدسه حد الهوَس أحيانًا، مما أحرجه كثيرًا، والذي تسبب مرة في إيقافه عن العمل، ولكنه - من وجهة نظره- لم يُحَرج كفاية ليتغيّر.

كان يؤمن بأن جُهدًا كثيرًا ضائعًا، أفضل من تكاسُل يؤدي لحق ضائع.

وبرغم احترام - تقريبًا- الجميع له، كان الجميع يعلمون أنه لن يصل يومًا لمنصب مسؤول داخل الوزارة، بسبب قناعاته وكثرة مشاكله.

ففي عالم يحكمه البَشر، الكفاءة وحدها لا تكفي للنجاح.

دخل وائل مكتبه، والتقط "ريموت" التكييف، لينطلق صوت أشبه بموتور الجرار الزراعي لثوانٍ بعد أن ضغط زر العمل في ال"ريموت". دخل خلفه العسكري المُجنّد الذي يقوم على خدمته ووقف عند الباب ويداه خلف

ظهره، فالتفت إليه وائل وهو يدور حول مكتبه ليجلس على كُرسيه، الذي أصدر صريرًا عند استقبال وزن صاحبه، وقال وائل وهو يخرج سيجارة من علبته:

- قول لمحمود على القهوة بتاعتي.. وابعت لي الأمين مجدي حالًا.. وجرايد النهاردا.. والف.. قطع كلامه لثوانٍ، حتى قرر أنه لا يملك وقتًا ولا شهية ليفطر، فأشار للشاب أن يُغادر.

ترك وائل هاتفه على المكتب لثواني، ليُشعل سيجارته، ثم التقته مُجددًا، وكتب رسالة لخطيبته مَيْ:

"صباح الخير.. ادعي لي عشان اليومين دول يعدّوا على خير.. وادعي لي امسك الواد اللي اقتحم القسم امبارح"

وترك هاتفه على المكتب، ولكنه التقطه بعد دقيقة واحدة عندما جاءه الرد من خطيبته التي تعمل في بنك، ولا تستطيع التحدث عبر الهاتف في معظم الأوقات بحُريّة.

"ربنا معاك يا حبيبي ويقدّرك على اللي بتتمناه.. مستنياك بعد الشغل النهاردا.. لو ما جيتش هاقتحم القسم بنفسي وأخلّص عليك"

ابتسم تلقائيًّا، وهو ينفُخ دُخانًا مَرّ عبر رئتيه وقتل من خلياتهما ما قتل، عندما رأى ابتسامتها عبر الرسالة وكأنه يراها مبتسمة أمامه: جميلة وساحرة و....

- أوامر سعادتك يا وائل بيه.

أفاق على صوت مجدي ليجده أمامه، فأدرك أنه لم يسمع دقاته على الباب الذي لا يمكن أن يدخل المكتب قبلها، ولم يلحظ وصوله، حتى اضطر مجدي أن ينتزعه من حلم يقظته انتزاعًا بملامح تقول بوضوح:

"احنا في إيه وانت في إيه يا عم روميو؟"

نحيل الجسد، ومتوسط الطول، يحمل وجهه شاربًا رفيعًا، كان هو -الشارب- العلامة المميزة الوحيدة التي يحملها وجهه، كان يحمل أحد تلك الوجوه السمراء التي لا تتميز بأي شيء، وفوقه شعر مجعد قصير.

نظر له وائل بغضب وكأنه تعمّد التسلُل لمفاجئته، وقال:

- اقعد يا مجدي. فجلس دون كلام، فأكمل وائل:

- إيه اللي شُفته امبارح بالظبط؟؟

قال مجدي بضجر مستتر:

- مانا قُلت لسعادتك يا وا...

قاطعه وائل صارخًا وهو يضرب سطح مكتبه بقوة:

- مش عايز قُلت وما قُلتش.. قول تاني ياعم المهم.. ولا وراك الديوان.. انت مش واخذ بالك من المصيبة اللي احنا فيها؟؟ ولا من خطورة الكلام اللي بتقوله؟؟ ركز معايا على الصبح وفتّح مُخك.

انتفض مجدي مع غضب وائل، واعتدل تلقائيًّا في مكانه كطفل يقوم بارتكاب شيء خاطئ وسمع صوت دقات والده على باب غرفته، وقال بصوت غاضب نسبيًّا:

- ما اقصدش يا وائل بيه.. أنا قصدت إني متأكد من اللي شُفته.. الواد دا كان لابس قناع غاز من بتوع الوزارة.. يا باشا دا انا شعري شاب في الشُغلانة دي.. مش هاعرف حاجة الوزارة؟؟ دانا اقعد في بيتنا احسن.

انتظر وائل، محمود الساعي حتى يخرج من مكتبه بعد وضع قهوته أمامه، وأطفأ سيجارته في منفضة خزفية، ثم قال باستهزاء:

- ما تقلقش.. المرة دي شكلها فيها ناس هتقعد في البيت فعلًا.

ولما انت مصحصح قوي.. خَد منك مفاتيح الحجز ازاي يا فالح؟ قالها وهو يلتقط فنجانه، وقرّبه من أنفه، وكعادته، استنشق رائحة البُن، حتى يتأكد أن الساعي قد استخدم البُن الخاص به، وليس "بُن الزباين"، قبل أن يرتشف أول رشفة.

ردّ مجدي بخجل:

- الواد دا خدنا على خوانة يا وائل بيه.. واقطع دراعي إن ما كان تدريب مخابرات.. يا باشا الواد كان عامل زي الشبح.. ما حدش شافه.. الواد دا مخابرات أجنبية يا باشا أقسم بالله.. طب تصدّق بالله؛ الواد دا أنا لو كنت شُف...

قاطع وائل وصلة التهويل التي كان مجدي على وشك إطلاقها:

- ماشي.. خلاص يا عم المفتّح. روح وابعت لي الأمين ياسر.

تنهّد وائل وهو غارق في تفكير عميق، وأصابعه تنقُر على سطح مكتبه دون وعي منه. بالفعل كان جزء منه يصدق سيناريو أن يكون هذا المُقتحم قد تم

تدريبه على أعلى مستوى، ويمثّل جهة مُنظمة، وإلا فكيف حصل على قنابل وأقنعة غاز مثل تلك التي تُستخدم في وزارة الداخلية؟ وأيضًا بسبب طريقة تنفيذ الاقتحام، فعملية مثل التي نفّذها هذا الشبح في دقائق تتطلب أيامًا من التخطيط والدراسة، وقدرًا كبيرًا من الشجاعة. ولكنه كان يرفض الإفصاح عن هذا السيناريو، أولًا لعدم وجود أدلة عليه، ثانيًا لخطورته، وثالثًا لأنه يخشى أن يكون تفسيره هذا سببه أنه يحاول إقناع نفسه بعدم التقصير، وأن ما حدث سببه هو حصول الخصم على تدريبات أفضل. لذلك كان يرفض طرح هذا السيناريو رفضًا قاطعًا.

فالبشر نوعان، الأول وهو الكسول، الذي يستسلم لأول سيناريو يبدو منطقيًّا، ويُريح ضميره، والثاني الذي يدرس كل سيناريو دراسة كافية حتى يجد حجة قوية على استبعاده، لتبقى الحقيقة بدون حجج لاستبعادها. ووائل كان من النوع الأخير.

للمرة الثانية يُفاجأ وائل بياسر أمامه في وسط غرفة مكتبه، ولكنه أفاق هذه المرة قبل أن يقاطع ياسر أفكاره.

كان ياسر على عكس مجدي؛ ضخم الجُثة، غليظ الملامح، يبدو وكأنه خُلق خصيصًا ليكون سوطًا في يد السُلطة للبطش بالمجرمين، وكان له شارب كث وطويل بشكل مُلفِت. أشار له وائل بالجلوس وقال:

- انت مش فاكر قبل الهيصة بتاعة الورد والجاتوه دي حد دخل القسم يا ياسر؟؟ ركز معايا وحياة الغالي. قالها وأشار لشارب ياسر، حيث كان يعتني به الأمين عناية خاصة وكأنه أحد أبنائه.

قال ياسر بصوت غليظ، مثل كل شيء فيه:

- اللي دخل امبارح القسم قبل الخناقة هما ٣ يا وائل بيه.. الست اللي بتيجي كل يوم تجيب سجاير للواد "جنزير" اللي في الحجز.. وواحد تاني كان شكله سوابق ودماغه مفتوحة قالي إنه جاي يبلغ عن واحد ثبّته.. وعيل ابن ناس كان داخل وانا معايا تليفون مهم يعمل محضر حادثة.

- ومين منهم كان شايل شنطة؟؟

- الست والواد ابن الناس.. الواد السوابق دا كانت إيده فاضية.

فكّر وائل لثوانٍ، ثم سأل مُعتدلًا على كرسيه الذي أصدر صريرًا مع حركته، وأمسك مُفكرته الصغيرة التي لا تفارقه وفتحها على صفحة مكتوب على رأسها كلمة "الاقتحام":

- وفاكر شكل الواد "ابن الناس" دا يا ياسر؟؟

- الكدب خيبة يا بيه.. أنا لما سألته رايح فين.. رد عليا بضهره من غير ما يبُص لي عِدل.

جزّ وائل على أسنانه وتنهد في غضب وصمت لثوانٍ، وقبل أن يتحدث أضاف ياسر في محاولة لتبرئة نفسه من تهمة الإهمال:

- يا وائل بيه الواد ابن الناس دا شكله ما يعرفش يعدّي الشارع بطوله.. والشنطة اللي كان ماسكها كانت صغيرة.. ما تشيلش عِدة.. اللي عمل كدا في القسم أكيد كبير وجِتته تستحمل الهبد.. مش عيل طري.

أقطع دراعي إن ما كان مخابرات يا بيه.. وجاي من الدور اللي فوق، صمت لثوانٍ ثم أكمل قائلًا باندفاع كمن "جاب الديب من ديله":

- ممكن يكون نط على السطح من عمارة تانية أو هليكوبتر.. ونزل ع السلـ...

- ششششش. استوقفه وائل بضيق حيث لم يعُد وائل قادرًا على الاستماع للمزيد، فأشاره له أن يصمُت، فصمت. ثم أشار له، دون كلام، ناحية الباب وهو يرتشف قهوته، فغادر ولكن ملامح ياسر كانت تنطق بإصرار أن المُقتحم "مخابرات أقسم بالله".

يميل البشر دائمًا لإلقاء اللوم على الآخرين، فالاقتحام لا يمكن للأُمناء استيعاب أن يقوم به شخص عادي، فكان التفسير "المُخابراتي" مُريحًا لكل منهما.

أمسك وائل قلمًا أزرقًا وكتب على الورقة المُغطّاة "بالشخبطة" التي أمامه على المكتب في المساحة الصغيرة الوحيدة الفارغة فيها كلمة "عيل ابن ناس" وأحاطها بدائرة، ولكنه شرد واستمر القلم كأنه يتصرف من تلقاء نفسه في رسم ذات الدائرة حول الكلمة مرارًا وتكرارًا، وكأن هناك من يحاول أن يؤكد للضابط أنه على حق.

فالعقل الباطن له أساليبه في عرض ما يظُنه.

بعد ثوانٍ ضغط وائل زر استدعاء راضي فدخل مكتبه:

- ابعت هات لؤي من الحجز.. وقول لمحمود يعمل لي قهوة تاني. ثم كتب في المفكرة على الورقة تحت كلمة "الاقتحام" وتحت السن التقريبي الذي قدّره الملياردير، ورقم الهاتف الذي تحدث منه المُقتحِم، وبيانات السيارة التي استقلّها لڤيلا رامز:

"عيّل ابن ناس"

خرج راضي لينفذ تعليمات رئيسه، الذي سرح لثوانٍ مُجددًا فيما هو بصدده.

"تلك القضية لا تبدو كأي عملية نصب عادية"

دخل شاب تبدو عليه مظاهر الثراء وقِلة النوم والانكسار مكتب وائل. شاب متناسق الجسد، يبدو كأنه قد استثمر الكثير من الوقت في بناء عضلاته، شعر كثيف مبعثر على جبهته، يرتدي "تي شيرت" برتقاليًّا ماركة "لاكوست"، وبنطالًا من "الجينز" أزرقًا ماركة "ديزل"، وحذاء "لاكوست" أبيض اللون. برغم عدم نظافة ملابسه، ولكن الثراء يبدو ظاهرًا عليها بوضوح.

ابتسم له وائل ببرود، وأشار له أن يجلس، وقال:

- تشرب حاجة؟؟

تملّكت اللهفة من ملامح لؤي، وكأنه غريق لمح طوق نجاته قبل استسلامه للغرق بثواني، وقال بلهفة كالطفل:

- سيجارة وفنجان قهوة.. آسف يا باشا لو هتقّل عليك.. بس انت اللي سألت.

ابتسم وائل لثوانٍ، فعادة لا يكونون أبناء الأثرياء بهذا الأدب، ولكن يبدو أن رامز قد تمكن من تعليم ابنه الأدب على الأقل، ولكنه، كما يبدو، قد نسي أن يعلمه قيادة السيارات، وإلا لما كان هنا من الأساس.

ضغط وائل زر استدعاء راضي، وقال له عند دخوله:

- هات علبة سجاير مارلبورو ابيض من برًّا يا راضي.. وخلّي محمود يعمل قهوة للؤي بيه من البُن بتاعي.. قهوتك إيه؟؟ سأل لؤي، فأجاب:

- مانو يا باشا. فهزّ رأسه لراضي، الذي خرج لتنفيذ التعليمات.

أراح وائل ظهره على كُرسيه الكبير واستمع لصريره المُعتاد، وسأل لؤي:

- فيك حيل تتكلم ولا نستنى السجاير والقهوة؟؟

- لا يا باشا اتفضل.. لسَّا الشحن ما خلصش.

ابتسم وائل وسأل:

- ممكن توصف لي الواد اللي خدك من الحجز؟؟

فكر لؤي لثوانٍ ثم قال:

- هو ملامحه كانت طول الوقت متغطية بالـ Mask بتاع الغاز.. بس من كلامه وطريقته ولبسه.. شكله Professional.

عقد وائل حاجبيه وقال وهو يتفحص ملامح لؤي جيدًا ليرصد أي دلالة على كذب يحاول لؤي مداراته:

- انت أول مرة تشوف الواد دا؟؟

تعجّب لؤي من السؤال، وقال:

- أنا أصلًا ما شُفتوش كويس عشان اعرف إن كنت شُفته قبل كدا ولا لأ.

- يعني الواد دا ما كانش جاي بتعليمات من رامز بيه؟؟ قالها واعتدل للأمام متفحصًا لؤي بنظره، ليرصد أي علامات كذب توقعه، وتسببت حركته في صرير قصير من الكرسي، وكأن الكرسي كان يحذر لؤي من الكذب.

أدرك لؤي لحظتها مُراد وائل من سؤاله السابق، فقال بصدق:

- بصراحة يا وائل بيه هو قال كدا.. بس أنا متأكد إنه كداب.. مع إني مش عارف هو جه ليه ولا فاهم Logic تصرفاته الغريبة.. بس أنا متأكد إن مش بابا اللي باعته.. No way.

كان وائل يستمع إليه بتركيز، وسأله عندما أنهى كلامه:

- بتقول هو قال لك كدا؟؟ قال لك إيه؟؟

دخل محمود ووضع القهوة أمام كل منهما، ثم ترك علبة السجائر المطلوبة أمام وائل على مكتبه وأدار ظهره ليغادر، فاستوقفه وائل قائلًا:

- استنى يا محمود، وقام ودس يده في جيبه وأخرج بعضًا من النقود وناولها لمحمود وأكمل:

- شوف مين حاسب على السجاير دي.. حاسبه وخلّي الباقي معاك لحد ما أخلّص هنا.. شكرًا.

جلس وائل وناول علبة السجائر للؤي الذي فتحها في ثانية وأخرج منها سيجارة ووضعها في فمه، ونظر لوائل بخجل وهو يعرض عليه سيجارة وقال:

- معاك ولاعة يا باشا؟؟

مدّ وائل يده في درج مكتبه وأخرج ولاعة ناولها للؤي، وقال:

- ولّع انت.. أنا ما باغيّرش سجايري. وأخرج سيجارة من علبته، وانتظر لؤي ينتهي من إشعال سيجارته.

أشعل لؤي السيجارة، ثم قام وأشعل سيجارة وائل، ثم جلس وسحب من سيجارته نفسًا طويلًا ونفثه وهو مغمض العينان كمدمن وحصل لتوه على جرعة غابت.

صمت وائل لثوانٍ ليترك لؤي يستمتع بالنفس الأول حتى فتح الأخير عينيه وقال:

- عرفت منين يا باشا إني بشرب مارلبورو أبيض؟؟

- من حاجاتك اللي اتحرزت لما جيت.. فيها سجايرك.. ممكن تشرب قهوتك وتكمّل كلام بقى؟؟ كنت قُلت إن الواد قال لك حاجة.. قال لك إيه؟؟

- هو قال لي إنه جاي من طرف بابا عشان يخرّجني.. بس كان بيكدب.

- ليه بتقول كان بيكدب؟؟

ترك لؤي فنجانه بعد شرفة طويلة من قهوته، وقال وهو يومئ برأسه:

- حلو البُن. ثم عاد لموضوع الحديث وقال:

- أولًا لأن بابا لا يمكن يعمل كدا.. دا سايبني بالعند في الحجز وعرفت من الأمناء إنه محرّج عليهم حد ينقلني "حجز البهوات" عشان اتربّى. ورفع يديه بعلامة التنصيص ليؤكد اقتباسه اللفظ من الأمناء، وابتسم. ثم أكمل:

- ثانيًا الحَد اللي أنا خبطه حالته اتحسنت الحمد لله ومش ناوي يقاضيني.. بابا يعمل كدا ليه؟ وانا كدا كدا خارج في خلال أيام.. ثالثًا الواد نفسه ما خرّجنيش.. هو كان عايز حاجة تانية وعمل حركة بابا دي عشان يحوّل نظر حضراتكم عن حقيقة غرضه.

اعتدل وائل وضيّق عينيه في انتباه واضح، وصرّ كرسيه وكأن المعلومة لفتت انتباهه هو أيضًا، وقال وائل:

- عايز حاجة تانية؟؟ إيه اللي خلاك تقول كدا؟؟ وحاجة زي إيه؟؟

- مش عارف والله يا باشا.. بس هو أكيد ما كانش جاي يهرّبني.. I'm sure.

صمت وائل لثوانٍ، فكّر خلالها في كلام لؤي، ثم قال وهو يريّح ظهره مرة أخرى على مقعده الذي صرّ بصوت اعتاده وائل:

- طب احكي لي كدا بالتفصيل اللي حصل معاك من لحظة ما دخل الحجز.. لحد ما سابك.. بالتفصيل.. مهما كانت التفاصيل صغيرة ما تسيبهاش.

تنهّد لؤي ثم بدأ في سرد تفاصيل ليلته الغريبة:

- احنا في الحجز سمعنا صوت زعيق جاي من برّا فجأة.. الشباب في الحجز قاموا يبصّوا من الفتحة.. طبعًا ما حدش شاف حاجة.. بس كان واضح إن في قلق برَّا.. وبعدين سمعنا صوت المفتاح.. كله بِعد عن الباب افتكرنا حد جديد جاي أو حاجة.. فجأة لقيت دخان ملا الحجز.. ما حدش كان فاهم إيه اللي بيحصل.. أنا وشي باظ.. ما بقيتش عارف آخد نفسي ولا شايف.. ما حسيتش بنفسي إلا وحد بيشدني وبيركب Mask غاز على وشي.. اتنفست الحمد لله.. بس برضه ما كنتش شايف كويس.. وكنت فاكر وقتها إن غاز اتسرب من المواسير ودي عملية إنقاذ لكل المساجين.

توقف لثوانٍ ليأخذ نفسًا طويلًا من سيجارته قبل أن يطفئها، ويشعل واحدة جديدة. ثم أكمل:

- الولد شدّني قُمت معاه بس ما كنتش شايف كويس من الدموع ووشي كان لسَّا بيحرقني.. فضلت ماشي معاه لحد ما فتح باب أوضة ودخّلني جواها.. وقال لي "بابا اللي باعتني" واداني تليفون أكلمه.. بس الخط ما كانش شغال.. وبعدين فجأة لفّ ورايا ولقيته بيربط إيدي في بعض.. وبعدين رجلي.. ما بقيتش فاهم حاجة.. وبعدين خرج.. وفضلت كدا لحد ما العساكر لقوني.

انتبه وائل وعقد حاجبيه وسأل باهتمام:

- خرج فين؟؟ تقصد نطّ من الشباك.

- آه.. آه.. نطّ من الشباك...

صمت لثوانٍ وكأنه يتذكر، ثم أكدّ:

- آه هو دا اللي حصل.. بس هو الأول خرج من باب المكتب ثواني ورجع نط من الشباك.. تقريبًا حاول يخرج من الباب بس الطريق كان صعب.

صمت وائل لثوانٍ مُفكرًا، ثم قال بصوت جاد:

- لؤي.. ركز كويس.. انت متأكد إنه خرج من الباب؟؟ وخرج من المكتب وقفل الباب وراه؟؟ ولا كان بيبُص برَّا؟؟ وغاب وقت قد إيه تقريبًا؟؟ ثواني ولا دقيقة ولا اتنين؟؟ ركّز من فضلك.. التفاصيل دي مُهمة جدًّا.

تنهّد لؤي بعُمق، وظهرت علامات التذكُر على ملامحه، ثم قال بلهجة من تذكر شيئًا لتوّه:

- افتكرت.. بعد ما أخد مني التليفون.. فتح الشباك.. وبعدين خرج وقفل الباب وراه بالراحة.. وغاب تقريبًا دقيقة.. دقيقة ونُص.. لأني حاولت اتعدل على الكرسي وافُك الرباط.. بس بعد محاولتين وقعت على الأرض.. رجع هو لقاني على الأرض.. عدّى من جنبي ونط من الشباك.

قال وائل وكأنه يحدث نفسه:

- يعني فتح شباك المكتب.. وسابك فيه. وأشار إلى لؤي، وأكمل:

- ورجع بعد دقيقة نط من الشباك المفتوح.

دارت عينا وائل في الغرفة في علامة على التفكير، ثم أدرك بعد ثوانٍ أن لؤي ما يزال جالسًا أمامه، فابتسم بودٍ وهو يضغط زر استدعاء راضي، وقال:

- شكرًا يا لؤي.. خلّي السجاير معاك. وأشار لراضي الذي دخل المكتب ليُعيد لؤي للحجز كما كان، وقال لراضي وهو يغلق الباب:

- وابعت لي شريف بيه.

وأمسك القلم وكتب في مُفكرته في نفس صفحة "الاقتحام":

"Professional"

"فتح الشباك وخرج من المكتب ورجع نط من الشباك"
"عايز حاجة تانية"
وغَرق مُجددًا في تفكير صامت، لم يقطعه سوى صوت التكييف الصاخب، الذي بدا وكأنه يحاول تذكير صاحبه بوجوده وفضله في اعتدال درجة حرارة مكتبه، بصوته الذي اعتاد عليه وعي الضابط، فتوقف - تقريبًا- عن سماعه.

* * *

٨

خرج الصحفي عماد المنسي مُسرعًا من حمامه الدافئ ليلحق بهاتفه قبل أن يتوقف عن الرنين، كانت مقالته التي انتهى منها في وقت قياسي، ووافق على نشرها رئيس تحريره على موقع الجريدة، قد حققت انتشارًا سريعًا لم يتوقعه هو نفسه، ولم يتوقف هاتفه عن الرنين، حيث استقبل العديد من المكالمات من زملاء المهنة، لتهنئته على أول مقال له، وعلى اختياره للعنوان، الذي، بدون شك، كان اختيارًا عبقريًّا.

كان يتوقع أن يكون أحد زملائه في إحدى الجرائد الأخرى، أو أحد أصدقائه الذين قلّما يتابعون عمله، ولكنه لم يجد رقم هاتف على شاشة هاتفه، فقط رنين وكلمة "مستخدم غير معروف".

- ألو. قالها وهو يبتسم عندما انتفضت كلبته الصغيرة صوفي، كاكيّة اللون، بعد أن سقطت قطرة ماء من شعره على وجهها، لما اقتربت لتلعق وجهه كعادتها.

- مساء الخير يا أستاذ عماد. بصوت هادئ.

- مساء النور. متوجسًا.

- معاك العقيد مجدي نور من مكتب وزير الداخلية. بصوت ودود، يحمل من السُخرية ما يستحيل مُلاحظته عبر الهاتف.

لم ينتبه عماد إلى أن الاسم هو نفسه اسم شخصية الفنان عادل إمام في فيلم النوم في العسل، فبمجرد سماعه "مكتب وزير الداخلية" فقد كل قدرة على التركيز، فقال بصوت مرتعش، دون أن تبدو عليه أي ملامح ملاحظة الدعابة:

- أهلًا وسهلًا سعادتك.. أنا... اتـ تفضل.. أوامر سعاد.. دتك.

توقفت صوفي عن اللعب ومحاولة لعق وجهه، وكأنها شعرت بخوفه، فتجمّدت متوجسةً.

ابتسم صاحب الصوت الهادئ وخرجت ابتسامته على شكل زفرة خفيفة، ارتج لها قلب عماد، وهو يتخيل مُحدثه كشيطان له قرنان، وينفُث النار من فمه، وعيناه حمراء كالدم.

- من فضلك يا عماد بيه.. أنا كنت محتاج أشرب معاك فنجان قهوة.. لو وقتك يسمح.

- تـ تـ تحت أمرك يا فندم.

ابتعدت صوفي عنه بخطوات سريعة، ثم دارت ونظرت له، وكأنها تريد المساعدة، وتعجز عن تقديمها.

- الله يعزّك.. أنا ما حبتش أكلّم كمال بيه.. وحبيت يكون الاتصال بينْنَا مباشرة.

- يا سيادة اللواء دا يشرفني.

- لسَّا عقيد يا عماد.. بس فأل حلو أهه.

زفر عماد مبتسمًا، ولَم يرُد، لَم تخدع الابتسامة كلبته الصغيرة، فسنّها الذي لم يتعدَ الخمسة والأربعين يومًا كان كافيًا لتُدرك، أن ابتسامته تحمل من التوتر، ما لا تحمله من المرح، فاستقرت منكمشة، كما تفعل عندما تُخطئ، وكأنها سبب ضيقه وتوتره.

أكمل العقيد:

- خلاص يبقى بكرة الصبح بدري في الجُرنال.. يناسبك؟

- أيوة يا افندم.. أنا باكون هناك من ٨ الصبح.

- كويس جدًّا.. وبالمناسبة؛ مقالة النهاردا كانت رائعة.

أغلق العقيد الخط، دون كلمات السلام المُعتادة، ولكن عماد لَم يلحَظ فظاظة طريقة إنهاء الاتصال، حيث وصل صوت قطع الاتصال لعقل عماد وكأنه صوت إغلاق باب زنزانة حديدي؛ فانتفض جسده، وارتجف.

لم تستطع أصوات الشارع الصاخبة، في هذا الحيّ الشعبي بجدارة، كصوت تدحرج زهر، ولا خبط قطع الطاولة المُزعج الذي يشير إلى "مَسك" صاحبه لـ"قُشاط" الخِصم في خانة "اليَك"، ولا صوت بائع ينادي على زبائنه بصوت يكفي لإيقاظ الموتى، ولا صوفي التي لم تُحرك ساكنًا، من منع عقل الشاب من محاولة توقُع نتائج تلك المقابلة، مما زاده خوفًا.

فالخوف من المجهول، وانتظاره، هو أقسى أنواع الخوف.

* * *

مُذكرات

٢

أعرف أين يقع الخَط الأحمر..

وأعرف أن تخطّيه، خطيئة.. ستحرمني من رؤيتها..

لا يمكنني المجازفة بكل ما أملك.. في سبيل أن أملك ما لا يمكنني امتلاكه.

* * *

٩

أعاد النقيب شريف كوب القهوة "الدُبل" لمكانه على الطاولة الصغيرة أمامه، واعتدل ليُريح ظهره مرة أخرى أمام مكتب الرائد وائل تحسين وقال متسائلًا:

- طب ليه مش مُقتنع إنها جات كدا؟؟ أو كان بيجرّب؟؟

غَمز وائل لزميله وهزّ رأسه نافيًا، وقال بتصميم:

- لا يمكن تدخل دماغي حكاية الصُدفة أو الارتجال دي.. مش مع واحد زي دا.. لا يمكن.

صمت لثوانٍ دارت عيناه خلالها في أرجاء مكتبه علامة على التفكير، ثم هزّ رأسه وكأنه ينفُض عنها فِكرة ما، كادت تسيطر عليه وقال:

- لا لا يا شريف.. الواد دا عارف كويس قوي هو بيعمل إيه.. من لحظة دخوله من الباب للحظة خروجه.. خط سيره كان متحدد.. ركز معايا كدا في خطواته وطريقته.. أولًا هو كان عارف إن الأمين مجدي اللي معاه مفاتيح الحجز.. لأن هو دا الوحيد اللي هاجمه.. وكمان كان عارف الحجز فين.. ولؤي قال إنه بعد ما خرج من الحجز جه على مكتب المأمور على طول.. ودا مأكد لي إنه عارف تقسيم القسم.. يبقى إيه اللي يخليه يخرج من المكتب دقيقة ويرجع.. ولو كان بيشوف الوضع في القسم قبل ما يهرب.. كان ثواني

ورجع.. لكنه اتأخر.. لدرجة إن لؤي كان وقع على الأرض.. لا يا شريف الواد دا وراه سِر تاني.. بس إيه هو بقى؟؟ دا غير إن واحد في شجاعة وبإمكانيات الواد دا.. ممكن يكسب على الأقل ضِعف المبلغ اللي أخده من رامز بمجهود أقل بكتير من اللي بذله هنا.. الواد دا جه هنا لسبب تاني.. دماغي مقتنعة بكدا.. وانت عارف أنا دايمًا بيطلع تخميني في محله.

- صحيح.. بس ربع مليون جنيه مش مبلغ قليل.. دول يجوّزوني الصُبح يا وائل بيه.. وبعدين ما هو مش كل الناس بتفكر زيّك.. هو جات له فكرة وخطط لها ونفذها.. مش كل حاجة وراها حاجة.

- هو مش مبلغ قليل.. بس صدقني أسلوبه هو اللي وراه حاجة.. المبلغ قليل على إمكانياته.

- يعني مصدق قصة إنه مخابرات أجنبية والجوّ الفاشل دا؟

- لا طبعًا.. أنا مستبعد دا بالمرة.. بس بالعقل يا شريف دا لو راح مكتب صرافة بمسدس صوت هيطلع بنُص مليون جنية في دقايق، الواد دا لو في دماغه الفلوس بس.. ما يجيش هنا. ونقر على سطح مكتبه.

ثم قال وائل بجدّية وغضب مكبوت:

- الواد دا لُغز وبدأت اتضايق إني مش فاهمه.

- عارف يا وائل بيه.. كلامك دا منطقي وما لوش غير تفسير منطقي واحد.. إن اللي عمل كدا حد من الوزارة.. أو من القسم نفسه.. عارف خريطة القسم.. ومواعيدنا.. ومعاه معداتنا.

صمت وائل لدقيقة كاملة غرقت ملامحه في تفكير عميق، ثم تنهد وقال:

- مش عارف.. عمومًا احنا نشتغل بالترتيب.. عملت إيه مع بتوع محل الورد؟؟ طبعًا واحد دفع الفلوس كاملة وما لوش بيانات عندهم.. صح؟؟

التقط النقيب شريف ملفًّا من أمامه، وفتحه وقال دون أن ينظر لوائل:

- هي واحدة ست قالت اسمها سميرة اتصلت حجزت بالتليفون.. وطلبوا منها الفلوس.. بعتت واحد دفع.. وطبعًا مش مدام المأمور.. وما يعرفوش لها رقم تليفون.

- وحتى لو يعرفوا تليفونها.. أكيد اتصلت من رقم موبايل وزمانه في الزبالة زي الـ...

قاطعه رنين هاتف مكتبه، فأجاب عاقدًا حاجبيه:

- ألو. فجاءه صوت رخيم يقول بعصبية واضحة:

- الرائد وائل تحسين؟

- معاك.. مين معـ...

- معاك مكتب رئيس مباحث المديرية.. ثواني.

ظهر التوجُس والقلق على ملامح الضابط.

النوم في العسل؛ أقدم حيلة في كتاب الداخلية

بقلم: عماد المنسي

نجح فيلم النوم في العسل، من تأليف العبقري وحيد حامد، وإخراج شريف عرفة الموهوب، ومن خلال القدير عادل إمام، في تصوير أقدم حيلة في كتاب الحكومة المصرية عامة، ووزارة داخليتها خاصة، للتعامل مع المُشكلات التي تواجهها، وهي حيلة "الإنكار".

طوال مُدة الفيلم تحاول الحكومة المصرية إقناع المواطن، من خلال إعلامها وبرلمانها ومسؤوليها، "إنه بيعرف" ولكنه لا يعلم. وأن الملايين من الحالات التي تم رصدها بالفعل وتؤكد أن كل رجال البلد، أصبحوا وبدون سبب واضح، رجالًا مع إيقاف "التنفيذ"، ماهي إلا حالات فردية، بسبب ضغوط العمل، والمعيشة.

أما سبب استرجاع هذه الذكريات اليوم، فهو ما حدث فجر اليوم في منطقة مصر الجديدة، حيث استيقظ سُكان ذلك الحي الراقي، في منتصف الليل على صوت معركة تدور داخل قسم الشرطة المجاور لهم، اندفع بعض المواطنين في اتجاه القسم، لتبيّن أسباب تلك الأصوات التي أقلقتهم، ولكنهم وجدوا مُحيط القسم مُغلقًا على غير العادة، حيث فرضت قوات القسم كوردونًا يبعُد عِدة أمتار عن الباب، مما يمنع أي أحد من رؤية ما يدور خلف حوائط القسم. وبسؤال بعض الأمناء والعساكر المسؤولين عن التأمين عمّا حدث، توقع ماذا كان الرد؟؟ أجل.. تمامًا كما توقعت عزيزي القاريء... "لا شيء" !!

وبسؤال بعض الأهالي الذين رفضوا ذِكر أسمائهم تجنُّبًا لزيارات متوقعة من الداخلية في حالة ذِكرها، ففضّلوا أن يتركوا كاتب المقال يحظى بهذا الشرف وحده، أقر الجميع أن رائحة الغاز المُسيّل للدموع ملأت المنطقة حول القسم، ولكن الغريب أن تلك القنابل تم إطلاقها داخل القسم وليس خارجه.

هناك بعض الأسئلة التي لن تحصل على إجابات لها مُطلقًا:

- هل كانت محاولة لاقتحام للقسم؟

- هل كانت محاولة هروب من المُحتجزين؟

- هل كانت محاولة تمرُد من بعض العاملين داخل القسم على قياداته؟

- هل تم احتواء أيًا كان ذلك الذي حدث أم أنه وقع بالفعل؟

- هل تم القبض على أشخاص؟ وهل ستتم محاكمتهم؟ وإذا كانت الداخلية تنوي محاكمة المُذنب أيًا كان؛ فما هي التُهم الذي ستتهمه بها، وهي تنكر الحدث من الأساس؟

هل سنجد ضمن طاقم عمل وزارة الداخلية اليوم من يقوم بدور العقيد مجدي نور في فيلم نوم في العسل، ليخرج لنا بشجاعة ويقول لنا أن هناك حادثة؟؟ وأنه جاري التحقيق في مُلابساتها؟؟ هذا سؤال قَد تجيب عنه الأيام القادمة.. وقد لا تُجيب.

انتهى وائل من قراءة المقالة ليُلقي بالصحيفة أمام شريف، وهو يصرخ غاضبًا:

- اتفضل ياعم شوف الفضيحة.. مين ابن الكلب دا؟؟

تناول شريف الجريدة وقرأ المقالة ثم تركها أمامه على الطاولة، ونظر لوائل بملامح أنهكها الشعور بالفشل:

- هو سيادة اللواء قال لك إيه؟؟

- قال لي على المصيبة دي.. وقال ما نردش على أي اتصالات من أي جهات إعلامية.. ومكتب الوزير شخصيًّا هيلم الموضوع.. وابن الكلب دا هيعتذر.. بس احنا كدا في القسم متعلّم علينا رسمي ولابسين طُرح قصاد الوزارة كلها.

زفر غاضبًا وأكمل:

- اللي حارق دمي إنه ادالي أمر مباشر ما اتدخلش في الحكاية دي.. كنت هاجيب زفت دا أنفخه هنا.. بس وحياة أمك يا عماد... قطع كلامه وسأل شريف غاضبًا:

- اسمه عماد إيه؟

- المنسي.

- يا عماد يا منسي ما هانسى لك الموقف دا وهتيجي تحت إيدي وهفرُمك. قالها وهو يدوّن اسم الصحفي أمامه.

قال شريف في محاولة فاشلة لتهدئة وائل:

- ما تشغلش بالك بالصحفي دا.. مكتب سيادة الوزير ما يتوصاش.. خلينا احنا نركز على النصاب دا.. لو مسكناه هتفرق معانا جامد.

- عندك حق.. هي دي مهمتنا الأساسية دالوقت.. لازم نجيب الواد دا، وهما في الوزارة هيعرفوا منه هو جاب الخبر منين.. وهيبلغونا.. لو حد من الأمناء وديني لانفُخه، صمت لثوانٍ زفر خلالها بعضًا من غضبه وتوتره وأكمل بصوت هادئ نسبيًّا:

- عايزين نعرف بيانات رقم التليفون اللي كلم منه الواد دا رامز غالي.. والعربية، نظر لساعته وأكمل دون توقف:

- في أقل من ساعة عايز التفاصيل دي قصادي يا شريف.. عايز صاحب الخَط لو متسجل.. وصاحب العربية.

هزّ شريف رأسه مُتفهمًا وقال وهو يُخرج هاتفه الذكي من جيبه:

- أكيد صفحة "الشرطة والشعب في خدمة النظام" هتقلب الدنيا النهاردا.

قال وائل، وقد لانت ملامحه قليلًا:

- أكيد.. دول ما يتوصوش.. شوف كدا كتبوا حاجة؟

فتح شريف برنامج الـ facebook على هاتفه، وبحث عن الصفحة التي تحدث عنها، وفتحها، ليجد أنهم بالفعل قد شاركوا مقالة عماد المنسي على صفحتهم، وكتبوا عليها جملة، قرأها على مسامع وائل:

"العقيد مجدي نور في الأفلام بس يا عماد، بس والله هتوحشنا بعد المقالة الجامدة دي" وكان هذا الخبر قد تمت مشاركته آلاف المرات، بالرغم من أنه لم يُنشر على الصفحة سوى منذ ساعة تقريبًا.

أشاح وائل بيده في الهواء، وهو يعيد ظهره على كُرسيه الذي أصدر صريرًا وكأنه يشارك صاحبه ضيقه، وزفر بغضب، ليقول شريف وهو يترك هاتفه أمامه:

- مش انت كنت بتدافع عن الصفحة دي يا وائل بيه؟؟ وكنت بتقول إن عندهم حق في اللي بينشروه ساعات؟؟ وانا كنت باقول لك الناس دي مش موضوعيين.. ولا هدفهم الخير.. وكنت بتدافع عنهم وتقول الوزارة فيها وفيها.. آدي جالنا يوم بيخبطوا فينا احنا اهُه.. واحنا ربنا اللي عالم بينا.

- والنبي يا عم شريف مش ناقصك.. يلا نشوف شُغلنا.

* *

صفحة "الشرطة والشعب في خدمة النظام" كان قد تم إطلاقها على موقع الـ facebook منذ شهور، وكانت صورة الخلفية عبارة عن لوحة قد تم تصويرها من داخل أحد أقسام الشرطة تحمل جملة "الشرطة والشعب في خدمة الوطن" ولكن تم رسم خط أحمر مائل على كلمة الوطن باستخدام الفوتوشوب، وكُتِب أعلاها بنفس اللون وكأنها تصحيح، كلمة "النظام". وكانت كلمة الوطن تبدو وكأنها تنزف دمًا.

تخصصت تلك الصفحة منذ انطلاقها في كشف فضائح وانتهاكات وتجاوزات الداخلية، وأخطاء الوزارة كلها، وكانت الصفحة موضوع نقاشات كثيرة دارت داخل الوزارة وأقسامها الشرطية، فمن الضباط من كان يراها مُحقة فيما تطرح، وكان منهم من يرى القائمين عليها مجرمين لهم أغراض تخريبية.

وحتى هذه اللحظة لم تهتم الداخلية بالكشف عن مؤسس الصفحة، أو حتى إغلاقها، وخاصة أنها اكتسبت شعبية كبيرة في فترة وجيزة، وأصبح المتابعون للصفحة بالملايين، مما اضطر الداخلية للتعامل مع الملف بحكمة، لأنه أصبح محل اهتمام إعلامي وشعبي كبير.

* * *

١٠

تخطّت بقليل الشمس منتصف السماء، لتملأ الشوارع بالحرارة القاسية، لتكمل مع زحام الشوارع وضيق مُعظمها، والرطوبة المرتفعة، وسلوك معظم سائقي السيارات، لوحة تجسّد ملامح صيف القاهرة الخانق.

- يعني هي كانت ناقصة؟!! قالها الرائد وائل وهو يقود سيارته بعصبية واضحة، لزميله النقيب شريف. ثم نظر لشريف وسأله وهو يتفادى الاصطدام بالسيارة التي أمامه، لتصدر عجلات سيارته صوت احتكاك عالٍ بالأسفلت:

- فهّمني يا شريف.. هي جريمة قتل ولا انتحار؟

زفر شريف بضيق، وألقى سيجارته من شباك السيارة، ليمسك بيده الباب إلى جواره، وكأن الباب سيحميه في حالة اصطدام سيارتهم بأخرى، وهز رأسه وقال:

- بالراحة يا عم وائل.. الجثة مش هتطير.

نظر له وائل بغضب، وهو ينفُخ دخان سيجارته بضيق، فأكمل كلامه مُجيبًا حتى ينظُر وائل إلى الطريق أمامه، فهو كان يخشى الاصطدام أثناء نظر وائل للطريق، والآن أصبحت تلك رفاهية يتمناها:

- ماااا.. ما فهمتش غير إنهم سمعوا صوت شبه ضرب النار جاي من الشقة.. وبعدها ما حدش دخل ولا خرج من الشقة لحد ما جوزها جه ولقاها ميّتة في أوضتها.

- ومين اللي كلّم الشرطة دا؟ قالها وائل دون أن ينظُر لشريف.

"على الأقل عينه عادت إلى الطريق" قال شريف في باله، ثم قال وهو لا يزال ممسكًا بالباب:

- ما اعرفش!

تنهّد وائل وهو يقود السيارة، برغم زحام الطريق في هذا الوقت من النهار، بسرعة عالية، وقال وكأنه يحدّث نفسه:

- هي المصايب كدا؛ ما تجيش فرداني.

سحب نفسًا أخيرًا من السيجارة وألقاها من شبّاكه، ثم اتصل بخطيبته، فلم تُجِب، فأرسل لها رسالة، كاد شريف أن يقفز من السيارة أثناء كتابة وائل لها وقيادته السيارة بيد واحدة وبنصف تركيزه، كتب فيها:

"والله جريمة قتل أو انتحار.. بجد آسف.. مش هاعرف آجيلك بعد الشغل.. هاكلمك لما أخلّص"

وبعد دقائق وصله ردّها، فقرأه دون أن يلاحظ أن شريف يكاد يموت خوفًا إلى جواره:

"اكتب وصيتك يا وائل.. هاقتلك"

ترك الرائد وائل سيارته أمام العمارة التي شهدت مقتل أحد سُكانها، وقال بتوتر واضح لزميله - الذي استعاد لونه الطبيعي بعد وصولهما سالمين- بمجرد أن أغلق باب المصعد وضغط على رقم الدور السادس:

- ادخل انت الأول وماحدش يلمس حاجة.

- حاضر.

كان النقيب شريف يعلم أن الرائد وائل يخاف من رؤية الدماء، وكان هذا غالبًا سبب توتر وائل منذ علِم بالحادثة، وسبب قيادته بتهوّر، وكأنه دون وعي منه كان يتمنى أن يتعرضا لحادث يمنعهما من الوصول لمسرح الجريمة أو الحادثة.

كان وائل يرفض أن يتناول الدواء المضاد للقلق، لأنه يتسبب له في حالة من الخمول والكسل مع عدم وضوح الرؤية وعدم القدرة على التفكير السليم.

ولما كان عقله الذكي هو السبب الرئيسي في بقائه في وظيفة، تتطلب منه أن يقوم بحل القضايا، الصعبة أحيانًا، فكان يرفض التخلّي عن ذكائه، مقابل أن يبدو سليمًا معافى أمام الدماء كلّما اضطر إلى رؤيتها، فذكاؤه كان سلاحه الرئيسي، فهو يعشق الألغاز، ويهوى شعور الانتصار عليها، ولكن تلك الوظيفة تُعرّضه أحيانًا لرؤية الدماء، فتعوّد أن يقوم بإعداد نفسه نفسيًّا لرؤية الدماء، ويقوم بالتنفس ببطء حتى يمنع نفسه من التقيوء، ويحاول قدر الإمكان عدم الالتفات إلى مكان الدماء كثيرًا، ولكن التوتر يفرض نفسه

بمجرد ذِكر الدماء أمامه، وبرغم كل محاولات التماسك، يتملّك منه التوتر رغمًا عنه.
وكان شريف يعلم كل ذلك، ويحترمه، فمَن منّا خُلق بلا نقاط ضعف.

خرج الضابطان من مصعد البناية، فأصدر المصعد، كإشارة للتوقف، صوتًا عاليًا، وكأنه قطار يُعلن وصوله لوجهته، وكأنهما بدون الصوت ما كانا ليُدركا انتهاء رحلة الصعود القصيرة، كان الصوت قصير ومُزعج، كأصوات أجراس الشُقق، التي تشعر عندما تسمعها، وكأنها جهاز إنذار ضد الحريق، وليس مجرد جرس شقة، مما زاد تَوتُر وائل توتُرًا. خرجا إلى ردهة ضيّقة بين شقتين فقط في الدور، ولاحظ وائل وجود كاميرا مُراقبة مثبتة فوق باب الشقة التي تقع على يمينه.
كان هناك رجُلان أمام باب المصعد، يبدو على أحدهما أنه البواب، حيث كان يرتدي جلابية رخيصة الثمن، وإن كانت نظيفة تمامًا، وكانت له لحية خفيفة، وكان الآخر رجلًا يبدو أنه قد تجاوز الخامسة والأربعين، كان يرتدي بنطالًا رياضيًّا "وتي شيرت"، وكانا يتصببان عرقًا بسبب حرارة الجوّ على سلم العمارة، مثلهما مثل وائل الذي كان يتصبب عرقًا هو الآخر، ولكن بسبب اقترابه من الدماء، وكان يظُن أنه يستطيع بقليل من التركيز أن يسمع دقات قلبه بسبب تسارعها وقوتها، ولكنه حاول جاهدًا أن يبدو طبيعيًّا.
سأل شريف الرجل ذا الجلابية:
- فين الشقة اللي فيها الـ.. أنا نقيب المباحث.

رفع البواب يده وأعطى النقيب التحية العسكرية، وقال وهو يتقدم في اتجاه الشقة التي تقع يمين المصعد:

- اتفضل يا بيه.. الباشمهن...

وقطع كلامه عندما أمسكه وائل من مرفقه ومنعه من دخول الشقة، فوقف البواب دون اعتراض ولكن دهشته كانت واضحة، ونظر لوائل، الذي أشار لشريف برأسه أن يتقدم داخل الشقة، ثم وجّه نظره صوب البواب وسأله وهو يُلقي نظرة على الرجل الآخر:

- مين اللي اتصل بالشرطة؟

فنظر البواب صوب الرجل الآخر، وكأنه يُمرر له السؤال، فأجاب الرجل:

- أنا يا افندم.. ماهر مجدي، ومدّ يده ليُسلم على وائل، الذي سلّم عليه وهو يتفحصه بعينيه، ليُكمل ماهر باسمًا:

- محامٍ.

- انت ساكن هنا؟ وأشار إلى الشقة المقابلة، لتلك التي بها الجُثة.

- أيوة.

سأل وائل وهو ينقل بصره بين الرجُلين:

- حد دخل الشقة من ساعة ما... وَصمت.

فقال ماهر المحامِ:

- الباشمهندس عادل بس.

فنظر له وائل مستفسرًا بصمت، فأشار ماهر للشقة وقال:

- صاحب الشقة.. وجوز المرحومة.

- هي ماتت؟

قال ماهر بأسى:

- آه الله يرحمها.

- عرفت منين؟

- نعم؟!!

- عرفت منين إنها ماتت وانت ما دخلتش الشقة زي ما بتقول؟

تراجع ماهر، دون وعي منه، خطوة إلى الوراء، وكأن وائل على وشك إلقاء القبض عليه، وقال بتوتر:

- الباشمهندس قال لنا بعد ما فتح الشقة لما جه من برَّا.. احنا سمعنا صوت بس.. ولما الجماعة خبّطت على الباب وما حدش فتح.. اتصلت بالباشمهندس ابلّغه.. ولما جه فتح الشقة وبعدين قال لنا إنها مضروبة بالنار.. وطلب مني اتصل بالشرطة والإسعاف عشان هو كان مُنهار ومش مركز.

- ولما جه من بر... قطع كلامه عندما ظهر شريف على باب الشقة وطلب منه الحضور، فنظر له نظرة ذات مغزى، فأومأ شريف برأسه مطمئنًا زميله أنه تكفّل بأمر الدماء، وألا يقلق، فتوجه وائل إلى الشقة، وقال وهو في طريقه لماهر المحامِ والبواب:

- ما حدش يمشي.. هنحتاج لكم كمان شوية.

وفي نفس اللحظات خرج رجُلا الإسعاف من المصعد الذي أعلن وصولهما بجرسه المُزعج، فأشار إليهم البواب أن يتبعوا وائل.

عَبر وائل باب الشقة التي ما إن خطا إلى داخلها حتى وجد نفسه أمام سفرة طعام، وإلى يمينها غرفة معيشة مُطلة على الشارع حيث ترك سيارته، وعلى أحد كراسي غرفة المعيشة يقبع شاب في منتصف الثلاثينات، كان ممسكًا رأسه بكفيه ومسندًا مرفقيه على ركبتيه. نظر وائل لشريف وسأله:

- فين الجثة؟

أشار شريف لطُرقة طويلة إلى يسار وائل، وقال بصوت خافت:

- في أوضة النوم.. في آخر الطرقة.. طلقة رصاص.. والمسدس على الأرض. شكلها انتحرت. قالها بخفوت حتى لا يسمعها سوى الرائد.

الذي هز رأسه متفهمًا، وأشار في اتجاه رجال الإسعاف، وقال لزميله:

- طب روح معاهم.. ما حدش يلمس حاجة.. يتأكدوا من الوفاة بس ويطلعوا، ثم أشار للزوج وسأل شريف هامسًا الذي كان بدأ يتحرك في اتجاه الغرفة:

- اتكلمت معاه؟

هز شريف رأسه نافيًا وأكمل طريقه إلى الداخل، وتحرك وائل دون أن يلاحظه الزوج، ووضع يده على كتفه بهدوء، وما كاد يلمس كتف الزوج حتى انتفض كأنما مسّته صاعقة، فاعتذر وائل وقال:

- أنا الرائد وائل تحسين.. مباحث.. قادر تتكلم؟

اعتدل الرجل الذي كانت ملامحه خالية من أي تعبير، وكأنه داخل حلم لا يملك فيه تأثير كالدُمية، وقال بصوت هاديء دون أن ينظر إلى وائل مباشرة:

- اتفضل يا افندم.

- إيه اللي حصل؟

بلع الزوج ريقه وقال وهو ينظر إلى الأرض أمامه:

- أنا كنت برًّا باشتري حاجات.. اتصل بيَّ جاري وقال لي سمع صوت غريب من شقتي.. زي ضرب نار.. ولما مراته خبّطت ما حدش فتح.. جيت على طول.. ودخلت لقيتها زي ما حضرتك شُفت. وأخفى وجهه بيديه، في محاولة منه أن يتماسك، واحترم وائل صدمته وصمت لثوانٍ، حتى أزاح الرجل يديه، فسأله:

- حرّكت أي حاجة من مكانها من لحظة دخولك الشقة؟

قالها وأخرج وائل مُفكرته الصغيرة من جيبه، وفتح صفحة جديدة خالية كتب أعلاها كلمة واحدة "الانتحار".

نظر إليه الزوج لأول مرة لجزء من الثانية ثم نظر إلى المُفكرة، ثم نظر إلى وائل مُجددًا، وكأنه يبحث عن شيء ما، ثم عاد ونظر أمامه إلى الأرض، وقال:

- لا.

دار وائل بعينه في المكان ليلحظ وجود كاميراتين مثبتتين في مدخل الشقة، إحداهما كانت موجهة نحو الصالة حيث يجلس هو والزوج، والأخرى موجهة ناحية الردهة المؤدية إلى غُرف النوم.

أعاد وائل نظره إلى الزوج الذي كان لا يزال ينظُر إلى الأرض، كان يعلم وائل أن الزوج في حالة لا تسمح له بالحديث، ولا التفكير بمنطق، وهو ما أراده. حيث أنه يريد أن يتفوّه الزوج بأول الإجابات التي تخطُر على باله، لأنها في معظم الأوقات تكون الأقرب للحقيقة، وأيضًا لن يتمكن الزوج من الكذب بمهارة، إذا أراد أن يخفي شيئًا. فقرر أن يتمادى في أسئلته المهمة، دون حرج، فحَل القضية أهم عنده من أن يستلطفه الزوج، فلن يستلطف الرجل، غريب يتدخل في شؤون حياته مهما فعل، فليستفيد إذن.

فسأله وائل دون تمهيد بصوت لا تعاطف فيه:

- تفتكر مين ممكن يعمل كدا؟

جفل الزوج لثانية، ثم رفع رأسه ونظر إلى وائل دون أن يجيب. لم يلتقط وائل أي دلالة على أن سؤاله قد يجد أي إجابة عند الزوج، فقال وكأن السؤال السابق قَد أُجيب:

- في إمكانية إن المدام تكون انتحرت؟

لم يُبلغه وائل بأن الفحص المبدئي لمسرح الجريمة يشير إلى الانتحار، فكان يريد أن يسمع ما لديه ليقول دون تأثير منه أو من المؤشرات، فضيّق الزوج

نظرته وكأنه يتعجّب، وقال بغضب بدا غير حقيقي بسبب حالة صاحبة الذي أنهكه الموقف:

- ناهد لا يمكن تعمل كدا.

- تفتكر حد قتلها؟ قال وائل وهو يدّون اسم الزوجة في مُفكرته.

شوّح الزوج بيديه اليسرى واعتدل ليُريح ظهره، ورفع رأسه ونظر إلى السقف، وقال وهو يتنهد بإنهاك:

- ما اعرفش حاجة يا افندم.. أنا ما اعرفش.. حضرتك مش قادر تفهم ليه؟

قرر وائل أن يغيّر الموضوع قبل أن ينهار الزوج، فقال وهو ينظر خلف كتفه:

- الكاميرات دي شغالة؟ بتسجل؟

رفع الزوج رأسه بعد ما كان قد أراحها على ظهر الكنبة، وأومأ إيجابًا أن نعم، فقال وائل:

- ما علش آخر سؤال.. ليه الكاميرات؟ جديدة عليَّ دي.. ولا عندك في البيت هنا حاجات خايف عليها من السرقة لدرجة تركيب نظام مراقبة؟

تنهّد الزوج في علامة على رغبته في أن يتركه الضابط وشأنه وقال:

- لا أبدًا.. أنا بس عملت شغل في مكتب راجل أعمال متخصص في النوع دا.. وحب يهاديني بنظام مراقبة هدية.. فقلت بدل ما اركنه.. ركّبته.

- شغل إيه؟ سأل وائل وهو يدوّن ملاحظة جديدة.

- بيشتغل في الأمن وحراسة، أجاب الزوج دون أن يرفع رأسه، وكأنه قَبِل بوجود الضابط.

- هو مين؟ تعجّب وائل.

رفع الزوج رأسه بضيق، ونظر لوائل وقال بغضب واضح:

- راجل الأعمال اللي بتسأل عنه.

ابتسم وائل بهدوء، وقال:

- لا أقصد شغلك انت.. انت قلت عملت شغل في مكتب راجل أعمال.. إيه نوع شغلك؟

أعاد الزوج رأسه ليريحها، وقال وبقايا الغضب واضح على صوته:

- أنا خريج هندسة ميكانيكا.. باشتغل في الستاير.

دوّن وائل ملاحظة جديدة في مفكرته، وقام بهدوء بعد أن لاحظ أن الزوج قد اقترب من لحظة الانهيار، فقرر أن يؤجل باقي أسئلته.

ثم قام وتوجه ناحية الغرفة، وهنا بدأت دقات قلبه في الإسراع، وكأنها جهاز إنذار يحذّره من اقتراب خطر ما.

* * *

١١

وضع "العقيد مجدي نور" فنجان قهوته أمامه على الطاولة الصغيرة، ونظر لكمال حجاب رئيس تحرير جريدة "**الضمير**"، وابتسم بتكلُف، وقال:

- متشكر يا كمال بيه.. بقالي كتير ما تقابلتش معاك.. ليك وَحشة فعلًا.

قال كمال بودٍ جاهد ليبدو صادقًا:

- يا باشا سعادتك من بعد الترقية الأخيرة ما بقيتش فاضي حتى ترد على التليفون.

- بلاش مبالغة يا كمال.. أنا دايمًا بابي مفتوح ليك.. انت عارف دا كويس.. ومش ناسي موضوع الولد اللي كلمت مكتبي عنه.. ما تقلقش.. اعتبر الحكاية خَلصانة.

ارتبك كمال لثوانٍ، ونظر صوب عماد بطرف عينه، ثم عاد لينظُر إلى العقيد بودٍ مُفتعل، فهو لم يشأ أن يعلم موظفيه أنه يتواصل مع الداخلية، ويطلب أحيانًا من مسؤوليها بعض الخدمات، تلك التي تعمّد مسؤول الداخلية ذكرها أمام عماد لكشف حقيقة قد تكون غابت عن الموظف

الصغير، وهي أن معارضة النظام على صفحات الجرائد، لا تتعارض مع طلب الخدمات الخاصة من مسؤوليه كُلّما دَعَت الحاجة.

"ماذا يقدم كمال حجاب في مقابل خدمات سيادة العقيد" فكّر عماد صامتًا.

نظر عماد نظرة ذات مغزى إلى رئيس تحريره، ولم يُعقِب، فهو لم يقُل كلمة واحدة منذ غادر منزله قبل قليل، حتى الآن، فالكثير قيل أمامه بالفعل؛ أكثر من قُدرته على الاستيعاب، فآثر الصمت حتى لا يتسبب في ضرر لنفسه أو للجريدة، خاصة وأن زيارة العقيد تبدو حتى هذه اللحظة ودّية برغم جدّية الموضوع، فأراد ألا يعكر صفوها الزائف.

نظر العقيد إلى عماد بعدما تأكد من وصول رسالته بخصوص رئيس تحريره، والذي افترض أنه مَثَل عماد الأعلى، وسأل بنفس هدوئه الودّي، ولكن بلهجة من يأمر، وليس من يسأل وينتظر إجابة:

- ها يا بطل؟ عرفت بقى إنك ظالمنا؟ طبعًا الإجراء الطبيعي في الحالة دي إننا نلجأ للقضاء.. وطبعًا بعد تقديمنا الدليل إن اللي حصل في القسم كان إجراء تدريبي جديد بتتبعه الداخلية لتلافي أي أخطاء أو ثغرات أمنية.. مقالك هيبقى فيه إدانة كبيرة ليك أولًا ثم للجرنال ثانيًا.. وكان الموضوع ممكن يبقى فيه حُكم.. ولو حظك حلو كان ممكن يكون مع إيقاف التنفيذ.

كانت تلك فكرة فريق العمل الذي شكّله وزير الداخلية، حيث أنهم اقترحوا أن يتم احتواء الأمر بدون الكثير من الصخب الإعلامي، وبدون مواجهة مع الصحافة، وخاصة مع ارتفاع الأصوات المُعارضة لسياسة الوزارة عامة، والوزير خاصة، في حِفظ الأمن، فجاء القرار بعد التأكُد من مصادر عِدة من عدم وجود أي دليل مادي حقيقي على ما حدث بالفعل داخل أسوار القسم، وهو - القرار- أن يتم الإعلان عن أن ما حدث هو نوع من الاختبار لقدرات القسم الدفاعية في مواجهة أي هجوم مُحتمل، وكان سرّيًا لضمان فاعليته، وبهذا ستحتوي الوزارة الموقف على كل الأصعدة، وتقطع طريق التشهير على المعارضين، وخاصة بعد ظهور صفحات كثيرة على مواقع التواصل، والتي تحظى بشعبية كبيرة بين مراحل سنية خطيرة ومؤثرة، تلتقط أي خبر يخُص الوزارة، وتستغله لمهاجمة الوزارة والوزير، وبالطبع النظام بأسره.

صمت العقيد لثوانٍ بعد جملته الأخيرة، حتى تأكد من وصول تهديده المُستتر كاملًا لوعي وإدارك عماد، الذي لم يُعقِب، ثم أكمل مبتسمًا، بعد تأكده من حسم الجولة لصالح وزارته، وهو يعتدل على كُرسيه ويريح ظهره:

- بس سيادة الوزير عجبه مقالك.. ومش حابب يتقال علينا في الوزارة بنلاحق صحفي شاب موهوب زيك.. فقررنا في الوزارة نبعت لك العقيد مجدي نور اللي طلبته شخصيًّا يا سيدي.. يوضح لك اللبس.. وهنسيب ليك

ولسعادتك يا كمال بيه طبعًا اختيار وسيلة التراجع عن محتوى المقال.. في الأول والآخر دا شُغلكم.

وقبل أن يرُد كمال أو يستوعب عماد كل ما قيل، قام العقيد، وأعطى الكارت الخاص به إلى عماد، وطلب منه أن يهاتفه شخصيًا في حالة إن أراد الاستفسار عن أي شيء يخص الداخلية، ليتجنب أن يقع في مثل هذا الخطأ مُجددًا، وغادر وترك خلفه صمتًا كصمت القبور، الذي لائم شحوب وجه عماد، الذي بدا كجُثة بالفعل.

* * *

١٢

جَلس وائل على كُرسيه الذي استقبله بصريره المُعتاد، ووضع هاتفه إلى جواره وأوصله بالشاحن الذي يتركه دائمًا موصلًا بجهاز الكمبيوتر العتيق الذي يقع تحت مكتبه، إلى جوار وائل مباشرة، عن طريق الـ USB، وليس بالكهرباء مباشرة، لأن مصدر الكهرباء الأقرب موجود في الحائط خلف مكتبه مما يحرمه من إمكانية استخدام الهاتف أثناء إعادة شحنه، على عكس جهاز الكمبيوتر القريب منه نسبيًّا.

مدّ شريف يده والتقط جهاز الريموت الخاص بالتكييف وضغط زر التشغيل، لينطلق صوت التكييف المُزعج، الذي ستعتاده أذناهما بعد دقيقة، ثم سيحجبه وعيهما، فلن يلاحظاه إلا حين إطفائه، فيسود الهدوء فجأة.

أخرج وائل مُفكرته وفتحها أمامه على صفحة "الانتحار" وراجع كل ملاحظاته عن تلك الحادثة، وكانت:

"الانتحار"

ناهد

٣ كاميرات.. هدية من رجل أعمال أمن وحراسة

هندسة ميكانيكا ويعمل في تركيب الستاير؟؟!!!!!

مخرج واحد للشقة.. تأكيد؟!!

رفع وائل عينه عن مُفكرته عندما قال مساعده شريف، وهو يجلس أمامه:

- العربية كانت في مكانها لما صاحبها نزل الصبح.. ولا لاحظ أي تغيير.. عصَرته.. بس شكله فعلًا ما يعرفش حاجة.

ضيّق وائل عينيه وكأنه يحاول أن يستوضح أو يتذكر شيئًا ما، وقال وهو يضغط زر استدعاء راضي:

- عربية إيه؟ ثم استدرك بعدما عاد له وعيه الذي غاب لثوانٍ في تفاصيل حادثة الانتحار، فقال:

- آه العربية اللي الواد راح بيها لرامز؟ تمام.. أنا كنت متوقع كدا.. وطبعًا التليفون مقفول ومالوش لازمة.

قالها وهو يقلّب صفحات مُفكرته، وفتحها على صفحة "الاقتحام"، وكتب علامة X أمام تفاصيل السيارة التي حصل عليها من الملياردير، ومثلها أمام رقم الهاتف عندما أومأ مساعده أن نعم، لتصبح العلامة الثالثة، فالأولى كانت مكتوبة أمام جملة "محل الورد".

دخل راضي بعد أن طرق الباب، و حيّا الضابطين بتحية عسكرية سريعة، فقال وائل:

- قول لمحمود على القهوة يا راضي.

- اتنين يا راضي، قال شريف ثم نظر إلى وائل وسأله:

- قريت اعتذار الصحفي؟

رفع وائل رأسه عن مُفكرته، وبدا لثوانٍ وكأنه يفيق من غفوة سريعة مُجددًا، وقال:

- اعتذ... يا راجل؟!! اعتذر؟ فين؟

أخرج شريف هاتفه المحمول من جيبه وناوله إلى وائل بعد أن فتح الصفحة التي تعرض المقالة، ليقرأها.

اعتذار واجب

بقلم: عماد المنسي

بعد مقالة أمس والتي يمكن أن تصل إليها عزيزي القارئ بالضغط على هذا الرابط "النوم في العسل؛ أقدم حيلة في كتاب الداخلية" تلقيت اتصالًا هاتفيّا من "العقيد مجدي نور" شخصيّا.

قد تظُن أيها القارئ أن الأمر مجرد مزحة سخيفة، ولكنها الحقيقة، فبِغض النظر عن طرافة استخدام العقيد لإسم الشخصية التي أدى دورها القدير عادل إمام في فيلم النوم في العسل، والتي طالبت بظهور مثلها في وزارتنا، فلقد قام أحد رجال وزارة الداخلية، برتبة عقيد، بالتواصل معي شخصيّا، وطلب اللقاء، وقام بما طلبته تحديدًا في مقالي، وهو الرد على استفسارات طرحتها من خلاله، وبكل أمانة، لم أتوقع أبدًا أن تكون وزارة الداخلية على هذا القدر من الاحترام، والاحترافية.

وبرجاء العِلم أنه بعد اطلاعي من قِبل العقيد على ما دار داخل جدران قسم الشرطة، تأكدت لديّ القناعة بوجوب عدم الإفصاح عن مُلابسات وتفاصيل الموقف كاملة، ولكن يمكن القول أن ما حدث داخل القسم له علاقة بالتدريب، بهدف الاختبار، ومن ثَم رفع الكفاءة.

حيث أن من شأن الإفصاح أن يُعطّل عملًا أظنه - عن اقتناع حقيقي- سوف يعود بالنفع على وزارة الداخلية، وبالتالي على أمن وسلامة الوطن.

توضيح هام : هذا المقال لا يُعتبر بأي حال اعتذار عمّا سبق وكتبت أو طرحت من تساؤلات، فتلك التساؤلات هي من صميم عملي الصحفي، ولكنه يحمل بعض من الإجابات التي طالبت بها، والتي أظُن أن القارئ كان في انتظارها، وتوضيح مهم، هو أيضًا من صميم عملي.

كانت صفحات الfacebook قد تناقلت المقال، وتمّت إعادة مشاركته على مئات الآلاف من الصفحات العامة والخاصة على الإنترنت.

فتح وائل التعليقات على المقالة من المُشتركين في صفحة "الشرطة والشعب في خدمة النظام" ليرى كيف تقبّل جمهور الإنترنت الخبر، ليجد الكُل تقريبًا يُشكك في كل ما جاء في المقال، وكانت من أطرف التعليقات، تلك التي كتبها أحدهم يقول:

"ممكن يكون صادق يا جماعة والوزير ما هدِّدوش، ممكن يكون هدد أمه مثلًا، وساعتها يبقى الواد مش كداب."

أعاد وائل الهاتف إلى شريف وهو يقول مُستنكرًا:

- ما حدش مصدق القصة دي.. الشعب يا ابني بيتلكك يصدق إننا ولاد كلب.

- اللي عايز يصدق حاجة بيصدقها.. المهم إن الموضوع اتقفل.. إعلاميًّا على الأقل.. بس مكتب الوزير لعبها صح.

تناول وائل فنجانه، بعد أن تركه أمامه محمود وغادر المكتب، ورشف منه رشفة سريعة، ثم قال وهو يُعيده على مكتبه:

- فعلًا.. بس الموضوع دا مش هيتقفل إلا لما امسك الواد دا.

- الواد دا ذكي جدًّا.. وما اعتقدش هيكون غلط غلطة تسمح لنا نجيبه بسببها.

أراح الرائد ظهره على كُرسيه الذي أصرّ وكأنه يلفت نظر شريف لأهمية ما سيقوله صاحبه:

- هو دا اللي لازم نشتغل عليه.. إننا نديلُه حقه.. الولد دا يا شريف مش مجرد نصاب.. وانا متأكد إنه حاجة تانية كمان.. عشان كدا فكرت نشتغل على تلات محاور.. الأول نحاول نعرف هو جاب منين أقنعة الغاز والقنابل..

التاني إننا نعرف هو خرج من مكتب المأمور ليه.. والتالت والأهم نعرف هو عمل وهيعمل إيه تاني.

أعاد شريف فنجان قهوته بعدما انتهى منه وهو ينظُر إلى وائل باستغراب واضح، حتى أنه كاد أن يقلب الفنجان عندما وضعه على حافة الطبق، ولكنه تدارك الخطأ وقال وهو يضعه في مكانه الصحيح:

- عمل إيه تاني ازاي يعني؟

- فكّر معايا كدا.. واد في إمكانيات الواد دا مش ممكن دي تكون أول عملية نصب له.. ولا الأخيرة.

لم يُجب شريف وإن بدَت عليه علامات الاقتناع، فأكمل وائل:

- عايزك انت تمسك الحكاية دي.. اتواصل مع الأقسام.. ابدأ بالقريب.. والمديرية.. وبعدها ابعد.. عايزك تجيب لِي كل قضايا النصب اللي ما اتحلتش.. وطريقته هتبان.. يمكن من عملياته نعرف هو بيفكر ازاي.

- تمام. قالها شريف وهو يقوم ليُنفذ ما طلبه منه الرائد، الذي استوقفه قائلًا وهو يقلّب صفحات مُفكرته ويفتحها على صفحة "الانتحار":

- موضوع اااا.. ناهد دا أعتقد خلصان.. عايزين بس نقفل الورق وناخد أقوال الناس.. و...

صمت لثوانٍ، همّ خلالها بشطب الكلام الذي يملأ منتصف الصفحة تقريبًا، ولكنه تراجع، حيث قرر أن ينتظر تقرير الطب الشرعي بعد تشريح

الجثة، الذي في الغالب سيؤكد انتحار السيدة، فهو لم يَعْتَد أن يشطب تفاصيل وملاحظات قضية قبل حلّها، حتى وإن بدَت محلولة.

- و... إيه يا وائل بيه؟

رفع وائل رأسه إلى شريف وقال:

- استنى على موضوع القتيلة دا لحد ما ييجي تقرير الطب الشرعي.

أومأ شريف رأسه موافقًا وغادر المكتب.

أعاد وائل فتح صفحة "الاقتحام" ونظر إليها مطوّلًا، وكأن حروف كلماته ستدُب بها الحياة، وستُعيد ترتيب نفسها لتكتب حل اللغز، الذي بدأ يتحوّل عند وائل لنوع من التحدي المُمتع.

فالعقل الكسول هو الذي يستمتع بحل الألغاز السهلة، على عكس العقل النشيط، الذي يستمتع أكثر كلما صَعُب التحدي.

رَن جرس هاتف وائل المحمول، لينتزعه من حالة التفكير التي غرق بها لبعض الوقت الذي شعر به وائل وكأنه لحظات، كالحلم. فأجاب بصوت خرج كسولًا، بسبب صمته لفترة ليس بالقصيرة:

- ألو.. أنا هاتحرك حالًا أهُه، وأقرن قوله بالفعل، وكأن خطيبته تراه، فأحب أن يثبت لها صِدقه.

- لسَّا هتتحرك؟ يا ابني انت عاوز تشِلّني؟ أنا قصادي نُص ساعة وابقى مخلّصة.

- هاكون وصلت إن شاء الله، وانتزع شاحن محموله من الهاتف وتركه يسقط على الأرض، وتحرك صوب الباب.

- لما تقرّب رنّ لِي يا وائل، سلام. قالتها بضيق وأنهت الاتصال.

فتح وائل باب مكتبه، وهو ينظر إلى هاتفه، ليجِده لَم يتلقَ أي شحن زائد عمّا كان عليه عندما وصل إلى مكتبه، فصرخ في وجه راضي، الذي انتفض كمَن مسّه تيار كهربائي، وهو يرفع يده بالتحية العسكرية:

- انت يا ابني ما بتفهمش؟ مش مليون مرة أقول لك ما تحرّكش الزفت الشاحن بتاع الزفت دا وانت بتنضف عشان الوصلة لما بتتهَز بتفصل وانا ملصّمها؟ يا ابني انت بتقصد تقرفني؟

- يا وائل بيه والله العظيم ما لمستها.. سعادتك موصّيني وانا باخُد بالـ...

- بس بس.. جتكُم القرف مش عارف بيجيبوكم منين.

نظر راضي إلى الأرضية التي تشققَّت بفعل الزمن والاستخدام، ولَم يُجب.

عاد وائل إلى مكتبه، حيث أراد أن يتأكد من تثبيت الوصلة، حتى لا يتعرض لنفس الموقف في مرته المُقبلة، لأنه بالتأكيد سينسى، وسيكتشف عند رحيله أن هاتفه يحتاج للشحن، ثبّت الوصلة جيّدًا، ثم تأكد من تثبيتها بوضعها في هاتفه، لتُضيء علامة الشحن، ثم نزعها ووضعها برفق على مكتبه، وتوجه صوب الباب المفتوح، وقال لراضي الواقف هناك بكرامة مجروحة، وإصرار على براءته يكسو ملامحه، كنوع من الصُلح غير المباشر:

- الله يرضى عليك يا راضي بلاش الحركة دي عشان بتنرفزني.. وانا مش ناقص.

- يا وائل بيه أنا ما دخلتش مكتب سعادتك أنضّفه من وقت المشكلة عشان المعاينة.. يعني مش ممكن أكون حرّك..

- ماشي يا رضي.. خلاص ما تشغلش بالك.

ولَم يُدرك وقتها أن ثِمة بذرة ألقِيَت في عقله الباطن، وستُنبت فكرة، ستقلب حياته.

* * *

مُذكرات

٣

أتهم أحيانًا، بأنني لا أبالي بكل شيء يحدث في عالمي، ولعالمي..

ولكن لا أحد يعلم أنكِ أنتِ عالمي..

ولا أحد يعلم أنني أبالي.

* * *

كاذب من ادَّعى أن الحُب يطرُق الأبواب، أو ينتظر الإذن.

١٣

تركت مريم سيارتها حمراء اللون أمام أحد "كافيهات" مصر الجديدة، ومدّت يدها بمفاتيحها لشاب أسمر البشرة، يعمل في "الكافيه"، كراعٍ لسيارات روّاده، حتى يحرّكها عند الحاجة، لأنها ركنتها إلى جوار صف سيارات مصفوفة بالفعل، لاستحالة وجود مكانٍ خالٍ في الصف الأول، كحال معظم شوارع العاصمة، ولكن الشاب رد باسمًا، بإشارة مهذبة من يده، أنه لا حاجة لترك المفتاح، وقال:

- لو احتجت أحركها يا فندم هابقى آجي آخد من حضرتك المفتاح.

فابتسمت وشكرته وهي تتحرك بخطوات واثقة، ورشيقة إلى باب "الكافيه" دون أن تنظُر حولها، كانت ترتدي "چينز" أزرقًا ضيقًا، وقميصًا أبيضًا متوسط الطول، مناسبًا لها لدرجة تظُن أنه قد صُنع خصيصًا من أجلها. بدَت ساحرة بدون تكلُّف، خلعت نظارتها السوداء، بمُجرد دخولها إلى ظِل "الكافيه" الساحر المُكيف، الذي يُشعر من دخله لتوه، بموسيقاه التي تملأ المكان دون إزعاج، وجوّه المكيّف، والمُعَطّر، أنه عَبر بوابة لعالم آخر. استقرّت على مائدتها المُعتادة، ورفضت بابتسامة رشيقة الـMenu من النادل، الذي لم يعرضها بالجدية الكافية، وكأنه كان يعلم برفضها مُسبقًا، ولكنه قدمها على أية حال، لأن تقديمها جزء أصيل من وظيفته. وقالت

مريم إلى النادل وابتسامتها لم تُفارقها، وإن بَدت سريعة التحضير، كتلك التي تظهر في الصور التي تُلتَقط لأصاحبها رغمًا عنهُم:

- العادي يا محمد.. شكرًا.

أخرجت مريم من حقيبتها كتابًا، ووضعته أمامها، ثم أخرجت منها أيضًا هاتفها المحمول، نظرت إلى شاشته لدقيقة، بدَت وكأنها تفكر خلالها في شيء ما، أو تنتظره، لكنها بعد دقيقة تركت الهاتف والتقطت الكتاب، وشرعت تقرأ بهدوء وصمت، وكأنها وحيدة في هذا العالم.

انغمست مريم بكل كيانها في قراءة الرواية التي تحمل اسم الطاعون، كانت مريم عندما تقرأ، أو تعزف على البيانو، تغيب عن العالم حولها، كانت تهرب من الواقع إلى عالم الرواية التي تقرأها، أو إلى عالم تخلقه من الأنغام عندما تعزف.

مدّت يدها والتقطت الكوب الذي وضعه النادل أمامها منذ دقائق، ولكنها لم تلحظه وقتها بسبب تركيزها الشديد فيما تقرأ، ورشفت منه رشفة سريعة وأعادته إلى مكانه.

كانت تجلس مريم في مواجهة واجهة "الكافيه"، في المنتصف تقريبًا، وأقرب لخلفية "الكافيه". كانت تلك هي المائدة الأحب إلى قلبها، كلما جاءت إلى هذا المكان، حيث كانت تبعد عن الأركان التي يُفضلها العُشاق، ولذلك فهي قليلة الإضاءة، فلا تُساعدها على القراءة، وكانت تبعد عن زجاج الواجهة، فتبقى بعيدة قدر الإمكان عن صخب العاصمة المُزعج.

لم تَلحظ مريم بحكم انغماسها فيما تقرأ دخول شاب أسمر متوسط الطول وجلوسه إلى جوارها على بُعد طاولتين إلى يسارها، ولم تَلحظ مُراقبته لها بصبر، بعد دقائق رَن هاتفها، فالتقط، في نفس الوقت، الشاب الأسمر هاتفه هو الآخر ووضعه على أذنه. تركت مريم الكتاب على الطاولة أمامها، بعد ترك الـ Bookmark التي تحمل تاريخ ميلادها داخله عند الصفحة التي تقرأها، والتقطت هاتفها وردّت على المُتصل.

"يعني دا آخر كلام عندِك؟ أنا ابن ستين كلب عشان عملت لِك قيمة" صرخ الشاب الأسمر فجأة بغضب شديد، وقام منتفضًا، مما دفع كُرسيه للوقوع على ظهره خلف الشاب، ثم ضرب كوب الماء الذي أمامه بظهر يده اليسرى فاندفع في اتجاه الحائط وتكسّر بدويّ عالٍ عكّر هدوء "الكافيه" الذي تسمّر كل من فيه.

توقفت مريم عن الكلام ونظرت إلى يسارها صوب الشاب الذي فقد السيطرة على أعصابه تمامًا، كما فعل كل من في المكان، ما عدا شاب واحد غادر المكان، تقريبًا، دون أن يلحظه أحد، ذهب النادل إلى الشاب الذي بدت عليه علامات الخجل من تصرفه، أغلق الشاب هاتفه، ووضعه في جيبه، واعتذر للنادل وهو يتجنب النظر إلى أي شخص مباشرة، ثم أخرج من جيبه ورقة من فئة المئة جنيه وتركها على الطاولة تعويضًا منه على تصرفه، وثمنًا لما هشّم من صمت وزجاج، وغادر بهدوء.

أكملت مريم مكالمتها القصيرة، التي علِمت فيها بعدم استطاعة صديقة عمرها چينا الحضور، وأغلقت الخط، وأعادت الهاتف إلى الطاولة، ثم ارتشفت رشفة من مشروبها، وأعادته. ثم تنهدت لتتخلص من توتر الموقف السخيف الذي حدث إلى جوارها، ثم التقطت الكتاب وهي تدور بعينيها في المكان لتتأكد من أن الأمور عادت لطبيعتها، وتوقفت عيناها للحظة على عامل النظافة الذي كان يعيد ترتيب المكان بعد إزالة بقايا الزجاج من على الأرض.

فتحت الكتاب بحثًا عن الصفحة التي توقفت عندها، ولكنها لم تجد الBookmark التي تركتها، تعجبت وقلّبت صفحات الكتاب بسرعة بحثًا عن الBookmark، ثم بدأت تنظر حولها، لعلّها سقطت دون قصد منها أثناء انشغالها بمتابعة نوبة الغضب التي أصابت الشاب منذ ثوانٍ، ولكنها لاحظت شيئًا غريبًا؛ كانت الرواية التي بين يداها هي رواية "قمر على سمرقند" للكاتب محمد المنسي قنديل.

تسمّرت مريم لدقيقة كاملة في محاولة منها لفهم ما حدث، وكيف حدث، ولكنها لم تتوصل لشيء. فكّرت بهدوء؛ بكل بساطة، هي تركت رواية الطاعون على المائدة وأجابت هاتفها، و... توقفت عن التفكير لثوانٍ ونظرت إلى يسارها، إلي حيث توّجهت أنظار كل من في الكافيه منذ دقيقة، نعم، حدث مشهد الشاب الأسمر، فنظرت هي صوبه، كما فعل كل من في المكان،

وفي تلك اللحظة تحوّلت رواية الطاعون التي تحمل الـ Bookmark خاصتها، لرواية أخرى، تبدو جديدة تمامًا.

ولكن كيف؟ ولماذا؟ تملّك الخوف منها لثوانٍ، ثم استجمعت شجاعتها وفتحت أول صفحات رواية "قمر على سمرقند" لتجد مكتوبًا بخط رقعة جميل وهاديء:

"أتمنى ما تكونيش قريتِ الرواية دي.. فيها رحلة تستحق السفر معاها.. رواية الطاعون كئيبة جدًّا.. هتُشكريني بعدين :)"

* * *

١٤

"عماد"!!!

سَمعها كمال حجاب، بصوت سكرتيرته، وهو جالس خلف مكتب رئاسة تحرير جريدة "**الضمير**". وبعدها بثانية واحدة اندفع، دون استِئذان، صاحب الاسم إلى داخل مكتبه، في سابقة لم تحدث من قبل، بملامح يكسوها الغضب، وخلفه هرولت دينا السكرتيرة، في محاولة منها لإثبات عدم تقصيرها في عملها، ولكن اندفاع عماد كان غير قابل للإيقاف أو المنع، كما أوصاها أن تفعل رئيسها منذ ساعة.

وضع كمال حجاب كوبه الزجاجي فوق CD مقلوبة على سطح مكتبه، تبدو موجودة على مكتبه لهذا الغرض تحديدًا، حتى تمنع أكواب المشروبات من ترك علامة على زجاج مكتبه النظيف، بهدوء لا يتناسب مع حَدة الموقف، وتوتره، ويليق برجُل كان يتوقع ما يحدث واستعد له جيدًا.

أشار كمال مبتسمًا لسيكرتيرته بيده إشارة تعنى "لا عليك".

أغلقت دينا الباب بعد مغادرتها، ولكن، بعد أن وجّهت نظرة نارية إلى عماد، لم يلاحظها الأخير بسبب توجيهه هو نظرة أشدّ نارية، وحقدًا إلى رئيسهما، الذي نقل بصره من الباب إلى عماد، الواقف هناك كذئب جريح.

لم يَحْتَجْ عماد ليتفوّه بحرف واحد، حتى يفهم رئيسه سبب ثورته، وهذا ما كان يعلمه عماد جيدًا، فصمت، واكتفى باقتحامه الفَظ لمكتب رئيسه،

كرسالة اعتراض على تصرُف كمال، وانتظر الجواب بصبر نافد، وغضب لا تُخطئه عين.

قطع كمال الصمت بهدوء لم يَعْتَدْهُ منه عماد، حيث جرت العادة أن يخطئ عماد، ويغضب كمال، وليس العكس، ولكن دائمًا هناك أول مرة لكل شيء، وها هو عماد يواجه هذا الموقف لأول مرة، بغضب وثورة يليقان بانعدام خبرته، على عكس كمال، الذي تسلح بخبرة سنوات، يقترب عددها من عدد سنوات عمر عماد، في هذا المجال. قال كمال:

- اقعد يا عماد.. اقعد.

لَم يتحرك عماد، وكأنه لم يسمع كلام رئيسه، أو لم يَعِهْ، فتنهّد كمال وهو يغمض عينه بضيق يشوبه بعض الخجل، كان يعلم أنه أخطأ في حق الشاب، ولكنه كان يقوم بالصواب، وبما كان يتوجب عليه القيام به.

فالخطأ والصواب يمكن أن يصبحا وجهين لنفس العملة أحيانًا.

فكرر كمال طلبه، وإن حملت نبرته من الترجي ما لا يمكن لتوتر الموقف أن يخفيه، وقال:

- ممكن تقعد عشان اعرف أعلّمك حاجة؟ ممكن تقعد؟

فتح عماد فمه ليُجيب، أو ليعترض، ولكن كمال أشار له بحزم أن يصمت، وقال:

- مالوش داعي الهجوم.. اسمع الأول.. وبعدين هاسيبك تقول اللي انت عاوزه.. بس اسمع الأول.. أنا عارف كويس انت عاوز تقول إيه.. عارف

كويس.. وهاجاوب على كلامك من غير جعجعة وصوت عالي. ثم صمت لثوانٍ، نظر خلالها إلى عماد الذي بقى على حاله، وإن خفت توتره قليلًا، وتوقفت قدمه اليسرى عن الارتعاش البسيط، ولكن الملحوظ، ثم أكمل:

- اهدا.. واقعد.. واسمع.. وحاول تتعلم.

حطّ صمت ثقيل على الغرفة، لدقيقة كاملة، وكل منهما ينظُر إلى الآخر، بنفس التركيز، وإن اختلفت المشاعر التي تعلو وجه كل منهما، حتى تحرر عماد من سكونه، ولكنه بقي أسيرًا للغضب، الذي ظلّ يكسو ملامحه. فجلس دون أن يرفع عينه عن رئيسه، الذي زفر زفرة ارتياح خافتة، بعد انتصاره المحدود في الجولة الأولى من مباراة تبدو صعبة، وإن كانت غير متكافئة.

قال كمال بصوت يكسوه الهدوء، وكأنه طبيب نفسيّ، يخشى من نوبة جديدة قد تهاجم مريضه، فقرر أن يخطو قُدمًا في الحوار بحذر:

- على فكرة يا عماد.. انت لما جيت لي بالقصة.. أنا كنت ناوي أقول لك تنسى وتكبّر دماغك.. بس لقيتك متحمس جدًّا.. وحسيت إنك تعبت ومش حِمل إحباط مباشر.. فقُلت هاسيبك تحاول تكتب المقال.

ثم اعتدل، وخلع نظارته وتركها على المكتب أمامه وهو يكمل:

- ومش هاكدب عليك.. أنا كنت شبه متأكد إنك هتكتب مقال فاضي.. مش هاكدب عليك.. وبصراحة كنت ناوي ارفضه.

بدأت الحيرة تنافس الغضب على مساحة في وجه عماد، فهو لم يتوقع أن

يبدأ رئيسه الكلام من حيث فعل، ولكنه لم يحاول التدخل لقطع كلام كمال، لأن فضولًا قاسيًا تملّكه لمعرفة ما في جعبة رئيس فيما يخُص مقالته الأولى. فلقد توقع أن يتلقّى ثناءً لم يلقه في هذا المكتب من قبل.

ولا أحد يرفض الثناء، حتى وإن جاء في وقت غير مناسب.

- بس بصراحة برضه.. لما قريت المقال غيّرت رأيي.. لسببين، وصمت بشكل مدروس، حتى يشاهد مستمتعًا ملامح الفضول وهي تزيح غضب عماد عن وجهه، ولما حدث ما أراد، أكمل:

- السبب الأول.. المقال يا عماد.. الإفيه.. النوم في العسل.. وطريقة عرضك لموضوع ما عندكش عنه فكرة.. حقيقي براڤو.. قُلت خُسارة مقال زي دا ما ينزلش للناس تقراه.. براڤو حقيقي، وصمت لثوانٍ، لم يُعقب خلالها عماد كما تمنى كمال، فأكمل الأخير:

- السبب التاني.. إن احنا بنحتاج حاجة زي كدا كل فترة.. واحنا هنا اقصد بيها الجُرنال.. كلنا.. الجُرنال كله.. فاهم حاجة؟

هزّ عماد رأسه دون أن يرفع عينه عن كمال الذي قام ودار حول مكتبه وجلس في مواجهة عماد وهو يقول:

- بُص يا عماد.. احنا جريدة مُعارضة آه.. بس احنا جزء من دولة.. جزء منها.. وبنخضع لقانونها.. وبنلعب وفق قواعد القائمين عليها.

لازم نعرف نعارض ازاي.. لازم نعرف نهاجم مين.. وإمتى، لازم نفرّق بين اللي يتكتب على صفحاتنا.. وبين اللي بيتقال على سلّم النقابة.

بس دا مش معناه إننا نسكت خالص.. لا ما نسكتش خالص.. لازم كل فترة كدا نزعّق.. ونعمل ضغط مدروس.. عشان نكتسب مصداقية عن القُراء.. وبرضه عشان النظام يلاحظنا.. ويعرف إننا موجودين ولينا وزن.. فيتعمل لنا حساب.. ووزن..

بس أهم حاجة الضغط يكون مدروس.. وتعرف توقف ضغط إمتى.

- أنا مش قادر أفهم إيه علاقة كلام حضرتك.. بإنك تنشر مقال مش أنا اللي كاتبه عليه اسمي.

- وهو انت كنت هتكتب المقال يا عماد؟ كنت هتكتبه؟ كنت هتنشر الاعتذار؟ ولا كنت هتعمل لي فيها چيڤارا وتعتصم على السلم وشوية الهُبل يتلموا حواليك لحد ما تتمسك وما حدش منهم ينفعك؟ ما حدش كان هينفعك.. انت هتصيع عليَّ انا يا عماد؟

- ودا معناه إن حضرتك تنشر مقال اعتذار باسمي؟

قام كمال، ودار حول مكتبه وهو يجيب مُحتدًا، بعد أن امتص غضب عماد، وأصبح النقاش ممكنًا، ولو بحِدة:

- ما فيش اعتذار ولا حاجة.. لو قريت المقال هتلاقي إن ما فيش في صيغته أي اعتذار.. ما حدش اعتذر.. بلاش خلط.

نظر عماد يتفحص رئيسه الذي بادله النظرات صامتًا، ثم قال بمرارة:

- يعني حضرتك نشرت المقال وانت عارف إننا هنتراجع عنه؟ نشرته بس عشان "النظام يلاحظنا" على حد قولك؟ يعني باختصار حضرتك نشرت

المقال عشان تضغط على الوزارة عشان يمشوا لك مصلحة الولد اللي كلمت عليه العقيد اللي ما اعرفش اسمه؟

لم تظهر ملامح كمال، وهو يجلس خلف مكتبه، كم الغضب الذي اجتاحه عقب سماعه جُملة عماد، وإن تسارعت أنفاسه رغمًا عنه، وبقي صامتًا لثوانٍ حتى لا ينفجر غاضبًا، فالموقف لا يحتمل، وهو يتفهّم أسباب غضب وإحباط مرؤوسه، ثم قال بصوت حاد لم ينجح في إخفاء غضبه بالكامل، وإن أخفى مُعظمه:

- آخر مرة هاسمح لك تتكلم في حاجة ما تعرفهاش.. آخر مرة.. وهاعتبر اللي قُلته ما حصلش.. واللي سِبته يحصل يا عماد.. وأيوة كنت عارف إنه هيحصل.. كان لخدمة الجُرنال.. مش لخدمة شخصي.. ولا كنت تفضّل إني أمنع النشر من أساسه؟

ثم رفع سبابته وضغط على كلماته جيدًا وهو يقول:

- ودي آخر مرة اسمح لك توجه فيها كلام من النوع دا لشخصي.. وإلا هيبقى آخر يوم ليك معايا في الجُرنال.

تجاهل عماد تهديده، وكأنه لم يوجه إليه من الأساس، وقال:

- لا ما كنتش أفضّل تمنع النشر.. بس كنت أفضّل أفهم من الأول.

- ما كنتش هتقتنع.. ما كنتش هتصدق.

رفع عماد عينيه للسقف وأشاح بوجهه بعيدًا كإشارة إلى عدم اقتناعه بكلام كمال، الذي سأل بحدة:

- يعني كنت هتقتنع لو قُلت لك إن الوزارة مش هتسيبك إلا لما تعتذر؟ كنت هتقتنع؟ كنت هتقتنع لو قُلت لك إن مقالك وتحقيقك لا يملك أي معلومة حقيقية ولا مصدر ولا دليل؟ ولا كنت هتقول إني كالعادة باخاف؟ خليك صريح معايا ومع نفسك.. ما كنتش هتقتنع.. وما كنتش هتصدق اللي حصل إلا لو حصل قصادك.. يبقى إيه الضرر في إني أسيبك تتعلم؟ وبالمرة اكسب بونط.. نكسب بونط كجُرنال. وضغط على حروف كلمة "جُرنال"، ثم أكمل:

- بس طبعًا تتعلم وتفهم من غير ما اسيبك تتئذي.. ولا تئذي الجُرنال.. ودا اللي خلاني انشر مقال النهاردا باسمك.. بدل ما انشره باسم الجُرنال.. وساعتها كنت هاصغّرك انت.. كنت هاصغّرك.. وكأن الجُرنال بيخلي مسؤوليته منك، فهمت؟

ابتسم عماد بخيبة أمل وقال وهو يمسح على جبهته بإرهاق واضح، وكأن المجهود العصبي أنهكه جسديًا:

- فهمت يا أستاذ كمال.. يعني تقصد إن تحقيقي ما كانش فيه ما يستحق النشر.. وحضرتك مشكورًا نشرته عشان الجُرنال يستفيد.

- تقدر تجادل في إن تحقيقك ما كانش فيه حاجة أصلًا؟ تستحق النشر أو حتى ما تستحقش؟ تقدر؟

"وكأن مُشكلتك هي عدم وجود ما يدعم القصة، وليس خوفك من النظام" فكّر عماد، كان عندما يشاهد أحدهم ينافقه بهذه الطريقة، يتذكر جاره في

البلدة التي جاء منها، الذي كان شيخًا للجامع في كل صلوات الإسبوع، ما عدا صلاة الجمعة، وكان دائم التشاجُر مع كل من يسمعه يسب دين الله في الشارع، حتى ولو لم يكُن يوجه له الكلام، وفي نفس الوقت كان يسمعه عماد، من خلال شباك غرفته، ليل نهار يسب هو دين أولاده الصغار.

فسأل عماد بخُبث:

- يعني أتابع التحقيق واجيب لك دليل وتسيبني انشره؟

زفر كمال بضيق:

- القصة دي اتقفلت.. وبعدين مش هتعرف تجيب حاجة خلاص.. مش هتعرف.

النوع دا من القصص بيبقى عامل زي ما ترمي طوبة في بحيرة راكدة.. لو ما قدرتش ترصد لحظة الاصطدام ومكانها بدقة وشكل تحرك صفحة المية في لحظتها؛ دقايق وبترجع كل حاجة زي ما كانت ولا يمكن تقدر تلاقي الطوبة بعدها خلاص.

وبرضه مش هاقول لك بلاش.. لو عرفت تجيب حاجة كبيرة.. وريني. بس مش هتعرف. لكن هاسيبك تجرب.

- هه.. عشان تكسب بونط برضه؟ وبعدين ازاي هتُنشر قصة أنا نفسي اعتذرت عنها بالفعل؟ سأل عماد مُشكِّكًا في وعد رئسيه.

تجاهل كمال كلام عماد عن "البونط" لأنه يعلم أن مرؤوسه يحاول استفزازه، ويعلم أنه غاضب، وأجاب:

- انت لسَّا اصطدت السمك اللي عاوزني اشتريه؟ وريني باقول، وريني، لما اشوف جبت إيه هاقول لك ينفع يتعمل بيه إيه، فهمت؟

نظر عماد إلى كمال نظرة من لا يصدق كلمة واحدة منه، ولكنه لا يقوى على الجدال، وأومأ برأسه أن "نعم فهمت". فقال كمال:

- مش باين إنك فهمت.. بس دا طبيعي.. سنين الخبرة دي ما ينفعش تتعلّمها في قعدة واحدة.

- عندك حق طبعًا يا أستاذ كمال.. بس برضه كنت أفضّل...

قاطعه كمال وهو يميل رأسه ورافعًا حاجبيه بتساؤل:

- تفضّل إيه؟ أمنع النشر؟ إيه؟ أمنع؟ حاضر يا عم...

- لا يا أستاذ كمال.. بس تفهّمني.. مش تعاملني كأني طفل ما بيعرفش يغيّر هدومه وبنضّف وراه.

- ما انت طفل يا عماد.. في الصحافة انت طفل.. طفل.. انت لو مختار تشتغل فن ولا رياضة كنت هاسيبك تتعلّم.. وأي مصيبة في المجالين دول بتزوّد مبيعات ومشاهدة الجُرنال.. لكن في السياسة فيه حِسابات.. حِسابات.. وحاجات كتير على المحك.

صمتا لثوانٍ لم يقطع صمتهما سوى صوت جرس هاتف مكتب السكرتيرة، تسلل خافتًا إلى مكتب كمال، الذي قطع الصمت وقال بنبرة والد يُلقّن ابنه درسًا ثمينًا:

- يا عماد إنك تسمع عن الحاجة مليون مرة مش زي ما تجربها مرة واحدة..

عمرك سمعت عن حد اتعلّم العوم نظري؟ عُمرك؟ لازم تجرّب.. أنا سِبتك تجرّب.. عشان تتعلم.

كان أريح إني أرفض القصة.. بس مقالك عجبني.. ما تبقاش غبي وتبُص للنُص الفاضي بس.. انت قلمك مميز يا عماد.. مميّز وشاطر.. شاطر.. بتعرف تقول كلام قريِّب من الناس.. قليلين اللي شبهك.. خسارة موهبتك دي تضيع على سلم النقابة.

- ولازمتها إيه الموهبة لو مش هنقول الحقيقة يا أستاذ كمال؟ لو هنستخدمها بس عشان "نكسب بونط"؟ ورفع يديه بعلامة التنصيص ليشير إلى اقتباسه كلمات رئيسه.

- احنا بنقول الحقيقة.. الحقيقة يا عماد.. بس مش كُلها.. عشان ما ينفعش.

الكلام بتاع بنقول الحقيقة الكاملة دا بنقوله للجمهور.. بس ما ينفعش احنا نصدّقه.

- ودا مش كدب؟

- لا طبعًا.. لا مش كدب..

الكدب إنك تزوّر الحقيقة، بس احنا بنكدب لما بنقول للناس إننا بنقولهم الحقيقة كاملة، عشان هما عاوزين كدا.. عاوزين كدا يا عماد. الناس بتحب تصدق إنها عارفة كل حاجة.. بس لو قُلت لهم إن اللي يعرفوه

مش كل حاجة.. هيزعلوا.. ولو حد قال لهم الحقيقة كاملة.. هيكرهوه.. هيكرهوا اللي قال لهم وكأنه هو السبب في قُبح الحقيقة.

اعتدل كمال وأسند مرفقيه على سطح مكتبه وقال:

- اتعلّم يا عماد.. عشان بُكرة تُقعد مكاني هنا.. صدقني من مكاني انت ممكن تعمل فرق.. هتعمل فرق.. يمكن مش الفرق اللي في شبابك دا نفسك فيه كله مرة واحدة.. بس كل فرق بسيط بتعمله بيزيد على رصيدك.. لحد ما هتلاقي نفسك عملت تغيير كبير على المدى البعيد.. لكن تقول يا إما كل حاجة حالًا يا بلاش.. هيبقى بلاش.. هيبقى بلاش يا عماد.. وانت الخسران.. ودا بالظبط اللي خصمك عاوزه منك.. إنك تبقى غبي لدرجة إنك تفرط في مكاسب صغيرة.. على أمل مكسب كبير.. هو في الحقيقة؛ مجموع مكاسب صغيرة كتير انت فرّط فيها بغبائك.

لَم يجد عماد ضمن مخزونه من الشعارات ما يرُد به منطق رئيسه، فصَمت، وإن ظهر صراع على ملامحه بين اقتناع وشيك، وبين رفض عنيد. وكان هذا كفيلًا برسم علامات الرضا على ملامح كمال، الذي كان يعلم جيدًا استحالة اعتراف شاب، في مثل سنّ عماد، بصواب تصرف رئيسه، بعد جلسة واحدة، ولكنه يعلم جيدًا أيضًا أن صمت عماد الذي حاول أن يخفي وراءه عجزه عن الدفاع عن منطقه، هو انتصار ساحق لمنطقه هو وخبرته على سذاجة الشاب.

* * *

١٥

فتحت ميّ باب سيارة وائل المُتواضعة نسبيًّا، ودلفت إلى جواره، ولكنها لَم تنظُر إليه، ووجّهَت وجهها صوب الاتجاه الآخر. ولم يَحْتَجْ وائل لرؤية ملامحها، ليعرف مدى غضبها. فتح تكييف سيارته، وقال وهو يبتسم، في محاولة منه لتخليص الجوّ من التوتر، الذي لا يطيقه:

- تحبي نتغدى ع النيل؟

- من إمتى؟! قالتها دون أن تنظُر إليه، بل دون أن تتحرك، وكأن تأخُره حَرمه من ميزة رؤية ملامحها، حتى وإن كانت غاضبة.

- أنا آسف يا ميّ.. حقيقي آسف، عشان خاطري بقى بلاش عكننة.

هنا فقط اعتدلت، ونظرت صوبه بغضب هائل، ثم نظرت إلى الشارع مُجددًا، وقال مُحتدة:

- والنبي يا وائل اسكت أحسن.

ثم تمتمت بخفوت:

- ماهو العكننة بتيجي من عندي بس !!

- ما انتِ عارفة يا ميّ.. لما بتكون قصادي قضية كبيرة.. مش باخد بالي من الوقت.. وبعدين يعني اسكت واسيبك كدا؟

- ما انت سايبني بقالك ساعة إلا ربع كدا مستنياك، وبعدين هي دي أول مرة؟ أقول لك.. روّحني.. أنا ما ليش نفس آكل أصلًا، وارجع انت الشغل.. ما انت متجوّز الشغل.. امال لما نتجوز هتعمل فيَّ إيه؟

- اهدي بس يا ميّ.. أنا اتأسفت.. هاعمل إيه تاني يعني؟

- هتعمل إيه؟ أقول لك أنا تعمل إيه.. لما يكون فيه بينْنَا ميعاد.. ابقى تعالى فيه، سهلة؟

- حاضر.. وآسف تاني إني سِبتك بعد الشغل مستنياني. ما حدش من البنات قعد معاكِ على ما آجي؟ سأل مُحاولًا خلق حوار يأخذهم بعيدًا عن الجدال الغاضب.

"وكأن تغييرك للموضوعِ سيُنسيني إياه"

فكّرت وهي تتابع بائع نعناع سخيف، يجري خلف إحدى السيارات، وهو يتمتم بعبارات، لم تسمعها، ولكنها كانت واضحة الفحوى، حيث كان يحاول إجبار السيدة التي تقود السيارة على مساعدته، سواء عن طريق استمالة قلبها، وكسب تعاطُفها، أو لمُجرد أن تتخلص منه.

قال وائل:

- ميّ.

فنظَرت إليه دون رَد، فأومأ برأسه ليحُثها على التجاوب معه، فنظرت صوب البائع مُجددًا، لتجِده قد نجح في مسعاه، ولكنها لم تتمكن من معرفة هل تعاطفت معه السيدة، أم الخوف هو ما دفعها للتخلُص منه، ثم عادت ونظرت إلى خطيبها، وقررت أن تُجاريه، فقالت:

- نادر قعد معايا شوية.. وعرض عليَّ يوصّلني.. ولسَّا ماشي من ربع ساعة. كتَّر خيره.

نظر إليها وائل بطرف عينه وهو يضغط على أسنانه، وقال مُحاولًا أن يبدو صوته هادئًا قدر إمكانه:

- والهانم ما قالتلوش إن خطيبها جاي ياخُدها ليه؟ بدل ما يعمل شهم!!

فقالت وهي تنظر إلى الجهة المقابلة حتى لا يلحظ ابتسامة الاستمتاع التي كسَت وجهها:

- لا ما هوّ عارف.. كل زمايلي عارفين إنك جاي تاخُدني النهاردا، ثم نظرت إليه بعد أن أزالت ابتسامتها، وسألت:

- تحب تعرف عرفوا ازاي؟ عشان اليوم اللي عربية شغل بابا بتاخدني.. بتكون واقفة ع الباب من قبل ما أخلّص شغل بييجي ساعة، بس اليـ...

فقاطعها وائل قائلًا:

- يعني دا يدّي الحق للملزق دا إنه يقول لك أوصَّلِك؟

- والله هي غالبًا بتكون عزومة مراكبية.. بس يُشكر، بيعرض بأدب وبمُنتهى الذوق، وكتّر خيره قعد معايا شوية..

- خلاص خلاص يا ميّ.. اقفلي السيرة دي، قالها وزفَر بضيق.

كان يعلم أنها، بذِكر زميلها، وعرضه توصيلها، الذي غالبًا لَم يحدث، تتعمد استفزازه، ولكنه لم يستطع منع نفسه من السقوط في فخ الغيرة والغضب، ولكنه اعتبر هذا نهاية جيّدة للحديث، وانتصار لكل الأطراف، حيث أن خطيبته تشعر، بعد استفزازها له، وكأنها انتصرت، فلتهنأ بانتصارها الزائف، وتُنهي حالة التوتر تلك التي يكرهها، وأيضًا لأنه كان في قرارة نفسه، يعلم أنه يستحق التأنيب، فتقبّل انتقامها راضيًا.

فالجدال مع امرأة غاضبة، كالسباحة ضد التيار، ستبذل فيه كل ما في جسدك من طاقة، ولن تصل سوى إلى حيث يتجه التيار.

جلس وائل وخطيبته على المائدة التي اختارتها إلى جوار زجاج ذلك المطعم الطافِ على سطح نهر النيل، كانت مَيْ سعيدة، حيث نجحت خطة وائل في إزالة توترها، وساعد المكان المُكيف، والمنظر الرائع للنيل، كثيرًا.

أخرج وائل هاتفه المحمول من جيبه، ووضعه أمامه على الطاولة، وشعر بالضيق عندما لاحظ اقتراب انتهاء شحن هاتفه، الذي كان يعتقد أنه موصّل بالشاحن طوال فترة تواجده في مكتبه، ولكن ضيقه لم يمنعه من هَزّ رأسه تجاوبًا - وكأنه يستمع- مع خطيبته، التي كانت تحكي له عن تفاصيل يومها المُتكررة، والتي سَمِعها، من قبل، منها مرات كثيرة، ولكنها كانت تحب أن تحكي له كيف واجَهت مُديرها، وكَم تغار تلك الزميلة منها، وإلى أي مدى وجودها في مكانها في العمل مهم، لدرجة يستحيل معها إتمام أي شيء في البنك بدونها، وكيف أنها أحق بالترقية من تلك المنافقة المتملقة التي حصلت عليها، فقط لأنها تعرف كيف تبتسم بدلال لمدير الفرع.

قطع رنين هاتفها المحمول فيض الكلام الذي ظَنّه وائل لن ينتهي، فأخرجت هاتفها وهي ما زالت تحكي له قائلة:

- والله لو تشوفها وهي بتدلع عليه.. نمرة غريبة !! قالتها وأجابت الاتصال:

- ألو ! صمت لثوانٍ وهي تنظُر إلى يمينها إلى مركب صغير يشُق صفحة النيل الهادئة، بحثًا عن رزق عائم، ثم توجهت نظراتها صوب وائل، وقالت متعجبة، وهي توجه نظرتها إلى هاتفه المحمول:

- انت تليفونك فَصَل؟ قالتها وهي تناوله هاتفها بضيق.

وضع وائل هاتفها على أذنه، وقال وهو يتأكد من عمل هاتفه، ليجده مُغلقًا:

- ألو.. إيه يا شريف؟

لا لا ولا يهمك.. في إيه؟

تمام.. لا سيبه على مكتبي.. وروّح انت يا معلم.

لو في حاجة كلمني هنا لحد ما افتح تليفوني، ماشي.. سلام.

أعاد لها هاتفها، وقال بضيق:

- ماعلش يا ميّ.. راضي الزفت فصل الشاحن زي كل مرة. ثم ضحك ساخرًا وهو يسمح للنادل بأن يضع أمامهما أطباق الطعام، وأكمل:

- تخيّلي برغم إن المكتب أساسًا كان مقفول مش بيتنضف بسبب الـ... وانتظر حتى ابتعد النادل، ليُكمل:

- الاقتحام.. يعني من الأصل ما دخلش المكتب تقريبًا.. بس تحسيه بيعاند... ثم قطع كلامه فجأة وهو ينظُر إليها بعيون متسعة كأنه تلفزيون قُطع عنه التيار الكهربائي فجأة.

كانت البذرة تنمو في عقله الباطن، وتتشكّل، لتنتقل إلى وعيه، في شكل شجرة وارفة.

فقالت وهي تلتقط معلقتها:

- مالك يا وائـ.. وقطعت حديثها عندما مَدّ يده والتقط هاتفها الذي وضعته إلى جوارها، حيث كان يبدو وكأنه لا يراها من الأساس، ثم مَدّ يده إلى هاتفه، ثم تركه عندما تذكّر أنه جثة لن تفيده.

كان يتحرك بتوتر واضح، ودون منطق، وكأن هناك روحًا أخرى محبوسة بداخل جسده تحاول الفرار، حتى بدا على ملامحه أنه توصل لحل لمُشكلته، التي لا تعرف ماهيتها مَيْ، فبقيَت صامتة، تتابعه بفضول حَذر.

كان وائل يشعر بالفكرة تنبُت داخل عقله. فحجبته عن واقعه.

اتصل وائل برقم ما، وكان يبدو عليه الاستعجال الشديد، حيث اندفع منه الكلام كشلال هادر كسر لتوّه سَدًّا يمنعه:

- شريف.. ماعلش.. ابعت لي حالًا نمرة كريم فاضل.. فاكره؟ بتاع مباحث الإنترنت.. ابعتهولي علـ.. لا لا مش هاعرف اكتبه.. ابعتهولي في رسالة حالًا على الرقم دا.. حالًا يا شريف.. في ثانية يبقى عندي، وأغلق الخط، وترك الهاتف أمامه، ومسح جبهته بتوتر.

كانت تعلم أن خطيبها عندما تخطُر في باله فكرة ما قد تساعده على حل إحدى قضاياه، يتحوّل خطيبها إلى وضع "الطيّار الآلي". هكذا كانت تُسمي الحالة التي يكون عليها خطيبها في تلك الأثناء، ولا يرى سواها - الفكرة وليست مَيْ بالطبع- فلم تحاول أن تتحدث، حتى تتجنب أن تتشاجر معه في هذه الحالة، ولأنها تعلم أن ما من سبيل آخر لعودته إلى المطعم بوعيه

كاملًا، وإغلاق حالة "الطيّار الآلي". إلا بعد أن يقوم بأي كان الذي يريد القيام به.

كانت في أحد الأيام، أثناء تحليق وعيّ وائل في حالة "الطيّار الآلي" سألته: "هل تُحبني؟!" فأجابها بـ "نعم" فعادت وسألته: "هل تكرهني؟!" فأجاب بـ "نعم" فعلِمت أنه غير موجود، وأن ما تحصُل عليه هي إجابة مُسجلة، مثل التي نسمعها على أجهزة الـ Answering machines عندما نتصّل بمنزل صاحبه غير موجود.

أصدر هاتفها، الذي أصبح تحت أسر وائل بشكل كامل صوتًا، يشير إلى وصول رسالة، فالتقط وائل الهاتف كمُدمن على وشك الحصول على جُرعة غابت، واتصل بالرقم، وقال بعد أن انتظر لثوانٍ، مرّت على وائل كشهور:

- كريييم.. حبيبي. وائل تحسين معاك.. باقول لك إيه؟

"لا وقت لمجاملات" فكّرت مَيْ، وحاولت أن تتقبل طبع خطيبها المُستفز، وأن تواسي نفسها، وأن تجد عزاءً في أنه يتصرّف بهكذا صَلَف مع كل الناس.

- ركّز معايا.. إيه ممكن حد يستفيده من إنه يستخدم جهاز كشف البحث الجنائي بتاعي اللي في مكتبي؟ وإيه ممكن يخليه يحتاج يحُط فيه USB؟

* * *

١٦

"ساحر"

فَكّرت مريم.

"أتمنى ما تكونيش قريتِ الرواية دي.. فيها رحلة تستحق السفر معاها.. رواية الطاعون كئيبة جدًّا.. هتُشكريني بعدين :)"

قرأت جملته مِرارًا، وهي تُفكر: "من هذا؟ ولماذا؟"

لم تستطع منع ابتسامتها، ولم تحاول، كلما وصلت لتلك الابتسامة المرسومة ببساطة في آخر جُملته القصيرة. وكأنه يبتسم لها، فتأبى ألا ترُد له الابتسامة، فهو الذي وضع الابتسامة على وجهها في الأساس.

كانت تقف في شُرفة غُرفة نومها، التي تطل على حديقة كبيرة مستطيلة الشكل، تتوسط العديد من العمارات، التي تطل كلها على الحديقة، من كل الاتجاهات، وتمُر عند زوايا الحديقة الأربعة، أربعة شوارع، تربط هذا المستطيل السكني بالطرق المحيطة، كانت الحديقة تحوي العديد من شجر الأكاسيا، ولكن الموقف الذي تعرضت له مريم، يمنعها من الاستمتاع بمنظر الحديقة، وبأصوات مئات العصافير التي كانت تُغني مودعة يومًا أوشك غروبه.

كانت مبتسمة، ولكنها كانت تتمنى لو أنه ترك لها الBookmark التي تحمل

تاريخ يوم ميلادها، والتي أهدتها إليها صديقتها الوحيدة چينا، التي تحاول مريم الاتصال بها، للمرة الثانية دون رَد، وأخيرًا سَمعت صوتها يجيب قائلًا:

- أيوة يا زفتة.. عاوزة إيه؟

فقالت مريم بحماسة وكأنها لَم تسمع نبرة الغضب الزائف التي تعمّدت چينا إضافتها إلى صوتها: انزلي حالًا تعالي هنا فورًا.

- إيه؟!! ما لك يا بنتي؟!! خير في إيه؟!!

- لا خير، صمتت لثانية ثم قالت:

- مش عارفة.. بس هو في حاجة غريبة حصلت.

- يخرب بيت دماغك خضيتيني، في إيه؟!!

- لا لا ما تخافيش.. ما فيش حاجة. بس في حاجة غريبة. بُصي؛ تعالي وانتِ تفهمي.

- مش هاعرف اتحرك قبل ما احضّر الغدا مع ماما.. بس ماتقولي لي ما لك، أنا قلقت.

قالت مريم بصوت حاولت جعله هادئًا، ولكن الحيرة منعتها:

- يا بنتي ما فيش حاجة والله.. حصل موقف غريب كدا مش عارفة اشرحه ازاي.

تنهّدت چينا وسألت بقلق حقيقي:

- انتِ وماما كويّسين يا مريم؟

- آه والله يا چي.. ما تخافيش. أنا بس عاوزة احكي لِك حاجة، بس مش

هينفع في التليفون.. لازم تشوفيها. هاستناكِ، وأغلقت الخط بعد وعد چينا لها بالحضور بعد قليل.

ثم ابتسمت ورَفعت الرواية أمامها، وكأنها - مريم- عالمة آثار تُمسك بلُغز أثري مُشَفّر، عصيّ على الفهم، من عصر مضى.

لَم تعلم أن في الجهة المقابلة من الحديقة التي أمامها، في العمارة المواجهة لها، في دور واحد أعلى، كان هناك شاب يقف خلف زجاج غامق اللون، يبدو من الخارج كمرآة في ضوء النهار، يتابعها من خلال نظارة مكبّرة حديثة، وكان يبادلها الابتسام، لأن هذه هي أول مرة يرى فيها تلك الغريبة تبتسم.

دخلت مريم وغابت عن نظره، فترك النظارة المكبرة من يده، ووضعها إلى جوار جهاز كمبيوتر شخصي، ثم التقط من جانبها رواية "الطاعون"، وفتح صفحاتها ليلتقط Bookmark بيضاء اللون، عليها كتابة باللون الأحمر، عبارة عن تهنئة بعيد ميلاد، فابتسم، فتلك هي أول معلومة مؤكدة يعرفها عن تلك الغريبة.

ترك الشاب الرواية، وظَل ممسكًا الـ Bookmark، وبدأ يُغني مع صوت محمد منير، الذي كان يملأ فراغ الشقة الواسعة..

عينيك حلوين.. هاديين صافيين.. مليانة حنين.. حنين بيخطفني..

وعينيك طعمين.. رايقين دافيين.. هتاخُدني لفين.. لفين وتسرقني..

من كل حاجة.. من أي حاجة.. يا كل حاجة في دُنيتي إنت..

* * *

مذكرات

٤

عَلِمت اليوم يقينًا أنني قد مُت..

عندما سمعت خبر خُطبتها، على رجل يمتلك كل ما لا أمتلك.. ولَم أتألم.

ألا يكفيه امتلاك كل شيء، حتى يأتي ليأخذ منّي أنا كل شيء؟ حياتي.

شعور غريب بالراحة..

لا أعلم سببه..

قد يكون لأنها أصبحت رسميًا حلمًا مستحيلًا.. فلَن تطالبني حتى أحلام يقظتي بتحقيقه.

وكأن الحلم كان ممكنًا قبل اليوم.

أو قد يكون سببه هو أن الإحساس بالألم غادرني ولَن يعود..

فبعد غياب شمسي، أي ظلام سيُخيفني؟

* * *

١٧

دخل وائل إلى مكتبه مندفعًا، ومن خلفه راضي المُجند، الذي علِم يقينًا، أن عودة الضابط بعد أقل من ساعتين على مغادرته، لن تحمل من الخير شيئًا.

"هات العواقب سليمة يا رب"

كان وائل طيب القلب، في أغلب الأوقات، يكره الأذى، ولا يهين أحدًا، ولكنه كان، كعادة هذا النوع من البشر، سريع الغضب، ولا يتحكم في غضبه عندما يتمكّن منه. وكان وائل، بلا شَك، لا يبدو غاضبًا الآن، ولكن تلك الحماسة، وهذا الانفعال، الباديان بوضوح على ملامحه وحركاته، هما عاملان سهلان الاشتعال والتحول إلى الغضب في ثوانٍ، فتوجس راضي، وقرر أن يتجنب الضابط، وأن يتجنب الخطأ، والنقاش مع وائل، القابل للاشتعال، قدر إمكانه.

فمن الذكاء أن تعلم متى تصمُت، ومتى تكون، إن أمكن، غير مرئي.

- اقفل الباب واقعُد يا ابني.

"ذهبت محاولات التجنُب أدراج الرياح"

فكّر راضي وهو يجلس، وعيناه لا تفارقان وائل، وكأنه يخشى أن يرفع عينيه عنه، فيفاجئه بأي تصَرُف.

- بالراحة كدا وواحدة واحدة.. انت كنت فين بالظبط لما الواد دا ضرب القسم بالغاز؟

اعتدل راضي وكأنه في اختبار داخل كُتّاب مُحفّظ قرآن قريته البعيدة، وعلى وشك أن يعيد على مسامعه ما حفظه من آيات، وقال:

- سعادتك زي ما قُلت لسعادتك.. أنا كنت ع الباب هنا.. ولما سمعت دوشة طلعت اشوف في إيه.. وبصراحة يا وائل بيه أنا لما شُفت الغاز افتكرت القسم بيولع.. فطلعت اجري على برًّا.

صَرّ كرسي وائل وهو يعتدل بعد وضع هاتفه في الشاحن، وكأن الكُرسي غاضب من رد المجند. وانتقل غضبه إلى الضابط، الذي نظر لراضي وقال بحدة:

- يا ابني انت مش قُلت إنك كنت في الساحة برًّا بس ما شُفتش حاجة؟ يا ابني انت في تحقيق رسمي يا ابني ما تطلعش ميتيني.

انطق بالحرف باللي حصل.. وما تخافش مش هأذيك. وعد يا راضي.. بس قول بصراحة.

- ز... زي ما قُلت لسعادتك. طلعت جري ع الشارع.

كانت شَفَة المُجنّد السُفلى ترتعش بشدة، ولاحظها الضابط، فقال مُطمئنًا، حتى يصل إلى المعلومة الأهم، والتي كان يعلم مدى صعوبة تذكُر المُجند لها، خاصة في تلك الحالة، التي هو عليها من الفزع:

- بُص يا راضي. كل الضباط النباطشي جِريوا ع الشارع وقت الغاز، كَذِب وائل، ثم أكمل:

- ما حدش كان فاهم إيه اللي بيحصل.. مش انت بس، وبعدين زي ما قُلت.. اللي بتقوله دا عشاني أنا.. ما تقلقش من حاجة.

ها.. قُل لي بقى.. انت بعد ما رجعت من برَّا.. باب مكتبي كان مفتوح ولا مقفول؟ ولّا من الخوف والخضّة عملت زي الضباط والأمناء ونسيت؟ ما انت مش هتبقى مفتّح عن الأمين مجدي يعني.. اللي سلّمه مفاتيح الحجز. وضحك بوِد حتى يطمئن راضي، ونجح.

- بصراحة يا بيه كدا أنا مش فاكر لمـ...

رفع وائل يده وضرب سطح المكتب فقفز راضي ككرة "بنج بونج"، ووقف دون وعي صحيح منه.

- ما فيش مش فاكر.. افتكر.

ولو كدبت عليَّ تاني يا راضي هتتحاكم عسكري.. ورحمة أبويا لو اتكررت ما هارحمك.. أنا هالاقيها منك ولا مـ...

دلف شريف معاون المباحث إلى المكتب، حيث جاء بُناءً على طلب وائل منه ذلك عبر هاتف خطيبته، قبل أن يتركها عند منزل والديها بوعي غائب عنها.

قال وائل بحماس:

- أنا عرفت الواد دا خرج من مكتب المأمور دقايق ورجع ليه يا شريف.

* * *

١٨

- بتهَزّري!!

قالت چينا صديقة مريم في صيغة إقرار، وكأنها لا تُصدق ما قالت صديقتها أنه حدث.

كانتا في غرفة مريم، التي كانت مُرتبة لدرجة تظُن معها، أن لا أحد يستخدمها، مكتب أبيض اللون، تقف على جانبه صورة رجل خمسيني، في إطار أسود، وعلى منتصفه حاسوبًا محمولًا طويت شاشته، لونه فضي، وتعلوه مكتبة تحتضن عددًا لا بأس به من الكُتب، معظمها روايات، وبعضها دواوين شعر، وبعض من كُتب الدكتور مصطفى محمود الكثيرة.

في الركن المواجه للمكتب، يقبع بيانو أسود فخم، يبدو وكأنه خرج لتوّه من مشهد من أحد أفلام عبد الحليم حافظ، بلونيه الأبيض والأسود المُميّزين. وسرير يعلوه شباك مغلق صغير، يطل على شرفة، بابها مُغلق هو الآخر إلى يمين السرير.

صوت هامس لتكييف الغرفة يكاد يكون مسموعًا، وكأنه يسترق السمع على هاتين الفاتنتين، ويخشى كشف أمره.

- والله زي ما حكيت لِك. قالت مريم وهي تجلس على كُرسي البيانو مولّية ظهرها ناحيته، لتواجه صديقتها.

رفعت جينا قدميها وشبكتهما تحتها على السرير، وهي تفتح صفحات الرواية التي تركها المجهول لمريم، وقالت بخيبة أمل:

- على فكرة هيطلع حد من اللي شغالين في "الكافيه"، هيطلع محمد.. مش هوّ اللي كان هناك؟

- آه هوّ.. بس مش هوّ.

- دا زي "أنا ما اعرفش بس أنا متأكد كدا؟" وضحكت جينا.

تبسّمت مريم وقالت موضّحة:

- يا بنتي كان قُصادي وقتها، بينزل طلبات لناس، وكمان ما كانش في حد قريب مني خالص منهم.

وما حدش أصلًا ممكن يتجرّأ يعمل كدا، دا يتقطع عيشه لو عملت مُشكلة.

- بس أصل ازاي؟

- أنا بعد ما اكتشفت اللي حصل؛ ركّزت كدا، ما كانش في غير محمد في الصالة.. والتاني كان ورا الـ Coffe Machine طول الوقت، مش ممكن يكون حد منهم، أنا متأكدة.

- أتمنى ما تكونيش قريتِ الرواية دي.. فيها رحلة تستحق السفر معاها.. رواية الطاعون كئيبة جدًّا.. هتُشكريني بعدين :).

أعادت جينا قراءة جُملة "الساحر" بصوت عالٍ، وابتسمت تلقائيًا لدي وصول عينيها إلى تلك الابتسامة التي تقبع، غير متوَقعة، في آخر الجملة

كالفَخ، وكأنها - الابتسامة- تعويذة سحرية، تفرض على من يقرأها الابتسام.
ثم أضافت:

- يخرب بيت الرومانسية.. أنا عاوزة من دا يا إمّ، واحتضنت الرواية.

فقامت مريم وانتزعتها منها وهي تبتسم وقالت:

- احنا هنقُرّ؟

وجلست إلى جوارها وقالت وهي تُقلّب صفحات الرواية سريعًا كَمن يبحث عن شيء ما:

- مش فاهمة ازاي كدا، ومين؟ دماغي مش جايبة أي تفسير منطقي.

- منطقي مين يا بنتي؟ دا شغل أفلام عربي.. لا عربي إيه؟! دا تُركي بامتياز.
ووكزت مريم بمرفقها وقالت بخُبث:

- طب إيه؟ مش هننزل نروح الكافيه تعزميني على المُز؟ قصدي على لمون بالنعناع؟

اتسعت عينا مريم وهي تضحك، وقالت وهي تشيح بوجهها بعيدًا عن چينا:

- خلاص عملتيه مُز؟ وبعدين إيه أعزمك عليه دي؟ دا انتِ مصيبة.

- لا باقول لك إيه.. ما هو اللي يعمل الحركة دي لازم يبقى مُز، لو مش حلو وقمّور كدا هيفصلني.

- يا دي النيلة.. يا بنتي وانتِ تتفصلي بتاع إيه؟ هو جه جنبك؟

طوّقت چينا رقبة صديقتها بذراعيها واحتضنتها بوِد وقالت بخُبث لتستفز صديقة عمرها:

- يا إمّ يا حبيبتي كلنا عارفين إنك معقدة ومالكيش في الطيب نصيب.. وهتطيّري المُز.

ولّا هتفتّحي مُخك معايا؟ ونفرح بيكِ؟

فرّت مريم من بين ذراعي صديقتها، وكأنها تستعيذ بالله من وسواس أوشك على أن يقنعها بارتكاب خطيئة، وقالت:

- نفرح إيه؟ ومُز مين؟ دا انتِ شيطانة.. هو احنا عارفين عنه حاجة؟ اهدي كدا، وبعدين مانتِ عارفة.. أنا ما ليش في كدا ومش ناوية.

- طب ننزل نروح الكافيه.. وانا هاخد معايا رواية... وصمتت لثوانٍ تُفكر، ثم قالت:

- أنا ما ليش في القراية انتِ عارفة.. شوفي لي حاجة كدا أنيَل من الطاعون.. عندك حاجة اسمها كوليرا؟ ولا إيبولا؟ أقول لك؟ لا بلاش الإيدز.. ليفهمني غلط، وضحكت بصوت عالٍ.

- يخرب بيتك.. اهمدي.

ضحكا بمرح واضح، ثم قالت چينا كمَن "جابت التايهة":

- آه.. عندك في المكتبة حاجة اسمها الجمرة الخبيثة؟

ثم نظرت إلى السقف وقالت بهيام مبالغ فيه، بصوت وأداء الفنانة ماجدة في أحد مشاهدها الرومانسية:

- يمكن اصعَب على المُز وييجي يخطُبني على طول، ومدّت كلمة طول، وتنهّدت في آخرها، بأداء مصطنع وفجّ.

- امشي يا بت من هنا.. أنا غلطانة إني كلّمتك.

- معقول بدأتي تغيري عليه بسرعة كدا؟

تركت مريم الرواية إلى جوارها، والتقطت وسادة، وضربت بها وجه صديقتها، التي ضحكت بصوت عالٍ، وهي تحاول تفادي الضربات، بعد نجاح استفزازها في جعل مريم تعلن بشكل غير مباشر عن اهتمامها بهذا المجهول.

* * *

١٩

انطلق صوت أم كلثوم الواثق، من سمّاعات رديئة، موصّلة بجهاز كمبيوتر عتيق، في ركن صالة شقة عماد. تلك الشقة التي استقر بها الصحفي منذ وصوله إلى العاصمة، ليطارد حلمه، أن يصبح، يومًا ما، أحد علامات الصحافة المصرية.

هَجَرتك.. يمكن انسى هواك.. واودّع قلبك القاسي..

كانت الشقة صغيرة، تقبع فوق سطح أحد العمارات القديمة، في هذا الحَيّ، الذي يبدو وكأنه هَرب لتوّه من إحدى روايات نجيب محفوظ، بكل أصالته وجماله العتيق، ولكنه - الحَيّ- تلقّى لطمة الحداثة، لتترك على وجهه، ندبة عميقة، لن ينجح، أمهَر خبراء التجميل، في إزالتها.

كانت تلك الندبة تظهر، على سبيل المثال، جليّةً في الأغاني المُزعجة، التي تنطلق من كل توكتوك، وكأنها الوقود الذي يُسيّر تلك الآلة القبيحة، وبدونها لن تسير، وتظهر على ملابس الشباب، التي تفرض عليك أحيانًا كثيرة، أن تتمعّن في صاحبها، حتى تتأكد من نوعه، ولن تتأكد في بعض الحالات.

وقُلت اقدر في يوم اسلاك.. وافضّي من الهوى كاسي..

كانت الصالة قليلة وبسيطة الأثاث، كنبة واحدة، وكرسي إلى يسارها، في مواجهة جهاز تليفزيون عتيق، إلى جوار ركن الكمبيوتر، وردهة صغيرة في الركن المقابل، عبارة عن مطبخ، وعبره تمُر إلى حمام صغير، وفي مواجهة باب الشقة - إن صح تسميتها بشقة- باب غرفة النوم، التي كانت بالكاد تتسع للسرير، "وكومُدينو"، ودولاب صغير.

لَقيت روحي في عِزّ جفاك.. بَافكّر فيك وانا ناسي..

قطع عماد جُزءًا في حجم عُقلة إصبع، من قطعة حشيش، في حجم سبّابته، ولَفّها في سلوفان انتزعه من داخل علبة سجائره، وأمسكها من طرفها. وأشعل قداحته، وضبطها لترتفع الشُعلة قليلًا، وبدأ في تسخين السلوفانة، وهو مُنكَبٌّ على الطاولة الخشبية الصغيرة التي أمامه، والتي كانت بها جروحًا سوداءً كثيرة، من جراء نيران طالتها كثيرًا عن خطأ أو سهو.

كان دُخان السجائر الكثيرة، التي تقبع بقاياها داخل منفضة سجائر وتملأها عن آخرها، يملأ فراغ الصالة، وكأنه ينافس صوت كوكب الشرق، على من منهما يملأ فراغًا أكثر.

غَصبت روحي على الهِجران.. وانت هواك يجري في دمّي..

بدأ الدخان يتصاعد من السلوفانة، حاملًا معه رائحة الحشيش المُميزة، والسلوفان المُحترق. استمر في التسخين، وهو يُدير السلوفانة بحرفية، وكأنه طبّاخ ماهر يقوم بشواء قطعة من اللحم، ويتأكد من أنه يشوي كل جوانبها.

وفضلت افكّر في النسيان.. لمّا بقى النسيان همّي..

أطفأ عماد القداحة، ومَد يده إلى الفتاة التي كانت مُسترخية إلى جواره، تُدخن سيجارتها وتستمع إلى صوت كوكب الشرق، وتُتابع الأشكال التي يرسمها الدُخان أثناء رحلته البطيئة إلى سقف الصالة، وكأنها وحدها في الشقة، فانتبهت، وناولته علبة سجائره، فأبعد يده، وشاور لها على علبة سجائرها هيَّ، الـ Merit الصفراء، وقال بضيق ونفاد صبر:

- يا بنتي قُلنا الحشيش يتلَفّ في النضيف.. حتى المزاج هنشربه بخَشَبة؟

في إشارة إلى أن أنواع السجائر الأخرى، تحوي داخلها خشبًا مطحونًا، بكمّيات متفاوتة حسب جودة المُنتج.

فناولته منها سيجارتين، فأخذ واحدة فقط، فقالت وهي تنفخ دُخان سيجارتها بصوت ناعس:

- هتبقى تقيلة قوي.. خُد واحدة كمان.. عشان اعرف اروّح.

لَو خطَر حُبك في بالي.. ولّا زار طيفك خيالي..

بدأ عماد يفرّك السيجارة على صفحة بلاستيكية صغيرة أمامه، ويفرغ أمعاءها كلها، وأسقط وسط الأوراق البُنيّة اللون قطعة الحشيش الساخنة، التي لانت بفعل التسخين، وأخذ يفرك الخليط كله، ويخلطه بتروٍّ:

- ما تروّحيش، قال وهو منهَمِك في عمله.

- مش هينفع.. عندي شغل الصبح.

قال وهو لا يزال يفرك كل شيء أمامه بأصابعه المُدربة:

- خلاص ما تشربيش، بضِيق، ثم نظر إليها بطرف عينه وقال:

- وبعدين هو الصبح هيطلع في بيتكم وهنا لأ؟ ما تروحي من هنا.

قالت وهي تُطفئ سيجارتها:

- أقرب من هناك.. وما لك يا عم القافش؟ ما كانش يعني مقال كتبه بدالك رئيس التحرير، ثم سألت وهي تنظر حولها:

- هي فين صوفي؟ غريبة يعني مش بتكسر ولا بتعضض في الحاجة.

- نايمة مسقّطة عشان فركت لها حتة حشيش ع البطاطس المهروسة.

قالت وهي تضحك:

- أكّلت الكلبة حشيش يا ابن المجنونة؟

- وما له؟ هي يعني ما لهاش نفس تتكيف؟

ضحكت أسماء بصوت عالٍ، وهي تتخيل الكلبة الصغيرة فاقدة الوعي.

حاولت اهرب من الأفكار.. اللي تشعلل نار حُبي..

فتح عماد علبة صغيرة والتقط منها ورقة بفرة متوسطة الطول، ووضع في أولها، قطعة صغيرة من الكارتون، انتزعها من جانب علبة سجائره، التي بدأت تبدو وكأنها سيّارة تم تركها في حَي فقير، فتم نَهبها من كل ما يمكن نهبه، كانت تلك القطعة، تقوم بعمل فلتر السيجارة العادية، قام بثنّيها حتى أصبحت تشبه الماسورة الصغيرة، ثم أمسك برفق ورقة "البفرة" بأصابع

يُسراه، فاردًا إيّاها على سبّابته ووسطاه وخنصره، ومُثبتًا الورقة بإبهامه، ثم رفع الصفحة البلاستيكية التي فَرَك عليها كل شيء، وأسقط الخليط كله على الورقة، وأنزل وسطاه قليلًا، ورفع سبّابته وخنصره باحتراف، حتى يجعل من الورقة مهدًا للخليط، الذي استقر في منتصفها، في انتظار لَف ورقة "البفرة" حوله، كما يُلَف الرضيع اتقاءً له من البرد.

وفضلت وانا بالي محتار.. في الحُب بين عقلي وقلبي..

هَز عماد يده، وأسماء إلى جواره تتابعه بلهفة، وفَرد الخليط بيُمناه، وبدأ في لَف ورقة "البفرة" برِفق يليق برقّة الورقة، اكتمل غلق الورقة، فلحس بلسانه طرفها، لتلتصق جوانبها، وتتحول إلى سيجارة كاملة التكوين. ثم رفع السيجارة إلى الأعلى بفخر، بعدما تأكد من سلامة صُنعها. ثم أغلق أعلاها بضَم أطرافه، ثم نقر بطرفها الأدنى على الصفحة البلاستيكية، ليسقُط الخليط إلى القاع، ويُدَك جيّدًا.

وكان هَجري عشان انساك.. واودّع قلبك القاسي..

لَقيت روحي في عِز جَفاك.. بَافكّر فيك وانا ناسي..

أشعل عماد طرف السيجارة، ومال إلى الخلف، وهو يناول أسماء إيّاها، بعد سحبه لنَفس طويل منها، وأسند ظهره إلى الخلف، ورفع رأسه للسقف، ونفخ دُخان النفس الأول بعد الاحتفاظ به قليلًا داخل صدره، حتى يكتمل التأثير المُخدر، وقال وهو يتابع دُخان الحشيش المُهاجر إلى السقف،

ويتساءل عن قُدرته على التمييز بين دُخان السيجارة العادية، وبين دُخان الحشيش، بصوت مكتوم:

- اللي حارقني زي النار دي.. مش مقالة الاعتذار.. اللي حارقني إنه خَدني كوبري يكسب بيه بونط ع العقيد عشان يمشّي لُه مصلحة، بس هو فيه ميزة الصراحة.. هو ابن كلب مع الناس كلها، مش ناس وناس زي المديرين اللي بيبقى لهم عصافير وسط الموظفين، لا هو عبد مصلحته وبس.

صعبان عليَّ جفاك.. بعد اللي شفته في حُبك..

مش قادر انسى رضاك.. أيام ودادك وقُربك..

نفثت أسماء دخان نفس قصير امتصّته من السيجارة، وكَحّت مرتين، وقالت بصوت متقطع:

- تقيلة قوي، ثم ألقت ما تبقى من دخان في رئتاها إلى الهواء، وكأنها تتخلّص منه، وأكملت بصوت مختنق:

- بس يا عماد هو عنده حق في اللي قاله.. انت ما كانش عندك قصة أصلًا.. وبرغم كدا كتبت مقال تقيل قوي، بغض النظر عن اللي حصل.. انت استفدت.. يا ابني انت اسمك اتعرف.. ما تبقاش غبي وتفضل واقف في النص المليان.. بُص ع النُص الفاضي.

- أبُص ع النُص الفاضي؟ لا هاتي السيجارة يا أسماء وادخُلي نامي.. انتِ كدا وصلتِ، ومَدّ يده وسحب منها السيجارة، فلَم تعترض، فهي تشعُر أنها قد "وصلت" بالفعل.

- اللي غايظني فعلًا إني صدّقت إني عدّيت وباكتب قصة وهاتابعها وهاعمل تحقيق وكدا.

لكن اعمل ايه؟؟ وانا قلبي لسَّا صعبان عليه..

صعبان عليه انه اتمنى.. جَنة قُربك..

ونال مُراده واتهنى.. بنعيم قُربك..

سحب نفسًا آخرًا من السيجارة، ثم ناول السيجارة لأسماء، التي رفضتها، لأنها شعرت أن عقلها قد غاب بالفعل، فاعتدلت لتجلب سيجارة عادية من علبتها، وتُشعلها.

- وبعدين يطلع البيه كان فاهم إن القصة نازلة على فَشوش.. لو كان قال لي كنت تابعت القصة.. وجبت قرارها قبل النشر.. وعلى الأقل كنت بقيت عملت حاجة، مش اعتذر تاني يوم زي العيل اللي عملها على روحه، ونفخ دُخانًا كثيفًا كتنين ينفُخ غضبه نارًا تحرق من استفزه.

ورجعت تسقيه من صَدّك.. كاس الهِجران..

وتفوت عليه أيام بُعدك.. سُهد وحرمان..

- طب ما تتابع القصة.. حَد ماسكك؟ قالت وهي تُلقي بظهرها إلى الخلف في كسل.

قال بصوت مكتوم تائه وسط سحابة من الدخان الكثيف:

- ما خلاص.. يعني لو جبت قصة هينشُرها بعد ما نشرنا تفسير واعتذار؟ خلاص ما بقاش ينفع.

- ومين قال لك تنشُرها في الجُرنال؟ انشُرها وخلاص، على صفحتك ع الـfacebook. انت اتعرفت وبقيت متشاف.

يا ما حاولت انساك.. وانسى ليالي هواك..

وانسى الجمال اللي شفته في الوجود وياك..

- ماهو عشان متشاف دي بقى ما ينفعش.. كدا هاتجاب وهالبس اسود. وبعدين الناس هتقول انت اعتذرت ولا جاي تقول الحقيقة، فين المصداقية؟ لأ.. ما ينفعش. وسحب نفسًا جديدًا، ليغيب وعيه أكثر.

- طب بسيطة.. انشُرها.. بس مش على صفحتك.

- يعني اعمل أكونت ما حدش يعرفه واكتب فيه كلام ما حدش يقراه؟

- انتِ لحقتش تتسطلي بالسُرعة دي؟

وكزته في كتفه، وقالت مُدافعة عن نفسها:

- فَشَر.. أنا مسطولة من ريحة النفس الأولاني بتاعك أصلًا، وضحكت.

فابتسم، برغم أنه كان يريد أن يضحك، ولكن بؤسه، وغضبه، والمُخدر منعوه.

- أقصد يا ذكي تنشُره في صفحة من الصفحات اللي مُهتمة بالقِصص دي.. بس لو عرفت تجيب قصة.

حَرمت روحي من كل نسمة.. كانت بتسري بينك وبيني..

وحَرمت روحي من كل نعمة.. كانت بتيجي ويّاك في عيني..

رفع رأسه، الذي بدأ في الدوران بالفعل، بفعل السيجارة المحشوّة، وسأل، ملهوفًا ببطء لم يقصده، وعيناه نصف مفتوحة دون قصد:

- تعرف يا سمسم حد أدمن في صفحة من الكُبار؟ بالذات صفحة "الشرطة والشعب في خدمة النظام"؟ دي فيها فوق المليون واحد، ما حدش من معارفك في حركة "عشانا عليك يا رب" دي يعرف يظبّطني؟

وقُلت اعيش من غير ذِكرى.. تخلّي قلبي يحن إليك..

مافضلش عندي ولا فكرة.. غير إني أنسى أفكّر فيك..

رفعت أسماء حاجبًا واحدًا وهي تنظُر إلى عماد باستنكار، الذي لم يلحظه بسبب سحابة الدُخان التي تغطي المساحة بينه وبينها، وقالت وهي ترفع ذقنها إلى الأعلى قليلًا تعاليًا:

- يا ابني أنا عضو مؤسس في الحركة.. مش عضو بس.. وبعدين اسمها "كدا كتير".. مش "عشانا عليك يا رب". وليّ اصحاب في حركة "٩ مايو" كتير. وطبعًا اعرف اظبّطك أخلّي الصفحة دي تنشر.. بس لازم يكون عندك معلومة مُفيدة، حاجة تستحق النشر يعني.

وبكدا.. تبقى عمَلت اللي في دماغك.. وممكن كمان نسرّب إشاعة إنك صاحب القصة.

- انتِ تعرفي اصحاب الصفحة دي؟!! وبعدين أنا ابقى استفدت إيه بقى من "الإشاعة"؟ ورفع علامات التنصيص.

فقالت وهي تمُط شفتيها استياءً من بُطء فهمه:

- ما حدش يعرف اصحابها.. بس اعرف ناس بيبعتوا لهم ع الصفحة ويتواصلوا معاهم.

وهتبقى استفدت إن الناس هتصدق.. وهتبقى بطل.. وفي نفس الوقت.. دي مُجرد إشاعة تقدر تنكرها، وإنكارك ليها هيأكدها في عقول الناس، يا ابني دي كلها حركات إعلام واخدين فيها كورسات.

بس كل دا يعتمد على انت تقدر تجيب قصة ولا ما تقدرش.

وصَبحت بين عقلي وقلبي.. تايه حيران..

واقول لروحي من غُلبي.. انسي النسيان..

سرح عماد لثوانٍ في الحائط المقابل له، خلف جهاز التليفزيون، والذي يحمل صورة العذراء مريم، وقال وكأنه يهمس لنفسه:

- لأ لو كدا.. هاجيب أبوها.

- هي مين دي؟ سألت أسماء وهي تنظُر صوب الحائط حيث توجه نظره.

فنظر لها بتعجُّب وقال:

- هي مين إيه؟ مش عارفة العدرا يا بنت الهبلة؟

ضربته بكل ما تبقى فيها من قوّة على صدره، وقالت بحدة:

- اتلم.. هبلة لما تركبك.

- ما عنديش أي مانع الهبلة تركبني، وشرع يحمي وجهه بيديه، وهو يضحك، عندما بدأت مُهاجمته بقبضتها.

- أهي لماضتك دي اللي موقّفة حالك.

- لسَّا ما فيش حال وقف، وضحكا، ثم قال وهو يتفادى ضرباتها:

- طب خلاص خلاص.. ما تركبيش لو مش عاوزة، وضحكا مُجددًا.

كان مزاجه قد تحسّن بشكل ملحوظ، بعد أن أدرك أنه لا يزال هناك طريقة، ينتقم بها من الداخلية، ومن رئيسه في العمل، وبالطبع ساعدت السيجارة كثيرًا.

سألت أسماء بجدّية، وهي تحاول أن تنفُض بقايا الغضب المُصطنع عن ملامحها:

- بس هي إيه اللي قُلت هتجيب أبوها؟ وانا افتكرتك بتتكلم عن الصورة؟

- يخرب بيت الحشيش.. أنا اللي افتكرتك بتتكلمي عن الصورة.. مش انتِ.

فضحكا بصوت عالٍ ثم قال عماد بصوت متقطع بسبب الضحك:

- كنت باقول هاجيب أبوها ع القصة يا مسطولة.

ضحكا مُجددًا بصوت أعلى عندما أدركا أن الحشيش يستحق ما دفعاه فيه.

ما دام باهجُر عشان انساك.. واودّع قلبك القاسي..

واشوف روحي في عُز جفاك.. بافَكّر فيك وانا ناسي..

أخذ ضحكهما في الخفوت تدريجيًا، حتى قالت أسماء، بصوت أنهكه الضحك:

- ما تغيّر السِت دي ياعمّ.. أنا حاسة إني زبيدة في فيلم بين القصرين.

فضحك عماد، ثم غمَز وقال بخُبث:

- حلو دا.. وانا السيد أحمد عبد الجوّاد.. قومي ارقُصي بقى.

ضحكت بغنجٍ وقالت بخيبة أمل مُصطنعة:

- تؤتؤ.. من غير طربوش ما تنفعش.

صمت لثوانٍ، لم يقصدها، ولكن سببّها المُخدر، ثم قال:

- طب ولو طلّعت لك الطربوش؟ تبقي زبيدة وتُرقُصي؟

ردّت وهي لا تستطيع منع نفسها من الضحك:

- انت ما دخلتش "مايكروويف" التربية ٣ ثواني على بعضهم.

* * *

٢٠

- لا يا وائل بيه.. أنا مش فاهم.. ما علش تاني بالراحة كدا. ما له جهاز الكشف بالحكاية؟!! سأل النقيب شريف وأشار صوب جهاز الكمبيوتر العتيق، الذي يقبع على طرف مكتب الرائد، وهو يخرج سيجارة.

أشار وائل إلى النقيب، إشارة مفادها، انتظر وشاهد لتفهم:

- راضي.. مش مهم حكاية الباب.. بس متأكد إن انت ما دخلتش المكتب تنضفه.. ولا لمست فيه حاجة بعد الغاغة دي؟ ولا مش متأكد، ولو كدبت مش هارحمك.

- وعِزّة جلال الله يا وائل بيه ما دخلت هنا من ساعتها.. سعادتك أول واحد دخل المكتب بعد ما جيت.

بعد ما رجعت القسم والدخان مشي.. إيهاب بيه النبطشي نبّه على كل الأمناء والعساكر ما حدش يلمس حاجة.

- متأكد؟ وصَرّ كُرسي وائل بعد سؤاله، مؤكدًا على أهمية السؤال.

- آه يا وائل بيه.. عليَّ الحرام مـ...

قاطعه وائل قائلًا بضيق:

- خلاص.. مصدّقك.

- بُص يا شريف، فاعتدل الأخير انتباهًا.

- أنا متأكد إن الواد دا دخل القسم عمل الغاغة دي عشان حاجة تانية غير إنه ينصُب على رامز جلال.

- غالي، صحّح شريف.

- نعم؟!

- رامز غالي.. جلال دا ممثل. ونفخ دُخان سيجارته.

- غالي، قال وائل بضيق ثم أكمل:

- المُهم.. اللي أكّد كلامي.. خروجه من مكتب المأمور دقيقة ورجوعه. ما كنتش قادر افهم السبب، وزي مانت عارف احنا راجعنا سوا على كل الملفّات هنا، ما فيش درج مكسور قِفله، حتى دُرج مكتبي هنا ما اتفتحش.

ونقر على سطح مكتبه، ثم أكمل:

- ونفس الموضوع في مكتب ممدوح بيه، يعني دخل مكتبه وساب لؤي فيه وما فكرش يلمس مكتبه ولا يفتح درجه اللي بيبقى مقفول بالمفتاح.

يبقى فاضل إيه؟

أطفأ شريف سيجارته، وأجاب:

- ما اعرفش.

أكمل الرائد بابتسامة متحمسة:

- الجهاز بتاع الكشف الجنائي دا.. الوصلة اللي فيه بتاعة الـ USB لما بتتهَزّ بتفصل ما بتشحنش. والبيه.. وأشار إلى راضي وأكمل:

- لما كان بينضف المكتب كان بيهزّها وبتقرفني على ما تشبّط تاني وتشحن، وكمان كنت باحُط التليفون وباسيبه واكتشف وانا خارج إن الزفت ما اتشحنش.. فنبّهت عليه يبطّل ينضف الجهاز، ومن ساعتها والمشكلة اتحلّت. لحد اليوم اللي جه فيها الواد دا.

- إيه اللي حصل؟

- زي ما سمعت دالوقت.. راضي ما دخلش المكتب من وقت الاقتحام.. وقبلها بساعة وانا خارج كانت الوصلة شغالة، دا معناه إيه؟ واعتدل ليُصِر كُرسيه، فلَم يُجِب شريف، وإن بقي مُنتبهًا. فأكمل الرائد:

- يعني الواد دا لما خرج من مكتب المأمور جه هنا، وأشار إلى جهاز الكشف الجنائي.

- واستخدم الUSB ولما رجّع الوصلة وهو طبعًا ما يعرفش إنها بتلَمّس وتفصل.. فما اشتغلتش لما انا استخدمتها.

أنا طبعًا شكّيت في راضي.. بس فعلًا افتكرت إن ما حدش دخل المكاتب. يعني الواد دا جه القسم عمل حاجة في الجهاز هنا.. وفيلم لؤي دا كان شُغل سَحَرة.. توجيه نظر الناس في ناحية.. عكس اللي بتحصل فيها الخدعة الحقيقية.

واعتدل ليسند ظهره على كُرسيه، الذي احترم الصمت الذي هبط على المكتب ولَم يصدر أي صرير على غير عادته، حتى قطع الصمت رنين هاتف شريف، فمَدّ الأخير يده ليُخرسه، ويسأل:

- يعني انت عاوز تقول إن الواد دا جه عمل الفيلم دا كله عشان يعمل كشف على حد؟

- أكيد لأ يا شريف، أجاب وائل بضيق.

- طب وهو جهاز الكشف دا بيعمل إيه غير كدا؟

أسند وائل مرفقيه على المكتب، وقال:

- بالظبط.. عشان كدا كَلّمت كريم فاضل اسأله.

- وقالك إيه؟!

- قالّي الجهاز دا... وأخرج مُفكرته، وفتحها على صفحة "الاقتحام" وقرأ:

- الجهاز دا اسمه "نهاية طرفية" متوصل بشبكة داخلية.. الشبكة اللي متوصل بيها دي شبكة مقفولة.. مالهاش مدخل غير عبر أجهزة الكشف في الأقسام والمطارات وبس.

باختصار.. ما حدش يقدر يدخل على الشبكة دي.. غير الأجهزة المتوصلة عليها وبس، يعني اللي عاوز يدخل الشبكة دي لازم يدخل من خلال واحد من أجهزة الكشف.

أخرج شريف سيجارة من علبته وأشعلها، ثم نظر إلى راضي لثانية واحدة، ثم نظر إلى وائل، وقال:

- ماتُطلب لنا قهوة يا وائل بيه عشان نصحصح.

نظر وائل صوب راضي، وكأنه يراه لأول مرة، حيث كان قد نسي وجوده، في

وسط موجة الحماس التي اجتاحته عندما بدأ يسرُد تفاصيل الخيوط الجديدة التي فكّر بها. ثم قال:

- إيه يا ابني اللي موقّفك هنا كل دا؟

فتح راضي فمه ليُجيب، ولكن وائل أكمل، لأنه في الحقيقة لم يكُن يسأل راضي، وإنما كان يسأل نفسه:

- خلاص روح انت.. وقول لمحمود يعمل لنا اتنين قهوة.

فحيّا راضي ضابطه، وغادر، فلاحقه وائل قائلًا بصوت عالٍ حتى يصله:

- من البُن بتاعي. ثم نظر إلى شريف، وأكمل:

- فهِمت بقى؟ الواد دا جه عشان يدخل على الشبكة، واستغل وجود لؤي هنا عشان يوجّه نظرنا بعيد عنه.. وما حدش يتوقع السبب الأساسي من اقتحامه.

نفخ شريف دُخانًا كثيفًا من سيجارته، ومسح جبهته، وكأنه يُخلي مكانًا في عقله، لهذا السيناريو الغريب جدًّا، وقال:

- الحكاية دي لَفّت دماغي يا وائل بيه.. دا شغل أفلام چيمس بوند، مين اللي ممكن يعمل كدا؟ وليه؟ دخول الشبكة دا مهم في إيه؟ معقول هيعمل كل دا عشان يكشف على مُتَّهم؟ ولا الجهاز دا بيعمل غير كدا واحنا ما نعرفش؟

سحب نفس من سيجارته، وكان الرائد يشعل سيجارته، فأكمل النقيب:

- ولو التفسير دا صح.. طب راح أخد فلوس ليه من رامز جلال طالما عمل اللي هوّ عاوزه.

- غالي، جلال دا ممثل.

ابتسم شريف، فأجاب وائل:

- راح لرامز عشان يكمَل الفيلم ويتحبِك. أما بخصوص باقي الأسئلة.. دي اللي لسَّا ما فيش عليها إجابة.

- طب وكريم قال لك إيه؟

- كريم قالي الجهاز دا ما بيعملش غير الكشف الجنائي.. والنهاية الطرفية دي ماينفعش تعمل أي تغيير ولا تعديل في قاعدة بيانات المعلومات الأساسية، يعني تدخل تشوف بس.. لكن ما تعدّلش ولا تضيف ولا تحذف.

- يعني انت تقصد إنه جه هنا وعمل كدا دا عشان يكشف على متّهم بس؟ معقول؟!!

قال وائل بضيق:

- لأ طبعًا يا شريف.. ما كان عمل فيش أسهل، هوّ عمل حاجة.. بس لسَّا ما اعرفش هي إيه، وسرح قليلًا، دخل خلالها محمود بالقهوة، وخرج، وتقريبًا لَم يلحظه الرائد.

- مش شايف يا وائل بيه إن الحكاية دي واسعة شوية؟

- هي واسعة.. ولسَّا ماعنديش حاجة صلبة اقدر ابني عليها استنتاج قاطع.. بس انا واثق من اللي باقوله.

استنشق رائحة القهوة في يده، ورشف منها رشفة، ملأت فمه بالبُن، وأكمل:

- في قضايا يا شريف.. بيكون عقلك الباطن.. أو لاوعيك عارف إن وراها أكتر من اللي ظاهر.. بس بتكون مش قادر تمسكه. أنا من يوم الاقتحام وانا متأكد إن القصة دي وراها أكتر من نصباية برُبع مليون جنية.

أعاد شريف فنجانه وأجاب بلُطف زائد حتى لا يُهين رائده:

- بس يا وائل بيه ساعات لاوعيك بيكون غلط، وتجنّب النظر إلى الرائد.

تغيّرت ملامح وائل وتعكّرت، وقال في حدة حاول كبحها:

- تقصد قضية القتل بتاعة الأقصر؟ انت بتحك...

رفع شريف يده مُعتذرًا، وقال موضحًا:

- والله يا وائل بيه ماقصدّت حاجة بعينها.. أنا بس بق...

- بُص يا شريف.. قضية القتل اللي بتتكلم عنها دي ساح فيها دم راجل بريء وراح هدر عشان اللي اتحبس فيها بريء.. عشان الوزارة فيها ناس درجة خيالها نفس درجة خيال الكُرسي اللي انت قاعد عليه.

كنت محتاج شوية وقت.. بس جات التعليمات "لو ما فيش دليل قاطع ضده ما لكش دعوة بيه" عشان البيه كان أبوه تاجر آثار قد الدنيا وكان مدوّرها.

فمن فضلك ماتجيش تعمل فيها فاهم.. وتسمع من بعيد.. وتحكم على قصة انت ماتعرفش الحد الأدنى من تفاصيلها.

كان الرائد وائل قَد حَقق في قضية قتل، عندما كان يخدم في الصعيد، في الأقصر تحديدًا، كانت القضية، من النظرة الأولى، تبدو سهلة وواضحة،

كأنك في امتحان، نسي واضعه، وأرفق ورقة الإجابة النموذجية مع ورقة الأسئلة.

اشتبه وائل في القضية، على عكس رئيسه المباشر، وكل من عمل على القضية، أو علم بها، فاستثمر الكثير من وقت فراغه، ومجهوده، مُخالفًا تعليمات رؤسائه، واستجوب كثيرين، حتى انتهت به تحقيقاته إلى الاشتباه في أحدهم، سالم النجيدي، وعندما بدأ محاولة استجوابه، بخصوص مكان تواجده وقت وقوع الجريمة، وعن تفاصيل علاقته بالمجني عليه، بدأ هجوم كل من علم بالأمر عليه، وكأنه ساحرة قُبض عليها متلبسة تمارس السحر أو الشعوذة من قِبل الكنيسة في أوروبا أثناء عصور الظلام، وكان ينقُص حرقه حيًّا حتى تكتمل الصورة الكلاسيكية، حيث اتُهم بالتوهم، ثم التهور، ووصلت قائمة الاتهامات إلى الحقد على الشاب الرائع، الذي يشتبه فيه، لما يملكه من مال ونفوذ في المدينة، ويمثّل كل ما لن يكونه النقيب - رتبته وقتها. فانصاع النقيب مُضطرًا، وترك القضية، وإن لم يتركه إيمانه بأن العدل لم يتحقق، بل العكس تمامًا.

وبعدها بأسابيع، في إحدى الليالي كان يخدم في أحد النقاط الأمنية على الطريق، مَرّ من خلاله هذا الشاب، الذي كان الضابط واثقًا من أنه قاتل، أو مُحرِّض على أقل تقدير، أفلت من عقوبة يستحقها، فحدث بينهما شجار تطور إلى تعدّي الضابط على الشاب بالضرب، مما تسبب في إيقافه عن العمل، وتحويله للتحقيق، ومن ثم نقله من المدينة بأسرها.

وكانت القصة المتداولة داخل أروقة الوزارة، أن الحقد هو سبب كره الشاب الأرعن ممثل القانون، للشاب الصعيدي، الذي كان متسامحًا ولم يُقاضي الوزارة بعد أن تعدّى عليه الضابط بالضرب، وكانت تلك الحكاية تثير وائل عند الإشارة إليها، ولو بشكل غير مباشر.

استمع شريف لتعنيف رائده صامتًا، وانتظر حتى أفرغ شحنة غضبه، ثم أجاب بهدوء:

- تمام يا وائل بيه.. بس انا فعلًا ما كنتش اقصد حاجة بعينها لما قُلت إنك ممكن تكون غلطان، انت اللي فهمت غلط.

بس طالما فتحت السيرة دي.. تعالى نقفلها، انت أذكى من إني أجاملك واضحك عليك، بصراحة كدا أنا مش مقتنع بالقصة اللي انت كنت مقتنع بيها وقتها.. ومقتنع إن القضية اتقفلت صح.. بس قناعتي دي مش هي الصح.. دي قناعتي أنا.. مش بافرضها عليك.. وانت ما تفرضش قناعتك عليَّ.

بس دا كله مالوش دعوة بقضية الاقتحام.. مش معنى إنك كنت مقتنع بحاجة وطلعت من وجهة نظري غلط.. يبقى انت هتبقى غلط في كل القضايا، أنا عارف وانت عارف إنك ظابط شاطر وكُفء.. وبرضه عارف وانت عارف إن طالع عليك سمعة في الوزارة إنك لما بتسيطر عليك فكرة مش بتشوف غيرها، بس أنا مش مصدق السُمعة دي، لأني اشتغلت معاك

وعارف طريقة شُغلك، فسامحني لو كلامي اتفهم غلط.. بس صدقني أنا مش باحكم عليك من كلام حد.

بقي وائل جامدًا لثوانٍ ينظر إلى النقيب، ثم قال بصوت جامد:

- تمام يا شريف بيه.. بس لمعلوماتك.. الواد اللي اتحبس دا ما قتلش.. الواد دا بريء.. أنا استجوبته.. ما كانش بيكدب.

- يا وائل بيه يا وائل بيه.. بريء ازاي بس؟ دا هجّام وسوابق.. واتمسك بالحاجة اللي مسروقة من شقة القتيل.

- ماهو انت مش هتفهم.. القضية كانت فيها حاجة غريبة.. زي ما تكون سهلة وخلصانة زيادة عن اللزوم، صمت لثوانٍ وتنهّد بضيق، ثم أكمل:

- ما لوش لازمة الكلام عمومًا.. ولا انت هتقتنع.. ولا أنا عندي دليل على نظريتي، بس هتفضل القضية دي نُقطة سودا في تاريخي، مش عشان اتعاقبت واتنقلت.. لكن عشان سِبت واحد بريء يتحبس ظلم، ومش هاسامح نفسي.. ومش هاسمح لنفسي أكرر الغلطة دي تاني.. عشان كنت ضعيف.

- عمومًا ربنا ما بيسيبش.. وانت ما تقدرش تمسك كل المجرمين.. كلنا عارفين القاعدة دي.

- صح.

بقيا صامتين لدقيقة كاملة، ثم قال وائل في محاولة مكشوفة لتغيير الموضوع:

- فين تقرير الطب الشرعي بتاع الست اللي انتحرت؟

- لسَّا ما خلصش.

- أمال انت قُلت لي إيه خلص لما اتصلت بيَّ على موبايل مَيْ؟

- صور مسرح الجريمة.. وفي كمان تسجيل الكاميرات اللي في بيته.. على CD.

التقط الرائد الملف، وقال:

- طيب سيب قصة الواد بتاع الاقتحام دا لحد ما يرُد عليَّ كريم.. قال لي هيشوف حاجة كدا ويرجع لي.. يمكن اكون غلطان فعلًا، وعاوزين نقفل القصة دي، مش جوزها هييجي بُكرة؟ ونقر على الملف الذي فتحه وبدأ يتصفّحه، ثم أكمل:

- النيابة هتعاين الشقة إمتى؟

- بكرة.

- تعرف مين وكيل النيابة اللي مسكها.

- أحمد سامح.

أمسك الرائد هاتفه، واتصل بخطيبته، وقال:

- طب كويس، ثم زَفر بضيق، عندما أجابته، السيّدة التي تحطّمت على جدار صوتها الآليّ، الفاقد للرحمة، ملايين محاولات الاتصال، راجية إيّاه أن يحاول "الاتصال في وقت لاحق" لأن هاتف مَيْ "رُبما يكون مُغلقًا".

كان وائل يعلم أنه، من وجهة نظر خطيبته، قد أخطأ خطأً فادحًا، وكان يعلم أن عقابه سيكون عسيرًا، وتأكد أن أولى مراحل العقاب قد بدأت،

عندما وجد هاتفها مُغلقًا، فمراحل العقاب تبدأ بالاختفاء، وتنتهي بال "خناق". وتمُر بين تلك المرحلتين، بالصمت، ثم التجاهل، ثم الاستفزاز، ثم الهجوم، وكان يعلم الرائد أيضًا، إنه لَم يُخطئ، فالقيام بعمله على أكمل وجه، يقتضي أحيانًا التقصير في باقي مهامه العادية، وكان يرى هذا التصرف طبيعيًّا، ويجب أن يكون مقبولًا لدى خطيبته، فهو لَم يخدعها بأنه يعمل كموديل مثلًا، هيّ تعلم وظيفته، ومسؤولياتها، لأن تقريبًا كل رجال عائلتها من ضباط الداخلية، ولكنه أيضًا كان يعلم أنه لا مكان لوجهات النظر في النقاش بين الرجل والمرأة الغاضبة.

فالمرأة الغاضبة كالبحر الهائج، والمركب لا يمكنه إقناع العاصفة أن رحلته على قدر كبير من الأهمية، لتتركه يمُر بسلام.

ضغط الرائد زر استدعاء راضي، وهو ينتزع هاتفه من الشاحن بضيق، وقال لمعاونه:

- طب أنا مضطر امشي.. عشان عندي عاصفة في الأفُق.. هاخد الملف دا أراجعه في البيت. حيث أراد أن يتجنب مشاهدة الدماء خارج غُرفته، فهو يُفضل ألا يُصاب بالتوتر والقلق إلا وهو بمفرده، فأومأ شريف.

- ولو فيه حاجة هاكلّمك. أضاف الرائد.

لاحظ الضيق على ملامح النقيب، خاصة وأنه استدعاه بالفعل ليعود إلى القسم منذ قليل، فقال:

- نتكلم بُكرة.. نتكلم بُكرة، ليلتك جميلة يا شريف بيه، وابتسم، ثم نظر لراضي الذي انتصب في منتصف المكتب:

- ما تجيبش سيرة عن حكاية الكمبيوتر دي لحد.. لحد بس ما نشوف إيه الحكاية، وابق... وقطع كلامه عندما لاحظ سحابة ارتباك غطّت ملامح مُجنّده، فسأل بضيق:

- قُلت لمين يا راضي؟

- سعادتك ما قُلتليش إن الحك...

- يا ابني قُلت لمين؟ بنفاد صبر.

- الأُمناء ياسر ومجدي يا وائل بيه.. ومحم...

- خلاص خلاص.. مش ناقص غير تامر أمين في البيت بيتك عشان مصر كلها تعرف.. ربنا يتوب علينا من الشُغلانة دي، نبّه ع المصايب دول ما حدش ينطق، ولكنه كان يعلم أن محاولة منع تسرب المعلومة بعد معرفة الأُمناء، هي بالظبط كمحاولة إيقاف موجة بحر عاتية بذراعيه.

وغادر مكتبه حاملًا الملف الذي يحوي صور وتسجيلات مسرح الجريمة، في اتجاه بيت خطيبته، ليختصر الزمن، ويمُر بمراحل العقاب صاغرًا راضيًا.

ولَم يعلم وقتها، أن هذا الملَف سيتسبب في عاصفة، ستجتاح حياته، وتقلبها كلها رأسًا على عقب، لا تُشبه، بأي حال، تلك التي يعلم أنه مُقبل عليها في منزل خطيبته.

* * *

مذكرات

٥

سألت نفسي كثيرًا: هل هناك من تستحق كل هذا العشق؟ حتى جاءني الجواب في رؤياي: أن اطمئن، لن تُعشق بهذا القدر من لا تستحق.

لعلّها رؤية مُزيّفة، اختلقها عقلي الباطن، ليبقيني على قيد أمل معدوم، ولكنني لا أمانع، فأنا أعلم أنه لا توجد انتصارات في العشق، فقط هزيمة، عن طيب خاطر، تلو الأخرى، وأنا المهزوم دومًا.

كنت دائم القول: "لكُم واقعكم.. ولي أحلام"

لم يلفت نظري في الواقع الكثير. ثُم جَاءت هيَ، وأعادَت تَعريف كُل شيء.

كانت هيّ الواقع الذي تُترك من أجله الأحلام..

لم أنتظر منها يومًا، سوى أن تبقى في مجال رؤيتي.. رؤيتها تكفي.

كانت مُجرد مشاهدتها، ولو من بعيد، تفعل أي شيء، أو لا شيء،

جنّة.

الحياة لمن عَشق.. لَم يولد، ولَم يحيَ، من لَم يعشق حَد الجنون، ولَم يَمُت.. فقط جاء وبقي ورحل.

وأنا عشِقت، ولكنني لَم أحيَ.. أنا مِتُ لحظة ميلادي..

وباقٍ إلى حين.

* * *

٢١

ضغطت مريم، وهي داخل شُرفتها، زر العمل في ريموت المروحة، ذات القائمة الواحدة الطويلة، المُسمّاة "ستاند"، والتي قررت أن تستعين بها على الحرارة، والبعوض.

فكّرت في أن كُل شيء أصبح له جهاز تحكم عن بُعد، كل شيء، فحتى البشر، منهم من هو يعمل وفق إشارات من جهاز تحكم عن بُعد، في يد أحدهم، دون تمييز، ولا إعمال للعقل، ويظنّون أنهم جماعة، وهُم قطيع، ويظنون أن اتحادهم قوة، ولكن الاتحاد يعني إضافة قيمة الفرد للجماعة، لتعلو، وتشتد.

ولكن ما يحدث هو إلغاء الفرد لنفسه، ليتحوّل إلى نسخة متكررة من ملايين غيره، هذا ما يحدث في كل الجماعات التي تلغي الفرد، لمصلحة مشروع، يخدم في الحقيقة بعض الانتهازيين.

كانت مريم قد قررت أن تبدأ في قراءة الرواية، التي تركها لها الساحر المجهول، ولكن روحها، لسبب ما، كانت ترفض الجلوس على سريرها، في برودة التكييف، وظلام الغرفة الكئيب المُعتاد، كانت تشعُر أنها تريد أن تخرج وتنطلق، فرأت أن الشُرفة قد تكون حلًّا مقبولًا.

لَم تعلن لنفسها، بأن رغبتها في الخروج، واعتدال مزاجها، لهما أي علاقة، بالساحر المجهول، فتلك الحركة كانت لها على روحها، نفس تأثير الشروق على أرواح العصافير النائمة الآن في أنحاء الحديقة أمامها.

تجاهلت الأمر، وكأن تجاهل الأمر ينفيه، فهي كانت تخشى التعلُق، كما تخشى الأطفال من غرفة الفئران، فمُنذ فقدت والدها، أحب مخلوق إليها إلى جانب أمها، أقسمت ألا تتعلق بأحد مُجددًا، فألم الفُراق أشد من أن تتعرض له مرة أخرى، فآثرت السلامة وقررت تجنب مخاطرة التعرض له، فلن تحتمل روحها فقدان عزيز آخر.

دخلت أمها إلى الشُرفة وسألت متعجبّة بسُخرية واضحة:

- من إمتى يا مشمش بتشغلي المروحة؟ وقاعدة في الحَر؟ ما لك يا بنتي؟ فيكِ إيه؟ انتِ سُخنة؟

ضحكت مريم بمرح، وقالت:

- يووه يا ماما.. يعني اقعد اقرا في الأوضة تقولي هيجيلك اكتآب من الضلمة والحبسة.. أخرج البلكونة مش عاجبك.. أعمل لك في نفسي إيه؟ ووقفت إلى جوار أمها وأسندت مرفقيها على سور الشرفة مثلها، فقالت الأم وهي تميل ناحية وحيدتها بكتفها:

- طيري يا بت.. عاوزاكِ تطيري من هنا زي العصفورة على بيتك.. هاموت قبل ما اشوف عيالك.

- ربنا يديلك الصحة يا ست الكُل.. بس ما فيش طيران.. أنا عاجبني القفص دا، ولفّت يديها حول كتف أمها، ونظرت، دون وعي منها، صوب الرواية التي تركتها على الكُرسي، عندما فتحت والدتها سيرة ارتباطها.

- كلهم بيقولوا كدا في الأول.

- ماشي لما نشوف يا عمرو دياب انت يا صغنن، غازلت أمها.

ضحكا بمرح، لم يقطعه سوى مرور سيارة نقل مزعجة تحت الشرفة، ثم عادت المنطقة لهدوئها الساحر، فقالت مريم:

- مش عارفة ليه حاسة إن نفسي أنزل أروح اتمشى ع البحر في اسكندرية. وتنهّدت دون قصد.

اعتدلت الأُم، ونظرت إلى مريم، لثوانٍ متفحصة إيّاها، ثم قالت بخفوت:

- مريم.. في إيه؟

- في إيه في إيه يا ماما؟ حاولت مريم أن تتجنب الارتباك، فتملّكها.

- انتِ فيكِ إيه؟ قالت الأم والابتسامة تتسلل إلى ملامحها.

قاومت مريم الابتسامة التي جاهدت لتعلو وجهها، ولكن الدماء اندفعت إليه، لتشعر هي بسخونة تفوق حرارة الجوّ تنطلق من وجهها، وقالت وهي تراوغ عين أمها التي شعرت وكأنها تنظر إلى روحها ذاتها:

- والله العظيم ما في حاجة.. الدنيا صيف.. وعاوزة اروح البحر.. فيها حاجة دي؟ ثم حاولت أن تبدو وكأنها أمسكت بزمام الأمور، فقالت:

- بلاش حركات المفتش كرومبو دي.. انتِ بتتلككِ؟

- ماشي.. براحتك. بس بكرة تيجي تتحايلي عليَّ عشان تحكي لي.

- يووه.. خليكِ انتِ مصدّقة كدا. والله...

قاطعتها أمها وابتسمَت بخُبث، وقالت:

- من غير حلفان.. خلاص.. مصدّقاكِ. كَذَبت الأم.

ثم دارت واتجهت إلى الداخل وهي تقول:

- أنا جوَّا باتفرج ع المسلسل... وصمتت لثوانٍ، ثم قالت:

- لو عاوزة يعني تحكي لي حاجة كدا ولا كدا.

دارت عينا مريم في محجريها، وقالت:

- يوووووه بقى.

فضحكت الأم وغادرت، وهي على يقين أن هناك جديد في حياة ابنتها، وأنها سوف تشارك أمها إياه عندما تكون على استعداد.

أخذت مريم الرواية، وضحكت وهي تجلس، وهزّت رأسها بخجل، وكأن أمها أمسكتها متلبّسة بجريمة ما، ثم فتحت أول صفحاتها، وقرأت، كالعادة، الجملة التي كتبها الساحر، وابتسمت كما تفعل كل مرة. وغابت في تخيّل

هذا الشخص وهو يكتب لها هذه الجُملة. هل هو شخص تعرفه؟ هل أعَدّ تلك الرواية لإهدائها إيّاها؟ أم كان قرارًا لحظيًّا من شخص لا يعرفها؟ ولكنه كتب عن كآبة "الطاعون". من يعلم أنها تقرأ "الطاعون"؟ وهي بدأت في قراءتها في نفس اليوم الذي أبدلها فيه. فهي لم تخرج بها قبل تلك المرة. هل كان يراقبها؟

رفعت رأسها، تلقائيًّا، عندما تخيّلت مراقبته لها، ونظرت حولها، إلى العمارات التي تقع في مُحيط الحديقة التي تطل عليها شُرفتها.

"هل يمكن أن يكون هناك، خلف أحد تلك النوافذ يراقبني؟"

وكأنها شعرت به، فقد كانت على حق تمامًا.

* * *

٢٢

- ألو. أجابت أسماء اتصال عماد.

- أيوة يا سمسم. جبت شوية تفاصيل عِنب عن موضوع القسم، ها؟ هتعرفي تظبطيني وننشرها على الـ facebook زي ما وعدتيني وانتِ مسطولة؟

- يا راجل؟ طب باقول لك إيه.. أنا لسًّا راجعة من برًّا.. كنت في مقر الحركة طول النهار وهاموت من الفرهدة. هاخُد دُش سريع واكلمك.

- بدأنا الحركات القرعة.

- القرعة دي تبقى أمك، باقول لك دقايق.. مش بَاقلِبَك. أنا خلاص قلعت مش هاعرف اتكلم دالوقت بس.

فابتسم وقال بخُبث:

- طب آجي؟

- لا لا.. لما اخلّص هاكلمك في التليفون مش هاقدر انزل تاني، لَم تُلاحظ نبرته الخبيثة من شدة تعبها، فوضّح:

- لا أقصد آجي آجي.. أصل اللي يقلع لوحده يبرَد.. وانا ما يخلّصنيش.

- تصدق أنا غلطانة إني باخذ وادّي معاك في الكلام. وضحكت.

- خلاص خلاص.. بس ما تتأخريش.

- أقول لك؟ ابعت لي القصة ع الميل على ما اخلّص. وانا هاشوف هاقدر اعمل إيه. يارب بس يبقى فيها حاجة تستاهل.

- عيب عليكِ.. دي هتبقى قنبلة.

- لو قنبلة فعلًا.. يبقى اتطمن، سلام بقى، وأغلقت الخط.

أغلق عماد الخط ونظر إلى الشارع من خلال نافذة سيارة الأجرة التي استقلّها من عند القسم منذ دقائق، وأخذ يتابع الناس في سعيهم المحموم، كلٌّ نحو هدفه.

تذكر عماد عندما كان يجلس على سطح عمارة كان يسكنها صديق له، في بلدته الصغيرة، ويتابع الناس، كانت تلك العمارة تطل على محطة القطار، فكان يجلس هناك صامتًا، يتابع الناس، وقت وصول القطار، ويتخيل قصة كل منهم، كانت تفتنه حقيقة، أن لكل واحد من هؤلاء قصة لا علاقة لها بقصص المئآت من البشر الذين هُم حوله الآن، ولكن جمعتهم لساعات قليلة رحلة قطار واحدة.

انتقلت ذاكرته لحاضره دون استئذان، فلحظات التأمل هي التي تختارنا، وليس العكس.

تذكر كيف بدأت تلك القصة التي يحقق فيها حاليًّا. كان يؤمن بأن الأقدار لها يد فيها، وكان يعلم أن تواجده في مكان وقوع الحدث، وقت وقوعه، هو من تدبير القدر، فأبى أن يردّه، أو يرفض هديّته، وبعد فشله في القيام بعمله بالطريقة الطبيعية، لاعتبارات ومواءمات لم يبتلعها، قرر أنه لن

تمنعه تلك العقبات من توصيل الحقيقة إلى الناس، هؤلاء الناس الذي يراهم كأطياف يمرّون إلى جوار السيارة التي يستقلّها.

شَعر بغصّة في حلقه، لأن قصّته لن تخرج تحت اسمه، ولكنه فضّل خروجها إلى النور يتيمة، عن السماح لهم بقتلها في مهدها.

أحيانًا يختارنا القدر لأداء مُهمة مُعيّنة لأسباب لا نعلمها، وقتها وحده الإيمان يدفعنا إلى القيام بها، فقط علينا أن نؤمن أن هناك من يُدبّر، ويُسخّر، ويُسيّر.

فربُما لن يعلم الناس أنه صاحب القصة، ولكن على الأقل ستخرُج القصة.

"ومن يعلم؟ فهل كانت تعلم السيّدة يوكابد أُم النبي موسى عندما ألقت برضيعها إلى البحر أنه سينجو؟ هل كانت تعلم أن الله قدّر لهما أن يجتمعا مُجددًا بعد أيام لتُصبح مُرضعته؟" فَكّر.

كان عماد يرى نفسه كصحفي، وليس مجرد ناقل للخبر، وكان يعتبر الصحافة رسالة، وليست مجرد مهنة. والصحفي الذي يحترم نفسه، يهمّه في المقام الأول، وصول الحقيقة للناس. حتى وإن لعنوه على قُبحها، كما قال له رئيسه.

وكان هناك سبب آخر يدفعه للقيام بنشره القصة بأي طريقة، فتلك القصة هي التي اعتبرها انتقامه الخاص من رئيسه في العمل، ومن العقيد "مجدي نور"، وعقابًا لهما على الظلم والخيانة الذي كان يشعر بأنه تعرّض لهما.

حتى ولو الوقت لم يحِن بعد، لنشره التحقيق باسمه كما يتمنى، فلا مانع من التخفّي مؤقتًا، وعدم حصوله على الثناء كاملًا، ولكن انتقامه، كان لابد له أن يحدث.

فالتلاعب بحلم وطموح شاب، نظير مصلحة شخصية، هو في نظره جريمة لا تُغتفر. وهي للأسف تحدث يوميًا آلاف المرات في دولته، بسبب سوء حالة معظم شبابها المادية، وانحطاط الكثير من شعبها أخلاقيًّا.

انتقل وعيه مُجددًا، وتذكر الشاب المُجند، الذي أقنعه عماد منذ دقائق، أنه اسمه أحمد، ويعمل كسائق في شركة دعاية وإعلان، وشركته لها عملاء في شركات الاتصالات، والسجائر، وخلافه. وكيف أقنعه أنه يحصل على كروت الشحن، وعلب السجائر، مجانًا. وأهداه كروت شحن هدية، لأنها ليست خاصة بالشركة التي يتبعها رقم هاتفه، و "حرام هتترمي" حسب رواية عماد، وأقنعه أنه لا يدخن المارلبورو الأبيض، التي يتحصّل عليها دائمًا كهدايا مجانية، و "حرام بتترمي برضه". ثم سأله عن موعد تواجد ضابط المباحث، لأنه أراد أن يسأله بشكل ودي عن كيفية تعامله مع حالة بها شبهة سرقة في عمله. وبذكاء انتقل من قصّته، إلى تلك القصة التي نُشرت عن القسم.

- يا نهار أبيض.. مش دا القسم اللي حصل فيه ضرب الغاز والدنيا كانت مقلوبة عليه من كام يوم؟ ياه يا ابن عمي!! وانت كنت هناك؟ جرالك حاجة؟

هكذا نقل الحديث إلى حيث أراد، بعدما اكتسب ثقة المُجند، ودون أن يلاحظ العسكري أن هذا هو غرضه الرئيسي، وعلِم منه تفاصيلًا مهمة وخطيرة عن حالة "الاقتحام".

كان واثقًا أن قصة التدريب، التي ألقاها العقيد في وجهه، ما هي إلا تغطية على قصة حقيقية، تنتظر من يكشف عنها الحجاب، وها هو قد فعل. وحصل أيضًا بالصدفة على خبر يصلُح لصفحة الحوادث، سيفيده، حتى يُشعِر السيّد كمال حجاب أنه تخطى مشكلته معه، وعاد لممارسة عمله بشكل طبيعي.

كان يتمنى أن تستطيع أسماء مساعدته في نشر قصّته التي كان يعلم أنها ستكون مُزلزلة إعلاميًا، وتمنى أن تتمكن من نشر إشاعة أنه هو صاحب القصة، فهو بشر في النهاية، وتفتنه الشهرة والاهتمام اللذان سيحصل عليهما بعد نشر القصة.

"هل قُمت باستغلال الشاب راضي كما فعل معي كمال حجاب؟" سأله ضميره.

"وهل من سبيل للقيام بالعمل بنظافة في هذا الوسط القذر؟" أجاب.

"وهل هذا المُبرر كافيًا للقذارة؟"

"وهل في أثناء محاولتي الانتقام من كمال.. تحوّلت إلى كمال آخر أستغل حاجة شاب إلى مكالمة إضافية.. أو إلى سجائر مجانية تعينه على خدمته المملة؟"

"ألم يمتلك كمال من المُبررات ما يشبه تلك التي تجيب بها على أسئلة ضميرك لتُسكته؟"

قطع سائق التاكسي حوار عماد مع ضميره عندما ناوله سيجارة من علبته، فرفض عماد بهمهمة غير واضحة ولكنها كانت واضحة بما يكفي للسائق ليسحب يده، ويسأل:

- هاضايقك لو عفّرت؟

- لا لا براحتك. أنا بادخن أصلًا بس ما ليش مزاج.

- ما لكش مزاج؟ ولا السوبر مش كيفك؟ ماهي أصلها أمزِجة يا حضرت.

نظر عماد إلى السائق الخمسيني، وجسده الضخم، ولم يُعلّق، فاكتفى السائق بما قيل، وصمت. ليبدأ عماد كتابة القصة على هاتفه، بعد أن قطع السائق، مشكورًا، حواره مع نفسه.

* * *

يكفي أن تبذل كل ما في وِسعَك، حتى وإن لم يكفِ.

٢٣

عاد الرائد إلى منزله، بعد أن مَرّ على منزل خطيبته، التي رفضت مقابلته، فأدرك أن مرحلة الاختفاء ما زالت قيد التنفيذ، وفشلت محاولة تسريع الأمور التي قام بها. ودفع ثمن محاولته الفاشلة، عبر اضطراره لمُجالسة والد خطيبته، لمدة ساعة، وسماعه عن خبراته التي اكتسبها بعد سنوات فاقت الأربعين من الزواج، وبعد اعتذار الأُم له لأن "البنت رجعت من برَّا تعبانة ونامت" حسب قولها.

ثم اضطر إلى أن يجيب على أسئلة سيادة اللواء، بخصوص قضية الاقتحام، وسماع ترحُّمه على أيام هيبة الوزارة، والذي يُفهم منه ضمنيًّا، أنه هو - الرائد- ومن على شاكلته، من الضباط فاقدي الكفاءة، والقوة الكافية، سبب ضياعها.

- على أيامنا كان لما واحد بيجيب سيرة الوزارة وهو في بيتهم ومستخبي تحت السرير.. كان بيبُص حواليه، دالوقت العيال بتبقى ناقصها تلبس طُرح.. وبيطلعوا في القنوات العميلة يشتمونا.. طبيعي تتجرّأ المُجرمين علينا، وآدي بدايتها أهي، وتنهّد بضيق هازًّا رأسه تحَسُّرًا.

- بس يا افندم الولد دا مش مُجرد مُجرم ولا نصّاب عادي.

ندَم وائل على نُطقه لهذه الجُملة بمُجرد خروجها من فمه. ولكن استفزاز

"حماه المستقبلي" له كان يفوق قُدرته على ادعاء التحمّل.

كان يعلم جيّدًا كيف سيستقبل اللواء نظريته، وكيف سيسخَر منها، وبأي ملامح وجه سيستعين ليستخِف به، وصولًا إلى تذكيره بشطوحه المُعتاد في القضايا التي تضعه تحت الضغط، وحدث تحديدًا ما توقّع، حتى استغل وائل مكالمة جاءته من صديق له، ليغادر على عجل، تقريبًا، دون سلام.

أغلق باب الشقة، وحيّا والدته، التي كانت قد فرغَت للتو من صلاتها، وأومأ موافقًا على سؤالها:

- أسخّن الأكل؟

دخل غُرفة نومه، التي كانت مُرتّبة بشكل مقبول، ويعود الفضل في ذلك إلى والدته بالطبع، ترك الملف، الذي يحوي صور وتسجيلات القضية التي يعمل عليها، على مكتب صغير خشبي بني اللون، إلى يمينه، وأغلق باب الغرفة خلفه، كانت الغرفة ضيّقة نسبيًّا، وطويلة، تبدأ ببابها، وتنتهي بباب شرفة تطل على زقاق بين ثلاث عمارات متلاصقة، كالعُشاق على شاطيء الأسكندرية في ليالي الصيف.

مكتب صغير فوقه جهاز كمبيوتر عجوز، وتعلوه مساحة عارية من الحائط المطلي باللون الأبيض، الذي اصفرّ قليلًا بفعل الزمن، غُرزت فيه دبابيس عديدة بدون تنظيم، تبدو كالنّمَش الذي يعلو الوجه، ولكنه اختار بقعة واحدة وانتشر بها، وسرير يكفي لشخص واحد، تسِدّ زاويته ضلفة باب

الشرفة اليُسرى، وتُستخدم اليُمنى فقط على ما يبدو، تعلوه - السرير- مكتبة حَوت من الروايات البوليسية عددًا لا بأس به، وبعض كتب القانون، والكثير من مغامرات رجل المستحيل وما وراء الطبيعة، ودولابًا بنيَّ اللون كلون المكتب، التهم الحائط خلف كرسي المكتب الملاصق إلى المكتب.

فتح أزرار قميصه، ثم نظر إلى الملَف وكأنه ناداه، فلم يُقاوم، وفتحه وأخرج الصور ببطء، على عكس وتيرة أنفاسه التي تسارعت، رغمًا عنه، كما اعتاد عند رؤية الدماء.

تحكّم في سرعة أنفاسه، وحاول أن يتنفس ببطء، وساعده تجنُّب النظر مباشرة إلى الدماء. التقط الصور، واحدة تلو الأُخرى، وثبّتها على الحائط أعلى المكتب مستخدما الدبابيس التي كانت تنتظر دون عمل، حتى جاءها.

بدأ يتذكر جوّلته في تلك الشقة، مُستعينًا بالصور التي أمامه. هدأت أنفاسه حتى عادت، تقريبًا، إلى مُعدلها الطبيعي، عندما غاب وعيه، وغادره في رحلة إلى الشقة.

رتّب الصور في صفوف فوق بعضها، بدأ بصور الشقة؛ طُرقة المنزل ضيّقة، إلى اليسار حمام الضيوف، وإلى اليمين مطبخ مُرتّب، وفي نهاية الممر، هناك أربعة أبواب، اثنان إلى اليسار، وواحد إلى اليمين، وواحد في المواجهة في نهاية الممر، ثلاث غُرف نوم، وحمام.

ثم في الصف الثاني صور الجُثة؛ جثة السيّدة مُلقاة على أرض غُرفة النوم الرئيسية، عند باب الغرفة تقريبًا، يمكن رؤيتها من أول الممر. بُقعة دماء حمراء متجلطة تحت رأسها على الأرض الخشبية فاتحة اللون.

يبدو من وضع الجُثة، ومكان دخول الرصاصة، أنها كانت تقف مواجهة للممر عندما انتحرت. وأنها أطلقت الرصاص على رأسها مُستخدمة يدها اليُسرى، ولا رذاذ دماء على الحوائط يشير إلى خروج الطلقة، التي أنهت حياتها.

ثم صور مداخل ومخارج الشقة؛ لا يوجد للشقة مدخل سوى بابها، وبها شُرفتان، واحدة تطل على الشارع الذي به مدخل العمارة، ولا يجاورها أي شيء، فهي بعيدة وعالية بما يكفي لاستحالة الوصول إليها قفزًا، أو تسلُقًا. والشرفة الأُخرى في غرفة النوم الرئيسية حيث انتهت حياة ربة المنزل، قريبة نسبيًّا من سطح عمارة بجانبها، ولكن المسافة لا تسمح بالقفز منها أو إليها. وكانت الشُرفة مُؤمّنة بقفص حديدي كامل التأمين، ومُغلق من الداخل بقفل صدئ، نظر إلى صور الشُرفة، وتذكر معاينته لها؛ الحديد كله يعلوه الصدأ نتيجة بقائه في الهواء منذ سنوات.

لا توجد أي إشارة، تدل على حتى محاولة فتح تلك الشرفة منذ شهور على الأقل، والنتيجة؛ أن تلك الشقة لا يمكن الدخول أو الخروج منها أو إليها سوى عن طريق بابها فقط.

الباب الذي تعلوه من الخارج والداخل ثلاث كاميرات مراقبة، كانت تعمل بكفاءة وقت الوفاة.

أمسك الاسطوانة المدمجة، وضغط زر التشغيل في جهاز الكمبيوتر إلى يساره، وسمع صوت قرصه الصلب وهو يتمطأ وينفض عنه كسل راحةٍ طالت، فهوّ قلّما يستخدمه، وانتظر أن يفتح الجهاز ليستخدمه.

قطع انتظاره طرقات هادئة على باب غُرفته، فنظر إلى الباب الذي انزاح، وظهرت أمه خلفه، وعندما رأته جالسًا بملابسه، كما جاء، ولكنه حلّ فقط أزرار قميصه، دخلت ونظرت إلى الحائط أمامه، لثانية واحدة، ثم أشاحت بوجهها بعيدًا عن الحائط كمَن رأت شبحًا، وقالت:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. ليه يا ابني كدا؟ جريمة زفت تاني؟

- ما علش يا حاجّة.. القضية دي هتخلص بسرعة.. ما تقلقيش. بس دي مش جريمة زفت لا.. شكلها انتحرت.

- ليه كدا يا بنتي؟ ربنا يسامحها، قالت بحسرة، وهي تهمّ بمغادرة الغُرفة.

- الأكل جهز؟ هناكل سوا.. ها؟

- وانا من إمتى باكل من غيرك يا حضرة الظابط؟ يلا قوم.. الأكل هيبرد. وأغلقت الباب خلفها.

- حالًا، وقالها وهو يخلع عنه قميصه، ويلقي نظرة أخيرة على الصور أمامه. كان هناك شعور خفي يتسلل بداخله، لَم يعِه بالكامل وعي الرائد، أو يفهم له سببًا، ولكنه شعَر بوجوده، كمَن يقرأ قصة عن الأشباح، في ليلة شتاء

مظلمة، ويشعُر بوجود الأشباح حوله، فلا تعلم مدى صِدق الشعور، ولكنه حاضر، وبقوّة.

شعور ذكّره بالمرة الوحيدة التي شعر به قبل تلك القضية التي أمامه.

"القضية دي هتفضل نُقطة سودا في تاريخي"

هاجمته الذكرى.

- سهلة أوي يا سليمان. قالها النقيب وائل وهو يشعل سيجارته، ثم أكمل:

- القضية دي من اللي بيتقال عليها خلصانة، وضغط على كل حرف من حروف كلمة "خلصانة"، ليؤكد على معناها.

- هجّام معروف.. الأقصر كلها عارفة انه هجّام.. دخل شقة المجني عليه بالليل.. كل دا طبيعي جدًّا.. رقّاصة وبترقص.

المجني عليه على عكس ترتيب الهجّام كان صاحي.. فاجأك.. دبحته. شُفت؟ خلصانة. كررها بنفس الطريقة.

بصوت خشن، يحمل غضب مكتوم دافع عن سُمعته:

- يا بيه الغلطة دي يغلطها عيّل شمّام جتته بتاكله على شَمّة.

أنا هجّام آه يا بيه.. بس بقالي ١٢ سنة في الشُغلانة.. ما اطلعش بيت أهله موجودين فيه.

- يا واد يا محترف. سَخَر النقيب وهو ينفخ دُخان سيجارته في وجه سليمان الهجّام.

تنهّد سليمان بضيق كاتمًا غضبه. فسأل وائل:

- طب والحاجة اللي سرقتها من بيت القتيل؟ يعني انت نطيت في الشقة لقيته مقتول؟ ساعدني افهم يا سليمان.

ونظَر إلى عيني الهجّام بحثًا عن أي إشارة لأي شيء ولم يجِد، كانت عينا سليمان كعيون الموتى.

"هذا الرجل يملُك خبرة في الاستجوابات تفوق خبرة قسم الأقصر كله" فَكّر النقيب.

اكتسب سليمان الهجّام سُمعة استحقّها، فكونه هجّامًا معروفًا لمدة تزيد عن عقد من الزمان، في مدينة صغيرة كالأقصُر، دون إدانة واحدة، هو إنجاز يصعُب تحقيقه، اكتسب خبرة التعامل مع ضباط الشرطة والمباحث ووكلاء النيابة، أصقلتها سنوات وسنوات من تواجده في الطرف الخاطئ من تلك الطاولة، التي تشهد على استجوابٍ قد يكون الأخير في مسيرته الحافلة.

فتلك المرة تختلف عن سابقتها.

فهو يعلم أن هذه القضية تبدو "خلصانة" كما أكّد النقيب.

لَم يُجب سليمان، فقرر النقيب تغيير التكتيك الذي يتّبعه.

فقام من مكانه، وفَكّ الأصفاد التي تركت علامتها على يد الهجّام النحيفة السمراء، ثم عاد إلى مكانه، وأخرج سيجارة من علبته، ومدّ بها يده صوب سليمان، وأشعل قداحته باليد الأخرى.

تأخر رد فعل سليمان لثانيتين، لاحت أثناءهما بوادر حياة في عينيه، عندما ركّزها على عيني النقيب، في محاولة لفهم تكتيكه الجديد.

"أخيرًا؟!!" بدأ النقيب يشعر بالأمل، فأكمل بصوت متعاطف:

- بُص يا سليمان.. الراجل اللي انت بِعت له البضاعة لما عرف إن صاحبها اتقتل اعترف إنك اللي بِعتها له.. والرا...

- كدّاب يا بيه.. دي مش حاج... قاطعه الهجّام، فقاطعه النقيب بخبطة قوية على الطاولة، فانتفضت وأصدرت صوت احتكاك قوي بالأرض كأنها تعترض على ضربها، وصرخ النقيب وهو يمسك بالأصفاد مُجددًا:

- أنا غلطان إني باحاول اساعدك.. طول ما انت بتكدب هتتعلق في المشنقة.. انت مش غبي وعارف إن القضية دي خلصانة.. لو هتفضل تكدب هتلبس البدلة الحمرا.

ظَهرت ملامح الخوف، عند ذكر بدلة الإعدام، على ملامح الهجّام لأول مرة. عادت الحياة لعينيه، فظهر خوفه من الموت جليًّا.

قال سليمان بخفوت، وكأنه يقول ما يقول بخلاف إرادته:

- ما عنديش غير الكدب بيه.. أنا لو قُلت الحقيقة ما حدش هيصدقني.

- يعني هو دالوقت حَد مصَدّقك؟

- يعني لو قُلتلك الحقيقة يا بيه هتساعدني اثبتها؟ توعدني؟

أخفى النقيب لهفة جاهدت لتظهر على ملامحه وصوته، وقال:

- مش محتاج أوعدك.. لأن دا شُغلي أصلًا.

- يعني هتصدقني؟ سأل بتحدّي.

أراح النقيب ظهره وهو يطفئ سيجارته في رجل الطاولة لعدم وجود منفضة، وقال بثقة:

- تعرف يا سليمان؟ في ميزة مهمة جدًّا في الحقيقة، وألقى بعقب سيجارته إلى ركن الغرفة، وأكمل:

- الحقيقة ممكن تكون أغرب من الخيال.. بس دايمًا أسهل إنها تتصدق.. عارف ليه؟ ببساطة عشان هي الحقيقة، الحقيقة ليها قوة بتفرض بيها نفسها.

لاح الاقتناع على ملامح الهجّام، فقال النقيب ليُجهِز على أية شكوك قد تمنعه من المُصارحة:

- ساعدني أساعدك.. انت عارف إني الوحيد هنا اللي لسَّا بياخُد ويدّي معاك.

وأوعدك يا سليمان لو بريء من دم القتيل.. وباقول لو.. لو بريء من القتل.. مش هاسيبك تلبسه.

وخَز ضمير الرائد صاحبه لينتزعه من ذكرياته بقسوة.

فهو وَعَد ولَم يَوفِ، ولَم يسامح نفسه أبدًا.

ولَن يفعل.

"هتفضل القضية دي نُقطة سودا في حياتي"

* * *

٢٤

جلست مريم على نفس الطاولة التي تعرّضت عليها لعملية الخداع، والتي لا تزال تؤرقها، فهي لا تعلم أي شيء عما حدث سوى أن هناك من اهتم بها لدرجة أنه أراد أن يُجنّبها "نكدًا" متوقعًا بين صفحات رواية، حسب قوله، فاختار لها أخرى. وهذا بخلاف الوسيلة الساحرة التي اختارها، فكأنها عاشت مشهدًا من أحد الأفلام الرومانسية، التي تجبر دموعها على الخروج عندما تشاهدها.

كانت دائمًا ما تتساءل، هل تحدث مثل تلك المواقف في الحقيقة؟ كانت تعلم أن نعم، تحدث، لكنها تحدث بعيدًا، تحدث مع أشخاص آخرين، ولكنها كانت تؤمن أن هناك من لا يزال قادرًا على الإبداع، والجنون، كانت ترفض في لاوعيها، أو عقلها الباطن، أن تتقبل فكرة أن هذا العالم تقليدي، وكئيب، وباهت، كما تراه.

ولكنها لَم تتصور أبدًا أن تكون طرفًا في حلم، أو عرض سحري كما تسمّيه. فالعالم لم يمهّد لها وجود مثل تلك الشخصيات في مُحيطها، كي تستعد. ولكنها كانت تعلم أن مثل تلك الشخصيات المختلفة، المجنونة، لا تنتظر تمهيدًا، ولا تقترب بخطوات حريصة من الناس، بل تقتحم، وتُذهِل، وتُبهِر، كما فعل معها هذا الساحر.

كانت تحاول أن تمنع نفسها من البحث عنه، وفشلت، فهي منذ غادرت منزلها منذ دقائق تبحث عنه، وتتساءل، هل سيظهر اليوم؟ بل هل سيظهر مُجددًا؟ أم أنه كان عرض المرة الواحدة وانتهى؟ وكانت ترفض التسليم بأن ما حدث هو مُجرد حادث، كالحلم الجميل، ستنساه بعد مرور بعض الوقت، كانت تريد أن تصدق أن ما حدث كان بداية لشيء لن ينتهي.

وكانت على حق، ولكنها لم تكن تعلم ذلك يقينًا بعد.

نظرت إلى يسارها صوب الطاولة التي استقر عليها لدقائق "مساعد الساحر" في عرضه العبقري، كانت فارغة وبدَت حزينة، كأنها، مثل مريم، تنتظر أن يعود صاحبها، لتشارك في عرض جميل لأول مرة، وتنسى، للحظات، إنها مُجرد طاولة مثل أيّة طاولة أُخرى.

وضعت مريم سبابتها اليمنى داخل رواية "قمر على سمرقند" التي بدأت في قراءتها بالفعل، نظرًا لعدم وجود Bookmark معها، مؤقتًا؛ حيث أنها طلبت بالفعل من صديقتها چينا أن تشتري لها أخرى، ومدّت يدها اليُسرى لتلتقط مشروبها الذي يقبع أمامها، ينفخ دُخانه، وكأنه يذكّرها بوجوده، ولكن يدها تسمّرت عندما ظهرت الـBookmark التي اعتادت استخدامها في مجال رؤيتها، مصحوبة بصوت متردد، يقول:

- واضح إنك محتاجة الـBookmark.

رفعت عيناها صوبه، لترى الساحر، هذا الشاب الذي يقف أمامها بثقة، لا تخلو من خجل. ثم نظرت إلى الBookmark مُجددًا، وعجزت عن الإتيان بأيّة ردة فعل، فهي حقًّا لم تستعد لهذه المواجهة، تمنّتها، ولكنها لم تستعد لها.

فنحن نتمنى الكثير، ولكن لا نستعد له. فكيف نستعد لما لا علم لنا به؟

كيف تستعد لمقابلة شخص لم تعلم يقينًا بحضوره؟

وكيف تستعد لمقابلة شخص كانت تظُنّه حتى قبل أيام قليلة شخصية خيالية؟

تحرك الشاب في محاولة لحثّها على الرد، أو على القيام بأي رد فعل، فمَدّ يده في اتجاه الرواية، فرفعت عينيها إليه، واستسلمت، فوضع الBookmark في مكانها بين صفحات الرواية، وانتظر، ولكنها لم تتحرك. فقال في محاولة لكسر الثلج، الذي بدا عصيًّا على الكسر، برغم حرارة الصيف في الخارج:

- دالوقت تقدري تشيلي صوباعك.

لا رَد، فقال مُعقبًا:

- لو تحبي يعني.. إلا بقى لو هتتني الصفحة اللي وقفتِ عندها.. ودا أنا باعتبره جريمة في حق الكتاب.

تحرّكت ببطء كالخارج من غيبوبة طالت، وتركت الرواية أمامها على الطاولة، ثم قالت:

- لا مش باحب اتني الصُفح، وصمتت.

فابتسم، وانتظر حتى تدعوه إلى الجلوس، ولكنها لم تفعل، فهمّ ليواصل حديثه، ولكنها قالت مُندفعة، مفاجِأة إيّاه، ومفاجِأة حتى نفسها:

- انت ازاي تدّي لنفسك الحَق تعمل اللي انت عملته دا؟!!

نعم لقد أبهرها عرضه السحري، ولكنها امرأة قبل كل شيء، لا يمكنها الإفصاح عما تشعر به بعد أول محاولة منه، خاصة لغريب لا تعرفه، حتى وإن كان في وسامة، وإبداع، وجنون، هذا الماثل أمامها.

"أخيرًا تحدثت؟!!" فكّر الشاب وهو يقوم بالجلوس دون إذن، وتذكر يوم قام بتغيير الرواية، وكأنه يراه يحدث أمامه.

كان يهم بارتداء خوذته السوداء، التي لا يقود دراجته البخارية بدونها، حين لمح الفتاة التي تسكُن في العمارة المقابلة للعمارة التي يسكُنها، والتي لاحظها أكثر من مرة عبر منظاره من خلف زجاج شقته القاتم، تستعد لركوب سيارتها، لفتت انتباهه منذ رآها أول مرة، لأن جمالها، لا يمكن عدم مُلاحظته.

تحركت بسيارتها في نفس الوقت الذي تحرك هو فيه، سارت في نفس طريقه، فابتسم من خلف زجاج خوذته القاتم. سارا في نفس الطريق لدقائق، حتى توقفت هي، فأبطأ من سرعته، لسبب لا يعلمه، أراد فقط أن يعلم ماذا جاءت هنا لتفعل، تركت سيارتها، ودخلت إلى "كافيه" هادئ،

فتوقع أن تقابل أحدهم. ولكنها بعد دقائق، لم تقابل أحدًا، فقط جاءت لتقرأ، كما يبدو عليها، فهي لَم تنظر إلى ساعتها، ولا إلى هاتفها منذ جلست، هي لا تنتظر أحدًا.

نظر إلى الكتاب الذي تقرأه، عبر منظاره الذي التقطه من حقيبة ظهره، ليجد أنها رواية "الطاعون"، لألبير كامو.

توقف الشاب لثوانٍ عن الحركة، فقبل أيام فقط، من اليوم، كان قد انتهى من قراءة هذه الرواية.

"هذه صدفة غريبة.. بل هي علامة" فكّر.

كان هذا الشاب يحترم العلامات جدًّا، وينتبه لها.

عاد إلى النظر صوب الفتاة. كان قد قرأ تلك الرواية وكره كل لحظة فيها، فبرغم عبقرية العمل، إلا أنه كان شديد الكآبة والقسوة، تدور أحداثها في وهران الجزائرية، حيث أن أصل ألبير كامو جزائري، فاختار وهران لتكون مسرحًا لعمله، تحكي الرواية عن طبيب يلاحظ أعراض المرض القاتل على كل من حوله، بداية من الفئران التي انتشرت جثثها في كل وأي مكان، وحتى أقرب أصدقائه وجيرانه، حوصرت وهران ولم يسمح لأحد بالدخول أو الخروج منها حتى لا ينتشر الوباء، صارت أحلام العشّاق الذين سافروا منها أو إليها في إجازات قصيرة تتحول إلى كوابيس مرعبة، ويحاول السكان الذين لم يصبهم المرض بعد الهروب فتصيبهم رصاصات الجنود.

هربوا من الموت البشع بالداخل ليُقتلوا على الحدود، الموت هنا وهناك في كل مكان.

كان الموت هو البطل الذي خيّم بظلّه الأسود الكئيب على كل أحداث رواية كان يكرر الشاب أنها من أكثر الروايات كآبة وقسوة قرأها في حياته.

أراد الشاب أن يمنع هذه الفتاة الساحرة من مواصلة قراءة تلك الرواية، وخاصة أنه لاحظ أنها تقرأ في صفحاتها الأولى، ليست فكرة الموت أو المرض التي خشي على الفتاة من قراءتها إياها، فهو لا يظنُّها هشة إلى هذه الدرجة، ولكنها التفاصيل الحية التي يحيط بها ألبير كامو من يقرأ عمله القوي، فيشم رائحة أنفاس المرضى ويرى نزيفهم الذي لا يتوقف، ويشعر بحرارة أجسادهم المحمومة، وتحاصره أنّاتهم وآهاتهم المكتومة.

فتنتقل الأعراض لحظيًّا لمن يقرأ، ويشعر وكأنه سيمرض معهم بالإيحاء.

فأشفق على الجميلة من تلك التجربة القاسية. فقرر أن يمنعها من مواصلة قراءة العمل، ونجح.

انتزعته مريم من رحلة الذكريات التي اختطفته منها لثوان، قائلة:

- انت جاي تسرح هنا؟

فضحك الشاب بصدق على تعليقها، وأجاب وهو يتجنب النظر إليها مباشرة:

- لا أكيد مش جاي اسرح هنا.. بس الأكيد برضه إني مش جاي اتخانق، أنا ببساطة جاي اعتذر لك لو تصرُفي ضايقك.. بس صدقيني زي ما كتبت لك في الرواية دي.. هتشكريني بعدين.

- دا ما يديكش الحق تعمل كدا.. وبعدين ازاي أصلًا؟ قالت بحِدة، ولكن لانت كثيرًا عن جُملتها السابقة.

فقال الشاب، وقد لاحظ لين حدة صوتها:

- الحكاية بسيطة جدًّا.. علامة.. قدر.. أنا شُفتك بتقري رواية لسَّا قاريها قبلك بأيام.. وعارف إنها هتنكّد عليكِ.. وحسيت إن ربنا بعتني ليكِ عشان أنقذك. وضحك، ثم أكمل:

- قمت جبت غيرها.. ودخلت غيّرتها في الوقت اللي كل الناس كانت باصة فيه الناحية التانية، زي الساحر كدا، وأشار صوب الطاولة الأخرى.

فابتسمت لأنها أطلقت عليه نفس اللقب، وقالت:

- بس انت كنت تعرف مني... آآآه دا صاحبك.. صح؟

ابتسم وأجاب:

- مش صاحبي قوي.. يعني تقدري تقولي صاحبته ٤ دقايق شرحت له فيهم دوره واتفقنا ع المقابل وكدا.

صمتت لثوانٍ حتى تستوعب ما قاله، ثم سألت:

- ليه؟! اشمعنى أنا؟

- دا سؤال بذمتك؟!! هو في غيرك هنا كان بيقرا الطاعون؟ وابتسم.

فعقدت حاجبيها وقالت:

- أنا مش باهزر.. انت ما تعرفنيش عشان تهزر معايا.. أو تعمل كدا.

- وانا مش جاي اهزر برضه.. أنا زي ما قُلت لك جاي اعتذر لك وارجع لك الBookmark عشان واضح إنها هدية.

أنا آسف مرة كمان.. ويومك جميل.. واتمنى تعجبك الرواية، وأقرن قوله بقيامه، وابتسم وهو يدور ليغادر المكان، كما ظهر، كالحلم. ولكنها قالت دون وعي حقيقي منها، ودون ترتيب، حيث فوجئت بجُملتها بعد أن نطقتها:

- إيه دا؟! استنى.. رايح فين؟!!

فالتفت ليواجهها، وقال وقد رسم متعمدًا ملامح الاستغراب الشديد على وجهه:

- رايح فين؟!

- ا.. ا.. اقصد.. اقصد هتمشي يعني؟

فضحك ولم يجِب، فتلعثمت أكثر في محاولة منها لشرح ما لا تفهمه هي من الأساس، وحتى تتجنب الحرج الذي حاصرها:

- آه.. لا.. مش قصدي.. أنا بس.. وصمتت لثوانٍ، حتى جاءها الفرج على شكل فكرة، فقالت:

- أنا عاوزة اعرف بس فين رواية الطاعون بتاعتي؟

وكست الجدية ملامحها بعدما استعادت سيطرتها عليها.

* * *

مذكرات

٦

كنت أظن أن الألم هجرني بلا عودة..

حتى علمت أنها تكره زوجها.. وأنه يرفض تطليقها..

وأنه يملُك من النفوذ ما يكفي، لجعل فكرة تحدّيه، مُرعبة كالموت.

وكأن ألم عشقها بلا أمل لا يكفي.. حتى تصيبني لعنة مشاهدة حياتي

تموت ببطء.

كنت أظن أن أسوأ لعنة يمكن أن تصيبني، هي رؤيتها تتزوّج من غيري..

حتى جاءت لعنة عجزي عن إنقاذها منه.

أفكر في الانتحار.. ولكنه جُبن وهروب..

ليس هروبًا من مساعدتها.. وكأنني أملك فعل أي شيء..

لكنه هروبٌ من تحمّل الألم معاها..

يا ليتني أستطيع تحمّله عنها.

* * *

٢٥

تعبث نسمة صيفية خجولة بستارة غرفة مكتب أنيق، لترقص الستارة بدلال رقصة تكاد لا تُلاحظ، وتسمح بتسلُل ضوء النهار البِكر، الذي لم يكتمل ميلاده بعد.

صوت العصافير النشيطة، وهواء صيف العاصمة المنعش، يضفيان على المشهد جمالًا ساحرًا لن يدوم، فبعد ساعات من الآن، ستزيح أبواق السيارات، ونداءات الباعة، وفِصال زبائنهم، أصوات العصافير التي ستصمت حنقًا على قُبح سلوك بني آدم، وستملأ الأتربة والغبار والعوادم سماء القاهرة، لتُغطيها بسحابة كئيبة، لن تهدأ إلا بعد انتصاف الليل بساعات، لتنعم المدينة بسِحر أخّاذ، ولكنه كعادته، هَشّ، لن يصمد.

يقرأ خمسيني الجريدة بصمت وجمود، وكأنه يُصلي. الجريدة أمامه على المكتب، لا يلمسها إلا ليقلب صفحة انتهى من قراءتها، أو لم يجد فيها ما يستحق القراءة.

يرتشف من فنجان قهوة إلى يمينه دون صوت، حتى عندما يُعيد الفنجان مكانه، يعيده بخفة وصمت، ويضعه في مكانه بالضبط في وسط الطبق، في نظام ودقة أقرب لدقة مُوَسوِس منه لمنظم عادي.

المكتب كله يبدو أقرب لديكور بلاستيكي لمشهد سينمائي، منه لمكتب يستخدمه صاحبه بشكل يومي، فكل شيء في مكانه، بترتيب مَرَضي، يشعرك

وكأن وجودك ذاته فوضى يجب التخلص منها، ليبقى المشهد بترتيبه الهوَسي.

يقلب الرجل صفحة أخرى، ليُعكر، لثوانٍ، نقاء صمت الغرفة صوت الورق الخشن، ثم يرتب بيده الصفحة ويفردها جيِّدًا، وكأنه يقوم بكيّ قميص فرحه.

ثم يعود الصمت ليملأ المكان، ويعود الرجل لارتشاف قهوته، كعادته، دون صوت، ويقرأ في هدوء وثبات يليقان بممارسي اليوجا.

"العثور على جثة سيدة في شقتها"

بقلم: عماد المنسي

الشقة مغلقة من الداخل مما يُشير في الغالب إلى انتحار القتيلة

تصفح الرجل، بسرعة، تفاصيل الخبر الصغير، ولم يجد بينها ما يضيف على عنوان المقال ورأسه، فأغلق الجريدة، ثم أعادها بصبر إلى هيئتها التي ابتاعها عليها، وقام حاملًا إيّاها وفنجانه، وتحرك صوب باب المكتب، وما إن فتحه حتى تحركت ستارة المكتب خلف كُرسيه فجأة، وكأنها فزعت من تغيير ضغط الهواء داخل المكتب، ثم عادت لرقصتها الخجولة، وكأنها سعيدة برحيله، بعد مغادرته المكتب دون صوت كالشبح.

* * *

٢٦

- قهوتك إيه يا باشمهندس؟ سأل وائل، وهو يُطفئ سيجارته، المهندس عادل، زوج السيدة التي، كما يبدو، انتحرت.

- مظبوط. ونظر حوله وكأنه يعاين مكتب الرائد، بوجه مُجهد، يُشير إلى عدم حصول صاحبه على قدر كافٍ من النوم مؤخرًا.

- البقاء لله يا باشمهندس.. أنا عارف المواقف دي الكلام فيها مالوش لازمة. أتمنى تكون نفسيًّا أحسن عشان نخلص من الحكاية الغلسة دي بسرعة وترجع لحياتك الطب.. ثم قطع كلمة "الطبيعية". فكيف سيعود لحياته الطبيعية بعد انتحار زوجته داخل غرفة نومه؟

ابتسم الزوج بعد ملاحظة ارتباك الضابط، وقال وهو يفتح علبة سجائره:

- بعد إذنك سؤال.. هو أنا هاقدر استخدم الشقة عادي تاني إمتى؟

أجاب وائل وهو يفتح مُفكرته على صفحة "الانتحار" ليتأكد من اسم الزوج:

- معلش يااا عادل بيه.. محتاجينك تستحملنا شوية، النيابة حسب معلوماتي هتعاين الشقة النهاردا.. وهنستنى تقرير الطب الشرعي.. اللي المفروض يخلص النهاردا برضه.. وغالبًا القصة هتخلص في يومين ولا حاجة.. إلا لو في حاجة ظهرت.

- حاجة زي إيه؟ وعقد حاجبيه، وتوقف عن إشعال السيجارة.

صمت وائل لثوانٍ، تابع خلالها ملامح الزوج بحثًا عن أي شيء غير طبيعي:

- ما اعرفش يا عادل بيه.. قُل لي انت.. تفتكر ممكن يظهر إيه؟

خيّم الصمت لثوانٍ على المكتب، كان الرائد خلالها في قمة الانتباه، ولاحظ ضيق صوت الزوج، الذي أزال السيجارة من بين شفتيه، وهو يقول:

- يا افندم أنا ما اعرفش حضرتك تقصد إيه أصلًا بحاجة ظهرت.. أنا اللي باسأل.

- ولا أنا اعرف يا باشمهندس.. هنستنى معاينة النيابة.. والطب الشرعي ونشوف.

- تمام.

ترك محمود القهوة أمام الرائد وضيفه، إن صح التعبير، وخرج، فقال وائل بودِّ حتى يكسر الحدة التي ظهرت في أفق الحوار مُبكرًا:

- اتفضل. وأشار إلى القهوة.

مَدّ الزوج يده صوب فنجانه، ودفعه قليلًا بعيدًا عن حافة الطاولة، ليؤكد للضابط ملاحظته وجود القهوة، ولكنه لن يبدأ في شربها بعد، ثم أشعل سيجارته وقال:

- سعادتك تُؤمُر بإيه؟ أنا تحت أمرك. ونظر إلى ساعته في إشارة واضحة.

وضع الضابط فنجانه، بعد أول رشفة، وقال بجدّية مُكتفيًا بما سبق من وِد وإضاعة وقت:

- وانا في البيت بعد الحادثة على طول قُلت لي إنك مُهندس وبتشتغل في الستاير. قال وهو ينظُر إلى مُفكرته، ومَطّ شفتيه تساؤلًا.

رفع الزوج قهوته، وارتشف منها القليل، وعَلت ملامحه لذة من أعجبه البُن، ولَم يُجِب.

فأدرك وائل أنه ينتظر سؤالًا مباشرًا، فأعطاه ما أراد:

- ليه مهندس بيشتغل في الستاير؟ وتخصُصك إيه في الهندسة؟ وبتعمل إيه في الستاير؟ إيه طبيعة عملك بالتفصيل عشان ما فهمتش. والتقط فنجانه، وعيناه تتابع الزوج، كعيون صقر يتابع فريسة اختارها لتكون وجبة لصغاره، وينتظر منها خطأً واحدًا لينقض عليها.

- أنا مهندس ميكانيكا.. شغل الهندسة له علاقة بكل حاجة.. أنا عملت مشروعي الخاص.. تركيب أجهزة ستاير بالكهرباء.. وبالريموت. الستاير نفسها مش أنا اللي باعملها.. أنا متخصص في الجزء الميكانيكي من الأنظمة اللي بنركبها.

- بس انت صاحب المشروع. قال سؤاله في صيغة إقرار، وهو يخرج سيجارة من علبته.

- مضبوط. ونفخ سحابة دخان.

- احكي لي بقى.. من ساعة ما صحيت.. وكنت وفين وقت الحادثة وحصل إيه لحد ما جينالك البيت؟ الحكاية كلها بالتفصيل.. خد وقتك بس ما تنساش حاجة من فضلك. قالها الرائد وترك ولاعته أمامه، والتقط قهوته.

حَكّ المهندس ظهر يده اليُسرى بيُمناه، ثم ذقنه التي نبتت قليلًا عما كانت عليه عندما قابله وائل أول مرة، ثم أراح ظهره، وقال بعد زفرة خافتة:

- أنا صحيت الصبح ونزلت اشتري شوية حاجات وسِبت ناهد في البيت نايمة.

- متعود على كدا؟

- ها؟ حيث لَم يتوقع مُقاطعته، لم ينتبه للسؤال، فأعاده الضابط بصيغة أكثر وضوحًا:

- متعود تنزل وهي نايمة؟ ولا بتصحى تعمل لك فطار مثلًا؟

- لا لا متعود اقوم أنا انزل وهي نايمة.. ما فيش أولاد.. وهي بتصحى متأخر. ثم صحح بجمود:

- قصدي كانت بتصحى متأخر.

- ليه ما فيش أولاد؟ وابتسم، لمعرفته أن السؤال شخصي أكثر من العادي، وفي الغالب لا ترتاح الناس عند استقبالهم مثل تلك الأسئلة، فحاول تلطيف السؤال لأقصى درجة ممكنة.

جال الزوج بملامحه في الغرفة لثوانٍ، وكأنه يبحث عن الإجابة حوله، ثم قال:

- ما فيش نصيب.

- يعني ما فيش حد فيكم عنده ما يمنع.. بس ربنا مش كاتب.. فهمتك صح كدا؟ ولَم يُلطف هذا السؤال، حتى يفهم الزوج أن الإجابات سابقة التحضير لَن تُقبل.

- آه. ونظر إلى قهوته، ثم قال بخفوت:

- أنا عندي مشكلة تمنع الحمل.

توقف وائل عن كتابة شيء ما كان شرع في كتابته، ورفع عينيه صوب الزوج، الذي راوغ نظرته، وشغل نفسه بإنهاء قهوته. ثم قال:

- تمام.. حضرتك نزلت والمدام كانت نايمة.. كالعادة. نزلت على إمتى كدا؟

ونظر إلى هاتفه الذي أعلن عن وصول رسالة نصيّة، ولكنه لم يهتم بقراءة محتواها.

- الساعة تسعة ونص.

"دقيق جدًّا" فكّر الرائد، وكتب ملاحظة.

فأكمل الزوج:

- ااااا.. وقت الحادثة كنت في سيتي ستارز باشرب قهوة. لما ماه...

قاطعه وائل:

- كنت في سيتي ستارز في شغل؟ ولا فسحة؟

- لا لا كنت رايح اشتري حاجات.. واشرب قهوة. مش شغل.

- ما رُحتش الشغل يومها؟

- لأ.

- ليه؟

- يعني.. أنا شغلي بتاعي زي ما حضرتك عارف.. ومش لازم اروح كل يوم.. واليوم دا ما كانش عندي شغل.. كنت هاشتري الحاجة واشرب قهوتي وابقى اروح.. بس ماهر كلمني وانا هناك.. فرجعت ع البيت. وأطفأ سيجارته.

- كنت هتشتري الحاجة.. حاجة إيه؟

- نعم؟ سأل ذلك السؤال الذي يدفعك عقلك لسؤاله وكأنك لَم تسمع سؤالًا سمعته بوضوح، حتى يعطي لنفسه - عقلك- الوقت ليفكر في الإجابة، فابتسم الضابط ولَم يُكرر السؤال، وحثّت عيناه بوِد وهو يسحب نفسًا طويلًا من سيجارته، الزوج ليُجيب، فأجاب ليُثبت أنه سمع السؤال:

- لا أنا كنت نازل اتفرج، شوبينج يعني، هازًّا رأسه وكأن ما قاله عادي للغاية، لا يحتاج توضيح، فهَزّ الضابط رأسه متفهّمًا، وهو يُطفئ سيجارته، وداعيًا إياه إلى أن يُكمل، فامتثل:

- بس يا افندم.. رجعت ع البيت جري.. ودخلت البيت لاقيتها... وترك الجملة دون أن يُنهيها.

هَزّ وائل رأسه، وصمت لثوانٍ، تابع خلالها ملامح الزوج الجامدة، ثم سأله:

- ماعلش يا باشمهندس.. افتكر كويس.. لمَست جثة المدام لما وصلت؟ سامحني في السؤال. بس افتكر كويس.

قال بملامح مُنهكة وخالية من أي تعبير:

- لأ.

تابع وائل ملامحه، ثم سأل:

- طب ولما لقيتها؟

هَز الزوج رأسه مستفسرًا عمّا يعنيه سؤال الرائد، الذي وضّح:

- لما لاقيتها عملت إيه؟ بتقول ما لمستهاش.. عملت إيه؟

هَز الزوج رأسه، وقال كأنه يجيب سؤالًا لا حاجة له، لأن إجابته واضحة:

- رجعت الصالة وطلبت من الجيران يتصلوا بالبوليس.

- بس؟!

لاح الضيق على ملامح الزوج، وقال:

- آه بس. مش فاهم.. ماهو تسجيل الكاميرات مع حضرتك.. وبعدين بس إيه؟ هو كان في إيه تاني يتعمل؟

اعتدل الرائد وبدأ يشعر بعدم أمان في صوت الزوج، فقرر استغلاله:

- تتأكد إنها لوحدها في الشقة مثلًا.

وقبل أن يُعقِّب الزوج، الذي فتح فمه بالفعل ليفعل، أكمل الرائد وهو يُريح ظهره ليُصِر كُرسيه وكأنه مقدّم برامج يقدم فقرة ينتظرها الجمهور:

- أنا باتخيل لو رجعت بيتي لقيت مراتي مضروبة بالنار.. أول حاجة هتيجي في دماغي مين عمل كدا؟ مش يمكن حرامي دخل البيت وقتلها ولسَّا موجود؟

صمت الزوج لدقيقة، نظر خلالها بجمود إلى الضابط، شعر الضابط أن الوقت توقف خلالها، حتى أنه لم يلاحظ رمشة عين واحدة على الزوج،

الذي بدت عليه رغبته في قول شيء ما ويكبحه، ثم قال بهدوء عانى لإضفائه على صوته، ليُداري قسوة لاحظها وائل:

- ناهد كانت لوحدها في البيت يا حضرة الظابط.. ولأ.. ماجاش في دماغي أفتش البيت.. كل اللي جه في دماغي إن مراتي ماتت.

هاجمت لقطة من ذكريات الضابط وعيه دون استئذان منه، ولا استدعاء، كعادة الذكريات. لا يعلم تحديدًا لماذا هاجمته تلك اللقطة تحديدًا.

هل لأن نظرة الزوج كانت نفس نظرة الرجل الذي استدعتها ذاكرته؟ هل لأن نبرة صوته وهدوءها الواثق الممزوج بالقسوة، كانت نفس نبرة الرجل من ذاكرته؟ ولكن نبرة الرجل في ذاكرته حملت من السُخرية والاستخفاف القليل أيضًا، فهل حملت نبرة صوت الزوج الذي أمامه قدرًا أقل من السُخرية والاستخفاف، ولكن لَم يلحظهما وعي الضابط، فتدخل لاوعيه ليكشف لوعيه ما غاب عنه؟

كانت الذكرى في الأقصر، كانت ليلة شتوية معتدلة البرودة، في إحدى نقاط التفتيش الشُرطية الثابتة، أوقف أحد الأُمناء سيارة سالم النجيدي بشكل اعتيادي، للتحقق من شخصيات مُستقلّيها، عندما لَمح النقيب وائل وجه سائق السيارة وتعرّف عليه، فذهب إليه في خطوات متحفزة، وقال:

- مساء الخير يا سالم بيه.. استأذنك تنزل من فضلك.

رفع الشاب الأسمر رأسه إلى الضابط، وقال باستخفاف:

- في حاجة يا حضرة النقيب؟

- لا أبدًا.. اركن على جنب.. وانزل.. هنفتش العربية.

تبادل الشاب والضابط نظرات لثوان طالت، حتى قطعها النقيب بسؤاله:

- ولا في حاجة في العربية مش عاوزنا نلاقيها؟

لَم يُجِب الشاب، وأبقى عينيه على الضابط، وكأنه يفتش داخله، فقال وائل:

- يلا يا أستاذ.. اركن عشان الطريق، ثم قال لأحد الأُمناء، بصوت عال:

- انفُض العربية دي يا هادي.

تحرك الشاب بسيارته الفارهة، وصفّها إلى جوار الرصيف، ونزل منها وترك الباب مفتوحًا، واتجه صوب الضابط، الذي استقبله بابتسامة باهتة قائلًا:

- رايح على فين كدا يا سالم بيه؟

- دا تحقيق بقى!!

أشعل النقيب سيجارته، وعينه معلقة على الشاب، وخرجت كلماته مع سحابة دخان كثيفة:

- لا.. دي اسمها دردشة.. أصل هادي زي ما بيقولوا كدا "له نصيب من اسمه".. هياخذ وقته في تفتيش العربية.. وانا ما يخلّصنيش اسيبك تزهق من الوقفة والبرد لوحدك.

- يعني من حقي ما جاوبش.

- ليه؟ خايف من حاجة؟ قالها الضابط بتحدي.

- ولا من حاجة ولا من حد يا وائل بيه تحسين، كانت إشارته واضحة، أنني قُمت بواجبي المنزلي، وتقصّيت، وأعلم من أنت.

استقبل النقيب الرسالة، وزادته يقينًا أن هذا الشاب الذي أمامه غير بريء، وأنه على حق في اشتباهه فيه.

- وانا باحب الرجالة اللي ما بتخافش.

- ما تيجي معايا دُغري يا وائل بيه.

هز النقيب رأسه موافقًا، واطلق سحابة دخانية كبيرة، وقال:

- وما لُه؟ نيجي دُغري، كنت فين يوم ما مجاهد فرج اتقتل؟

كظم الشاب غيظه، وزفر بضيق، وقال بغضب مكتوم:

- انت بتحقق معايا في جريمة قتل يا حضرة الظابط؟

ابتسم وائل مستمتعًا باستفزاز الشاب، وأجاب مُهاجمًا بسؤال:

- مش شايفها غريبة شوية؟ أكتر راجل انت بتكرهه في البلد يتقتل ويتسرق على إيد واحد انت برضه لسَّا مهدده من شهر ونص بالقتل قصاد ييجي ٤٠ نفر على قهوة سهراية؟

صمت سالم لدقيقة، نظر خلالها بجمود إلى الضابط، شعر الضابط أن الوقت توقف خلالها، حتى أنه لم يلاحظ رمشة عين واحدة على الشاب، الذي بدت عليه رغبته في قول شيء ما ويكبحه، ثم قال بهدوء عانى لإضفائه على صوته، ليُواري قسوة لاحظها وائل:

- اللي بتقوله دا يا وائل بيه كلام فاضي.. وانت عارف كويس إني كنت برَّا البلد الليلة دي.. وسألتني قبل كدا قبل ما اللي مشغلينك يقفلوا التحقيق. لو عندك حاجة ضدي قدمها لهم.. وتبقى شاطر لو عرفت تفتح التحقيق تاني.. بعد ما اتقفل في وشك.. بس لعب العيال دا مش بتاعي.. وما بافهمش فيه.

استفزه هدوء الشاب الذي استعاده، فقال:

- ورحمة أبويا يا سالم ما هتفلت مني لو كنت عملتها.

صاح سالم بغضب:

- الزم حدودك. أنا اسمي سالم بيه.

- ما لك خايف ليه؟

قال سالم بصوت عالٍ حتى يسمعه كل من في النقطة الأمنية وهو يدور ليعود إلى سيارته:

- لا دا كتير.. أنا غلطان اني واقف باتكلم معاك.. أنا هيكون ليَّ كلام تاني مع المحافظ.. دا انت شكلك نسيت نفسك.. ونسيت انت بتكلم مين.

ولكن وائل ألقى سيجارته بغضب، وانطلق صوب سالم، وجذبه من ذراعه بقوة ليدور جسد الشاب، فأمسكه الضابط من قميصه بقبضتيه، ودفع ظهره إلى جانب سيارته، ليصطدم بها بقوة، ثم ضغط بمرفقه على رقبه الشاب وقال وهو ينظر إلى عينيه مباشرة بقسوة:

- اوعى انت تنسى نفسك، أنا مش عيل بياكل عيش من ورا أبوك.. وبيخاف منه.

جحظت عيون الشاب، وحاول تخليص رقبته من مرفق الضابط، الذي قال بصوت لا رحمة فيه:

- رقبتك وجعاك؟ كويس.. تمرين عشان حبل المشنقة.

قطعت دقتان سريعتان على باب المكتب هجوم الذكرى الكاسح الذي فصل الرائد عن واقعه لدقيقة، فالتفت إلى القادم، النقيب شريف، الذي حيّا الزوج، ثم نظر إلى وائل وأشار إلى هاتف الأخير، وقال:

- بعتلّك حاجة مهمة.. بُص عليها.

نظر وائل إلى هاتفه، وقال:

- حاضر.. هاخلص هنا واشوفها.

- ضروري بس، وأكمل وهو يغادر:

- وكلمني اجيلك.

عاد الرائد بنظره إلى المهندس عادل، وقد بدأ يدرك أن لاوعيه يحاول أن يلفت نظره إلى شيء ما، فانتبه، وقال:

- لا مؤاخذة يا باشمهندس.. نرجع لكلامنا.. يعني سعادتك كنت لوحدك في سيتي ستارز؟

- آه.. لوحدي.

- طب أنا هاحتاج منك الوقت اللي.. اسمه إيه جار سعادتك كلّمك فيه. وأمسك قلمه ليكتب.

- كان في حدود السـ... فقاطعه الرائد:

- لا لا معلش.. من على تليفونك.. شوف لي الوقت بالظبط.. من المكالمة الواردة.

احتاج الزوج لبعض الثواني ليستوعب طلب الرائد، ثم أخرج هاتفه، وبحث عن الاتصال، حتى وجده فقال:

- الساعة ١١:٤٩ دقيقة.

- تمام. كتب الرائد التوقيت، ثم ابتسم لعادل، وقال:

- كدا سعادتك تستنى مننا تليفون بعد تقرير الطب الشرعي ما يوصل.. ونشوف ساعتها هنمشي في القصة ازاي، وانتظر رد فعل الزوج، الذي قام بدون أن يقدمه، وسلّم على الرائد بفتور، وغادر.

نادى وائل على راضي، عندما فتح الزوج باب المكتب ليغادر:

- انده لي شريف بيه يا راضي، ثم أشعل سيجارة والتقط هاتفه ليرى ما وصفه شريف بالضروري.

* * *

٢٧

دخل الساحر منزله حاملًا خوذته التي لا يقود دراجته البخارية بدونها، أضاء النور لتظهر صالة واسعة جدًّا، وكأن المقاول قد نسي بناء الحوائط التي تصل تلك الأعمدة ببعضها البعض. إلى يمينه سفرة زجاجية سوداء اللون عصرية الطراز، وإلى يساره غرفة بها كنبة طويلة مُقسّمة تدور حول الغرفة من جهتين تكفي لعِدة أشخاص، وفي مواجهة باب الشقة يوجد جهاز للجري، ومكتب كبير عليه كمبيوتر حديث جدًّا ومعه كل ما يحتاج إليه أي مدمن تكنولوچيا يحترم نفسه، وجهاز بيانو إلكتروني، ومعلق خلفه على الحائط جيتار "ياماها" مصنوع من الخشب داكن اللون، وإلى اليسار عُلّقت على الحائط مكتبة كبيرة تحمل الكثير من الروايات، العربية والمترجمة.

علّق مفاتيحه على حامل المفاتيح الصغير المُعلق بجوار باب الشقة، وترك خوذته على ذراع يبدو وكأنه قد تم تثبيته بجوار حامل المفاتيح خصيصًا لهذا الغرض، ثم تحرك باتجاه جهاز الكمبيوتر، وترك حقيبة ظهره السوداء، التي لا يغادر المنزل بدونها أيضًا، على كرسي المكتب، وضغط على الأزرار عشوائيًّا لتُضيء الشاشة ويظهر أمامه طلب كلمة المرور، فكتبها، ثم ضغط زر تشغيل الأغاني لينطلق صوت هادئ ليملأ كل الشقة بسبب السمّاعات التي قام بتوزيعها على كل غرفها. صوت صولو قانون مصحوبًا

بخلفية من الدفوف؛ وقف الشاب مُغمضًا عينه لثوانٍ وترك الموسيقى تتخلله، حتى انطلق صوت محمد مُنير يُغني:

إيديا في جيوبي وقلبي طِرب..

بقي لثوانٍ ساكنًا يستمع فيها لصوت منير وكأنه بوذي يقوم بالتأمُل في معبدهم بالنيبال، ثم ابتسم عندما تذكر كيف سار لقاؤه الأول مع مريم. كان يتذكر التفاصيل وكأنه يراها تحدث أمامه. كانت تلك لعنته التي تعوّد عليها؛ وهي ذاكرته غير القابلة للنسيان، لا يعلم تحديدًا هل هو يمتلك ما يُسمى بالذاكرة التخيلية، أو الذاكرة فائقة الدقة، حيث كان يتذكر أدق التفاصيل الذي مرّت أمامه دون عناء، ولا ينسى كسائر البشر، وكان يتعجب في صغره من زملائه عندما كان يذكرهم بما درسوه، ولا يتذكرون.

وعندما شبّ وأصبح يدرك تميّزه، حاول أن يحدد سبب حالته، ولكنه لم يتأكد بعد قراءته للعديد من المقالات على شبكة الإنترنت، كانت هناك حالة تُسمى "الذاكرة التخيلية" أو "الذاكرة فائقة الدقة". وأشهر من كان يفترض أنهم يمتلكون تلك الذاكرة هم؛ ستيڤين ويلتشر، الذي استطاع أن يرسم آفاق مدينة كاملة لم يزُرها قط، بعد جولة سريعة بطائرة هليكوبتر فوقها. وهناك أيضًا من ارتبطت أسماؤهم بالذاكرة فائقة الدقة مثل العالم الفزيائي نيكولا تسلا، والمُلحن سيرجي رحمانينوف، ولكن تلك الحالة يصعب رصدها بدقة والتأكد منها، ويصعب التأكد من أن تلك الحالة هي بالفعل حالة وراثية، ولِد بها صاحبها، أم أنها مهارة تم صقلها بالتدريب.

وهناك أيضًا حالة مرضية تُسمى "هايبرثيميسيا" "Hyperthymesia" وهي مؤكدة وقابلة للرصد، ولكنها نادرة جدًّا. وأعراضها هي أن المريض لا ينسى على الإطلاق، وهي غالبًا ما تصيب المريض بها بالاكتئاب، والتوتر، لأنه يرى كل ذكرياته وكأنها تحدث أمامه، فلا ينسى، ولا يتخطى أي شيء.

فالنسيان قد يبدو ضعفًا وابتلاءً، ولكنه من نعم الله على الإنسان بكل تأكيد. وهذا ما يؤكده مرضى الـ"هايبرثيميسيا".

كان يعتبر نفسه ممن رُزِقوا بالذاكرة فائقة الدقة، لأنه ينسى أحيانًا، أو قد يكون قد طوّر قُدرة حجب بعض الذكريات المؤلمة، ولكنه اعتبر نفسه ينسى.

سارح في غربة بس مش مغترب..

أنزل منظاره المقرب، وتركه إلى جوار شاشة الكمبيوتر، بعدما لاحظ عدم عودة مريم بعد من "الكافيه" حيث تركها، وتذكر...

- لا طبعًا رواية الطاعون مش هترجع لك.

- ليه بقى إن شاء الله؟ قالت بغضب مصطنع وسعادة حقيقية، عندما عاد وأجَّل المغادرة، فقال مبتسمًا وهو لا يزال واقفًا:

- هو انتِ ليكِ أكل ولا بحلقة؟ عاوزة رواية تستمتعي بيها؟ قصادك أهِه. التانية دي عقاب مش متعة.

أسندت ظهرها وعقدت ذراعيها أمامها، وقالت بتحدٍ واضح:

- ولو ما عجبتنيش؟

فابتسم وقد أعجبه سؤالها، فأجاب:

- هارجّع لك الطاعون.. ومعاها اعتذار رسمي.

- ماشي.

- طب ولو عجبتك؟

- هاه؟ راوغت سؤاله.

- ولو عجبتك باقول؟

- امممممم لأ ما اعرفش.

- تعزميني على الغدا.

ابتسمت، ولَم ترُد، فأكمل:

- اتفقنا.. أسيبك بقى تكمّلي قراية، ثم نظر إلى الرواية التي أمامها وقال كأنه يترك وصيته:

- شِدّ حيلك معايا يا أديب.. أنا معتمد عليك.

ضحكت بصدق، فابتسم، فتلك كانت أول مرة يسمع ضحكتها، وتمنّى ألا تكون الأخيرة.

رفع يده بتحيه سريعة، ودار ليرحل، فقالت:

- استنى !! انت يا ابني مربوط بأستيك ما بتصدق تفلت؟

ضحك وهو يعود إليها، وقال:

- وبعدين معاكِ؟ الناس كدا هيقولوا بتعاكسيني.

- دا على أساس إن انت اللي قاعد وانا اللي جيت لك؟

- ما تدخلينيش في تفاصيل.

- طب انت هتعرف منين إني خلّصت الرواية؟ عشان الرهان يعني. وكست حمرة الخجل ملامحها، فزادتها جمالًا، فتأخر رده، فأصابها المزيد من الخجل، حتى قال بصوت رقيق:

- ما تقلقيش.. أنا هاعرف، وغمز لها بعينه اليمنى، فابتسمت، وقالت:

- ماشي.. هنشوف.

دار ليغادر، ففتحت شفتيها لتقول شيئًا، ولكنها منعت نفسها، فعاد هو وكأنه رآها، وقال:

- نعم؟!!

اتسعت عيناها العسليتان، وقالت بذهول:

- إيه دا؟!! انت عرفت منين إني كنت عاوزة انده لك؟

ضحك وهو يقول:

- لا أنا ما كنتش اعرف.. بس عرفت منك حالًا.. أنا توقعت.. عشان كل مرة امشي وتندهي لي.. فقولت آجي قبل ما تندهي المرة دي.

لَم تستطع أن تمنع نفسها من الابتسام، وقد اكتسى وجهها كاملًا بحمرة الخجل، ولكنه لم يتحرك ولم يرفع عينه عنها، فتحكّمت في نبرة صوتها قدر استطاعتها، وسألت:

- طب أنا ما عرفتش اسمَك.

أعاده محمد مُنير لشقته، بصوته الساحر، فجلس الشاب أمام جهاز الكمبيوتر، والابتسامة تُزيّن وجهه، وبدأ في تصفُّح بريده الإلكتروني، لم يجد ما يستحق الاهتمام، ففتح صفحة الإنترنت، ليتصفح مواقع الأخبار، والـfacebook، وTwitter. فوجد مقالة لفتت نظره، فشرع يقرأ.

بيتعد؟؟ ما اعرفش أو بقترب..

صفحة "الشرطة والشعب في خدمة النظام" على الـfacebook..

مقالة بعنوان: **لمن يهمه الأمر**.

أطلّت علينا منذ أيام مقالة لشاب يخطو خطواته الأولى في عالم الصحافة الاستقصائية، كانت تكشف عن حادثة غريبة حدثت في أحد أقسام الشرطة، التي انتشرت في كل الأحياء بهدف تحقيق أمن، لم يتحقق.

وبعد خروجها بساعات، خرج اعتذار الشاب عن مقالته، مؤكدًا ما كنا نعلمه جميعًا جيدًا؛ وهو أنه لا يمكن في دولة بلا قانون أن تطلب حقك.

من يختلف على أن من حق الجميع أن يعلم الحقيقة؟ من يختلف على أن من حق الصحفي أن يمارس عمله؟

لو سألت أي شخص، وزير داخلية كان، أو بائع في مشتل، أو سائق نقل ثقيل، سيجيبك الجميع بالإجابة النموذجية؛ "الشفافية"، ولكن تلك الإجابات المُعدة مسبقًا، لا تعدو كونها شعارات محفوظة، يستخدمها الجميع لأغراض مختلفة، ولكن هل يسعى من في موقع المسؤولية إلى تحقيق الشفافية حقًا؟ الإجابة "لا".

أهدي هذه المعلومة لسيادة الـ"باشا" الذي فكّر واخترع فكرة الإعلان عن أن ما حدث داخل قسم الشرطة المذكور، في مقالة الشاب، كان مُجرد إجراء تدريبي جد يد، تبنّته وزارتنا المهيبة بهدف الارتقاء بقدرة أفرادها، عن طريق اختبارهم في مواقعهم أثناء تأدية أعمالهم، دون سابق إنذار، للوقوف على نقاط الضعف، ونقاط القوة إن وجِدت.

وبالطبع نقاط القوة ستصبح عصيّة على الإيجاد، حيث أن أدوات الضرب، والربط، والتعذيب، والتنكيل، لن تكون متوفرة للأفراد محل الاختبار المفاجئ.

فكيف إذًا سننتظر النتائج ممن تعوّد على استخدام أدوات، حُرّم منها عند الاختبار؟

هذه المعلومة مؤكدة من أحد مصادرنا الكثيرة، والذي، بالطبع، ولأسباب واضحة، لن نُعلن عن اسمه.

المعلومة مفادها أن ما حدث داخل القسم كان بهدف الوصول إلى معلومات خاصة، موجودة فقط على أجهزة كمبيوتر البحث الجنائي، التي يوجد منها واحد داخل كل قسم، لا يوجد لدينا في الوقت الحالي، أي معلومة تُشير إلى نوع المعلومات التي سعى من قام بالعملية خلفها، ولا نعلم هل نجح في مسعاه، أم نجح أفراد القسم في ردعه.

ولكننا نعلم أن ما حدث داخل القسم لم يكُن إجراءً تدريبيّا، ولكنه كان هجومًا منظمًا، وغير متوقع.

ونعلم أن الداخلية لا تعلم من قام بهذه العملية ولم تلقِ القبض على أحدهم، ولن تستطيع أن تقوم بما تجيده من تلفيق التهم لأحدهم، لإغلاق الملف، لأنها أعلنت بالفعل أن ما حدث لا شبهة جنائية فيه، وإن كانت تستطيع أن تخطف من تشتبه في قيامه بالاقتحام، دون تهم، ودون قضية، بالطبع.

فالمواطن العادي في نظر هؤلاء، مجرد حشرة.

أود في نهاية مقالي أن ألفت نظر ديناصورات وزارتنا الداخلية، إلى أن الانقراض قد طال فصيلتهم، ولم يَطُل الحشرات، التي تعتقد هذه العمالقة أنها يُمكنها سحقها تحت خطواتها، فمن يبقى؛ هو من يستطيع التكيّف مع مُحيطه.

وفي عصر الإنترنت، لن يبقى من لا يزال يستخدم سياسة "النوم في العسل".

الحقيقة دائمًا تجد الطريق إلى العقول، ولو بعد حين، وفي عصر الإنترنت، لا يطول هذا الـ "حين".

نلتقي وإيّاكم في جولات أخرى.

بقلم: حشرة.

لمتابعة القصة من البداية:

- **رابط مقال "النوم في العسل؛ أقدم حيلة في كتاب الداخلية" بقلم عماد المنسي**
- **رابط مقال "اعتذار واجب" بقلم عماد المنسي**

ألقى الرائد وائل هاتفه المحمول، بعد انتهائه من قراءة المقال، أمامه على المكتب، وقام منتفضًا، ليصرُخ كُرسيه اعتراضًا، واندفع صوب باب غرفة مكتبه المُغلق، ولكن النقيب شريف قام واستوقفه قائلًا:

- في إيه بس؟!! رايح فين كدا؟!!

صرخ قائلًا:

- هاشوف ابن كلب مين سرّب المعلومة دي.. دا موضوع خطير يا شريف.

وضع النقيب يده على كتفه، وأشار صوب كُرسيه، وقال مُهدّءًا:

- طب ممكن تقعد.. انت عارف الأمور مش بتتاخد كدا. واحدة واحدة بس عشان نعرف نفكّر.

حاول الرائد التحكُم في سرعة أنفاسه، ولكنه عجز، وقال وهو يعود إلى كُرسيه، فالنقيب شريف عنده حق:

- احنا كدا رسمي لابسين طُرَح يا شريف، وضرب بيده سطح مكتبه بقوة، وأكمل:

- هي ناقصة؟ واحد يدخل يقلّبنا في القسم.. وما نعرفش نحافظ على محتجز عندنا.. وآخرتها مش عارفين نحافظ على معلومة في تحقيق بالخطورة دي؟ انت فاهم كلام زي دا هيعمل إيه في صورتنا في الوزارة؟ وتحقيق.. وليه ما قُلتش؟ وازاي؟ وفين؟

زفر شريف بضيق، وسأل مُحاولًا إعمال العقل في الحوار، وتهدئة الرائد عن طريق جَرّه لنقاش منطقي:

- طيب واحدة واحدة بس.. واهدا عشان نعرف نفكَّر. هو كريم من المعلومات رَد عليك؟ ولا لسَّا؟

- لسَّا يا شريف.. بس أنا دالوقت في المصيـ... قاطعه شريف بإشارة من يده، أن اصبر، وقال:

- ما هو دا أساس المصيبة. ثم اعتدل ليميل صوب مكتب الرائد وكأنه يُدلي بسِرّ حربي، وقال:

- لازم أول حاجة نتأكد من شكوكك.. لأن لو شكوكك طلعت غلط.. ودا اللي هيحصل إن شاء الله.. هيبقى اللي انت قريته دا مجرد خبر كاذب.. ومعلومة ما لهاش أي علاقة بالواقع.. بس لو طلعت شكوكك صح.. والواد دا فعلًا كان جاي عشان جهاز البحث.. يبقى احنا في مُشكلة.. ولازم نعرف مين "حشرة" دا.

خيّم الصمت لثوانٍ على مكتب الرائد الذي يغلي بداخله بركان غاضب، حتى قال شريف:

- كَلّم كريم.. كلّمه حالًا.. دي أول معلومة محتاجينها حالًا.

* *

- آلو.. أيوة يا سمسم.. المقالة مكسّرة الfacebook. قالها الصحفي عماد بسعادة بالغة، عبر الهاتف.

- أي خدمة يا "حشرة".. ما لقِيتش اسم غير كدا تنزل بيه؟ جتك القرف في شكلك، وضحكت.

- بذمتك مش القفلة صايعة؟ حتة انقراض الديناصورات.. وبقاء الحشرات دي مش أي حد يجيبها.

- بصراحة المقالة أستاذة.. وتحسها مطرقعة زي كفوف شكوكو.. بس المهم ربنا يستر نصحى ما نلاقيكش. وضحكت بمرح.

- وانا حد يعرفني؟ هتخوّفيني ليه؟ بتوجُّس.

- يا ابني اجمد امال.. انت بس امسح الرسالة اللي بعتِّلي فيها المقالة احتياطي، تلاعبت بأعصابه.

- يخرب بيت كدا.. هما مراقبين الfacebook؟ طب وهاعمل إيه لـ... قاطعته:

- يا ابني ما تجمد بلاش هبل.. هما مش مراقبين ٩٠ مليون.. في ناس بعينها بتتراقب.. انت بالكتير حشرة يراقبوك بتاع إيه.. أنا باقول احتياطي.

- طب وصفحة "الشرطة والشعب في خدمة النظام" ما حدش من اللي ماسكينها يقول؟

- يقول إيه يا عبيط؟ ولا أصلًا حد يعرف مين اللي ماسكها؟ العيال دي كبيرة يا عماد.. ومش جوا مصر.. والمقالة اتبعتت لهم من ناس ثقة، لو مش

ناس ثقة وضامنينها ماكانوش نزّلوها، ما تقلقش كدا.. احنا مش بنلعب، بس براڤو عليك وتسلم إيدك. طمأنته حتى يهدأ، ونجحت.

- اااا.. طب باقول لك إيه.

- ها؟

- ما تيجي النهاردا نحتفل بالقفا الأول لشكوكو.

ابتسمت، ووصلت ابتسامتها إلى عماد كزفرة سريعة، وقالت:

- ماشي.. هاخلّص مشواري واكلمك. سلام.

* *

قطع رنين هاتف هيثم المحمول، مباراة كرة القدم التي يلعبها على جهاز الكمبيوتر، ضد اللعبة، والتي كان مستمتعًا بها لأقصى درجة، ليُجيب بضيق:

- أيوة.

- بعتلك Link.. عاوز اعرف مين "حشرة" دا حالًا.

- حشرة؟!! تساءل هيثم بحيرة.

- انت شارب يا هيثم؟

- وانا من إمتى فايق؟ بس دا ماله ومال شغلي؟ أنا مش باعرف اشتغل وانا فايق.

- طب افتح الLink وانت تفهم. قال بضيق، ثم أكَّد:

- حالًا يا هيثم.

* *

- مع السلامة يا كريم.

قالها وائل وترك هاتفه أمامه، ثم رفع رأسه إلى معاونه، وقال وهو يضغط زر استدعاء راضي:

- تشرب قهوة؟

أومأ شريف موافقًا، عندما دلف راضي إلى المكتب، ورفع يده بتحية سريعة، ليقول وائل:

- اتنين قهوة من البُن بتاعي.. وقول لمحمود يعملها بميّة ساقعة.. ويقلّبها كام مرة وهيّ ع النار.. ما يكسّلش.

أخرج سيجارة من علبته، وأشعلها، وقال مُرتاحًا بعد مغادرة راضي:

- السيناريو بتاعي طلع فشنك.

- الحمد لله.. بس كريم اتأكد ازاي؟ أنا ما فهمتش منك حاجة وانا سامعك بتكلمه.

اعتدل وائل، ليصِر كُرسيه، كالعادة، وقال مُفسِرًا:

- بُص يا سيدي.. كريم قالي قصة التسلل بتاعة الكمبيوتر دي لو حصلت.. فهيّ ليها هدف، وطبعًا الهدف مش الكشف على مُسجل.. لأنه ممكن يعمل فيش، ومافيش مُسجل عليه أحكام هيعمل كل الفيلم دا عشان يكشف على ملفّه الجنائي، يبقى إيه الهدف اللي باقي؟

نفث شريف دخان سيجارته، وانتظر، ليكمل الرائد:

- وحدة البيانات المركزية.. اللي أجهزة البحث كلها متوصلة بيها.. عن طريق شبكة مغلقة، الشبكة دي هي الهدف.. ومستحيل الوصول ليها إلا عن طريق واحد من أجهزة البحث اللي متوصلة مباشرة بالشبكة دي.

- تمام.

انتظر وائل حتى غادر محمود المكتب، بعد وضعه فنجان قهوة كل من الضابطين أمامه، ليُكمل:

- وهو راجع عنده واتأكد إن ما فيش أي اتصال حصل بين جهازي هنا.. والوحدة المركزية من يوم الاقتحام.. لحد دالوقت.

رشف شريف من قهوته، وأعاد الفنجان إلى مكانه، وسأل:

- وهو متأكد من دا؟

- مليون في الميّة. ثم أكمل:

- ودا معناه إن بنسبة تسعة وتسعين في الميّة.. أنا تفسيري كان غلط، لأن اللي جه دا لا يمكن زي ما قولت يكون عمل كل دا عشان يكشف على مُسجل.

- طب الحمد لله.. كدا يبقى موضوع صفحة الfacebook فشنك.. وكلام فارغ.

أراح الرائد ظهره، وقال وكأنه يُحدث نفسه:

- بس دا مش معناه إني مقتنع بقصة إنه جِه عشان ينصب على رامز.. الواد دا وراه حاجة.. أنا متأكد.

ابتسم شريف وهو يُطفئ سيجارته، وقال:

- يا عم وائل.. صدقني ساعات الحاجة بتكون زي ما هي من غير أبعاد مستخبية.

تنهّد وائل ومَدّ يده ليلتقط السيجارة، ليكتشف أنه نسيها، وأنها احترقت بالكامل، فأخرج غيرها، وهو يقول:

- لا لا يا شريف.. الواد دا وراه قصة.. وانا مش هارتاح إلا لما اعرف كان جاي ليه.. وهو مين.

* *

- "عُمَر"

- عُمَر؟!

أجابت مريم وهي تضحك:

- آه عُمَر.

أسندت چينا ذقنها على قبضتها، وقال بهيام متنهدةً:

- طب وبعدين؟

- ولا قبلين.. مِشِي.

اتسعت عينا چينا على آخرهما، وقالت مستنكرة:

- إيه اللي مشي؟ وفين موبايله؟

قامت مريم، ووضعت الرواية على مكتبها، وهي تقول:

- بس بلاش هبل.. أنا هاقول له هات موبايلك يعني؟ وبعدين بلاش كدا.. انتِ عارفة رأيي في الموضوع دا.

- انتِ مش وش نعمة.. ليه يارب تبعت المُز للي ما عندهاش قلب دي؟

ونظرت إلى سقف الغرفة بملامح ممتعضة، فضحكت مريم.

دقت والدة مريم على باب الغرفة، دقتين خفيفتين، وقالت بصوت عَبَر الباب:

- الأكل يا بنات.

* * *

٢٨

انتهى عُمَر من غسل الصحون، التي استخدمها في غدائه، وجفف يديه، ثم خرج إلى صالة شقته، وهو يستمع إلى صوت موسيقى عُمر خيرت، التي تملأ الشقة بخفوت يليق بها، وكأنها همسُ ساحرٍ.

أزاح ستارة الواجهة، ونظر عبر الزجاج صوب شرفة غرفة نوم مريم، ليجد أضواءها مطفأة، وباب الشرفة وشباكها مغلقان، عاد إلى كنبته الطويلة، في غرفة المعيشة، وفتح التلفزيون، وجلس أمامه يتابع، بوعي غائب، فيلمًا أجنبيًّا، شاهده أكثر من مرة.

تبدو على ملامحه علامات التفكير العميق، يبدو وأن وعيه يتعرّض لهجوم قوي، من التوتر والتساؤلات، التي لا إجابة عنده لها.

لَم ترحم التساؤلات وعلامات الاستفهام وعيه، فقرر أن ينفُضها بأفضل وسيلة ممكنة: الجري، حيث اعتاد، أن يمارس الجري كلّما شعر بالتوتر، أو أراد أن يُطفئ عقله مؤقتًا، فكُل جهاز يحتاج للراحة والعقل جهاز في النهاية.

قام وأطفأ التلفزيون، وأطفأ النور، واتجه صوب الكمبيوتر، رفع مستوى صوت الموسيقى إلى ما بعد المنتصف بقليل، ثم تحرك صوب جهاز الجري، على ضوء شاشة الكمبيوتر، وضبطه على سرعة عالية، وشرع في الجري.

راح وعيه يغيب تدريجيًا، مع الإرتفاع التدريجي لسرعة الجهاز أسفله.

* * *

مذكرات

٧

قتلها.. وأفلت من العقاب.. يقولون قتلت نفسها.. انتحرَت.

عندما يصدر أحدهم حُكمًا بإعدام بريء، ويقوم عشماوي بتنفيذه.

هل يصح اتهام عشماوي بالقتل؟

ماذا لو قام البريء بنفسه بلَفّ حبل المشنقة حول رقبته؟ هل يُسمّى هذا انتحارًا؟

هو من أصدر حكمه بإعدامها.. هي فقط نفّذته..

هي فقط اكتفت من الشعور بالألم.. وهل هذا ذنب؟

قَتلها ألف مرة.. ولَم يُتَّهَم بالقتل؛ فقط، لأنه تركها، بعد كل مرة، تتنفّس.

وهل كل من يتنفّس على قيد الحياة؟

كيف استطاع أن يُطفئ فيها رغبتها في الحياة.. وهي الحياة؟

لَم يكتفِ بلعنة بقائها على ذمّته، واغتصب كل شيء فيها..

حتى قتل الحياة فيها..

وكيف تحيا هي بلا حياة؟

ما زالت هي في نظري، برغم اغتيالها، الحياة..

ماتت حياتي.. ولكنني، لا زلت، للأسف، باقٍ.

* * *

انتبه إلى العلامات.

٢٩

استقبل هاتف وائل رسالة من خطيبته مَيْ، فتح الرسالة وقرأ محتواها:

"لا يا وائل مش هاسامحك المرة دي.. يا وائل دانت كنت لسَّا بتصالحني بسبب غلطة وما خلّصتش.. تقوم تغلطها تاني؟ أنا بدأت اقتنع إنك مش هتبقى زوج كويس.. دي المفروض أجمل أيام عمرنا.. أمال الوحشة هتبقى ازاي؟ دي إشارات من ربنا.. واللي بيهمل الإشارات دي بيبقى غبي وبيخسر"

ترك وائل هاتفه على المكتب أمامه، وتنهّد بضيق، ثم وضع يده على وجهه ومال إلى الخلف بكُرسيه، الذي واساه بصرير بدا حزينًا ومتعاطفًا.

كان يعلم أنه مُقَصِرٌ في حق خطيبته، ولكنه ليس دائم التقصير، كان يُقصّر فقط عندما تحتاج إحدى قضاياه وقتًا ومجهودًا وتركيزًا أكثر من الطبيعي. كان يتمنى منها أن تتفهّم هذا، وتحترمه، وتقدّره، إنه يحبها، وهي تعلم هذا، فلماذا لا تستطيع تقبُّل هذا العيب؟

مَن مِن الناس بلا عيوب؟

وعيبه أنه يهتم بعمله ويراعيه، أحيانًا بشكل مبالغ فيه. هل يصح تصنيف هذا كعيب من الأساس؟

ولكنه أيضًا يعلم أن خطيبته امرأة، وأن المرأة تحتاج إلى أن تشعر بالأمان، وتحتاج إلى أن تكون واثقة من أن وقت احتياجها لرجلها لن يمُر بدونه إلى

جوارها، وهو يعلم هذا وينوي القيام به، ولكن كيف ستكون هي واثقة من شيء وهي ترى عكسه؟ وكيف يدّعي هو أنه سيقوم بشيء يفشل في كل مرة يحاول القيام به؟

تشعُر مَي بأهمية عمله، فلا يصح أن تشعر بأنها أقل أهمية عند وائل منه، وإن تمكّن منها هذا الشعور، فهذا لأنه قَصَّر في طمأنتها، ودوره وواجبه أن يثبت لها العكس.

ففي العلاقات، لا يهم ما تشعر به بداخلك، ولكن ما تستطيع أن تُعبِّر عنه، وتثبته، في شكل أفعال ومواقف.

اعتدل بكُرسيه، الذي صَرَّ مُشجّعًا، وأمسك هاتفه وكتب:

"أنا ما اعرفش انتِ عملتِ إيه في حياتك تستاهلي عليه العقاب.. بس اللي اعرفه إن أنا عقابك.. ما هو لما واحدة زيك تحب واحد زيي يبقى أكيد تخليص ذنوب.. والله العظيم باحبك.. ووالله العظيم مقصّر معاكِ.. ووالله العظيم عارف عيبي.. بس والله والله انتِ أغلى عندي بكتير من أي حاجة في الدنيا.. أنا بس ساعات بتروح مني.. وما حدش ما بيغلطش.. وليكِ حق تزعلي.. بس اوعي تقولي كلام معناه إنك بتفكري تبعدي.. ما فيش الكلام دا.. هاعتذر وهاتعدل وهاعمل اللي اقدر عليه عشان آخد بالي بعد كدا.. بس سامحيني"

أرسل الرسالة وترك الهاتف على المكتب، وبقيت عيناه معلّقتان به، في انتظار الرد.

بعد دقيقة من الصمت والترقب، دلف شريف معاونه مندفعًا إلى مكتبه، لينتزعه من شروده وانتظاره بقسوة، وقال وهو يناوله ملفًا جاء به إليه:

- تقرير الطب الشرعي.

التقط وائل الملف شاردًا، ونصف وعيه لا يزال في انتظار رد حبيبته، وسأل بشرود:

- فيه حاجة غريبة؟

- ما قريتوش.. أصل أنا عندي مشوار ومستعجل.. هامشي أنا ولو في حاجة كلّمني، قال وهو لا يزال واقفًا في منتصف الغرفة، مشدودًا كالوتر.

- ماشي خلاص.. توكل على الله.

غادر شريف، وهزّ وائل هاتفه، وكأنه يتأكد من أن هاتفه ما يزال صالحًا للعمل، وكأن هزَّه إياه سيُعجِّل بوصول الرد الذي ينتظره.

زفر وائل بضيق بعد دقيقتين من الانتظار، ثم ضرب جرس استدعاء مُجنّده، الذي دلف إلى مكتبه مُلبّيًا، فطلب منه أن يوصي الساعي بإعداد قهوته كما يحبها، وصرفه، ثم قال عندما هَمّ راضي بالمغادرة:

- وصّي ع القهوة وتعالى يا راضي عاوزك.

"ربنا يستر" فكّر راضي.

عادت عين الرائد لتتعلق بهاتفه، وشروده بادٍ على ملامحه.

"معقول مش هترُد !!"

عاد راضي ومثُل بين يدى الضابط، الذي أشعل سيجارة، وأشار له بالجلوس قائلًا:

- اقعد يا راضي.

تابع الرائد مُجنده وهو يجلس، حتى يُربكه، ويسهُل استجوابه، وانتزاع منه الحقيقة، ولما تأكد من ارتباك راضي، ومن استعداده تمامًا للاعتراف بكل شيء، سأله مباغتًا وهو يعتدل في اتجاهه:

- كان اسمه إيه الواد اللي جه أخد وادّى معاك في الكلام امبارح يا راضي بخصوص القسم هنا؟

- ااااا.. سعادتك كان اسمه أحمد يا وائل بيه.

كسى الغضب ملامح الضابط، عندما تأكدت شكوكه، فهو لا يعلم من الأساس من سرّب المعلومة، ولكنه أوقع راضي، بكل سهولة، مُستخدمًا أقدم حيلة في الكتاب.

- صحفي؟

- لا يا وائل بيه.. وعزة جلال الله.. دا شغال في المكالمات.. كان جاي يسأل على حضرتك عشان يستفهم منك عل... قاطعه الرائد، عندما جاء محمود بقهوته، فقد حصل على مبتغاه بالفعل، ولا يهمه معرفة الكذبة التي ادعاها هذا الـ "أحمد" ليوقع راضي في شباك تصديقه، حتى يحصل منه على معلومات سرّية. وأشار الرائد لراضي ناحية الباب، ليخرج المُجنّد دون تأخير، ويغلق الباب خلفه.

قرّب الرائد قهوته إليه، بعدما تأكد من أن هاتفه يعمل، ومن عدم وصول رسالة من مَيْ، ثم فتح الملف الذي يحوي تقرير الطب الشرعي، وشرع يقرأ بتركيز، ويشرب قهوته باستمتاع.

مرّت الدقائق بطيئة، جاءت خلالها رسالة، لَم يلحظ وصولها الرائد عندما وصلت، كعادته، عند انهماكه في التفكير، ولم يلحظها عندما التقط هاتفه، واتصل بشريف معاونه، قال بمجرد سماع صوته:

- شريف.. معاك ورقة وقلم؟

- ورقة وقلم؟!! آه.. لا لا.. ثواني كدا. وسمعه وائل بنفاد صبر، وهو يطلب ورقة وقلم من أحدهم، وقال بمجرد أن عاد إليه النقيب:

- عاوز بكرة الصبح تسجيل كاميرات مراقبة مول سيتي ستارز.. الساعة... وصمت لثوانٍ، ثم مدّ يده يلتقط مُفكرته، وقال:

- ثواني... وفتح المفكرة على صفحة "الانتحار"، وقرأ منها:

- الساعة ١١:٤٩ دقيقة. ترك المُفكرة، وقال بتوتر:

- بُص يا شريف.. الراجل جوز الست اللي ماتت المفروض على كلامه كان هناك وقت اتصال جاره.. روح لهم الصبح.. شوف التسجيلات واتأكد إنه كان موجود هناك.. ولو لقيته اعرف لي كان هناك من إمتى.. وعاوز تسجيل من أول دخوله المول لحد خروجه منه.

- تمام.. هو في حاجة في تقرير الطب الشرعي؟

- بُكرة بقى يا شريف.. ما تشغلش بالك مش عاوز ابوّظ لك الخروجة.
وأغلق الخط، وبالطبع لم يلاحظ مدى سخافة ما قاله، لأنه بالفعل "بوّظ خروجة" معاونه.
عاد الرائد إلى تقرير الطب الشرعي مُجددًا، وكأنه يستنطقه ليؤكد شكوكًا غرزت أنيابها في صدر الرائد، حتى تذكر أنه كان في انتظار رسالة من مَيْ، فأمسك هاتفه، ليجد رسالتها في انتظار اطلاعه عليها، ففتحها:
"باحبك"
ابتسم وائل ابتسامة فرضت نفسها على ملامحه، ولكنها سرعان ما تلاشت عندما وقعت عيناه على تقرير الطب الشرعي الذي بدا وكأنه يقول له "دا وقت حُب؟"، فترك هاتفه، وشرع يفكر في كيفية تحوّل مسار القضية بعد هذا التقرير.
"يعني انت كنت لسَّا بتقول لنفسك إيه.. ومش هترد على رسالتها بكلمة حتى؟"
لامه ضميره، فنفض عنه، بصعوبة، شبح قضية السيّدة مؤقتًا، وأمسك هاتفه، وكتب وهو يقوم ليغادر مكتبه رغمًا عنه:
"ممكن بقى آجي لك؟؟ بس تنزلي.. مش عاوز اطلع.. بصراحة: مش طالبة سيادة اللواء"

* * *

٣٠

اعتدل عماد المنسي في جلسته، وفَرَك قطعة صغيرة من الحشيش فوق طعام كلبته الصغيرة صوفي، التي وقفت تتابعه بلعاب سائل. كانت تعلم جيّدًا أن ما يضيفه عماد، سيصيبها بالخدر، لأنها جرّبته من قبل، ولكنها لا تمانع، بل ترغب فيه.

فمقولة "مَن عاشر القوم" تنطبق على الحيوانات أيضًا.

دقّات على باب الشقة، عجّلَت بانتهاء عماد من فرك الحشيش، ولَم تهتم صوفي، باستقبال القادم، كعادتها؛ فالجوع ضيف ثقيل، لا يسمح لمضيّفه بأن يستمتع بأي شيء طالما هو موجود.

فتح عماد الباب، وتحرك ليسمح لأسماء بالدخول، وابتسم قائلًا:

- سمسم بقى.

دخلت أسماء وانحنَت تداعب رأس الكلبة، التي رفعت رأسها لثوانٍ لتقبَل التدليل، بأدب، ثم عادت لطبقها تأكل بفوضى وتعجُل طفل.

- هلكانة، قالت أسماء وألقت بجسدها على الكنبة بإنهاك، ثم أضافت:

- عندك حاجة تتاكل؟

غمَز مُبتسمًا وهو يتجه صوب الثلاجة:

- عندي حاجة تتشرب. وأخرج زجاجتي "بيرة"، لتراهما، ثم أعادهما، وأغلق الثلاجة. ثم عاد إلى الكنبة وهو يكمل:

- وحاجة تتعَفَّر. وأشار إلى سجائر ملفوفة بعناية على الطاولة أمامهما. ثم قال:

- والأكل جاي في السكة.. أما الحلو بقى.. فوصل قبل الحادق. وغمَز لها في إشارة إلى أنها هي المقصودة بـ"الحلو".

فابتسمت، وقالت بمرح:

- الله الله.. إيه الدلع دا كله؟ دا انت مزاجك في السما.

- ولسَّا لما ناكل ونشرب ونعفّر. وصمت لثانية غمَز، خلالها، إليها بمرح، ثم أضاف:

- ونحَلّي.

- يا راجل طب مش كنت تقول.. كنت سعيت لك تنشر مقالك من بدري طالما هيظبطك كدا.

- هو انا كنت كئيب قبل كدا؟ أنا بس مبسوط عشان المقالة سَمّعت. ثم التقط هاتفه، وقال:

- تصدقي أنا جالي فوق الـ٦٠٠ friend requests على أكونت "حشرة" لحد دالوقت بس؟

- ولسَّا لما تعرف إن في كلام في لوبي المعارضة إنهم بيفكروا يستغلّوا نجاح المقال.. وتبقى سلسلة مقالات.. في أفكار كتير.. بس باختصار يعني عشان مش قادرة اتكلم قبل ما آكل.. في ناس تقيلة في المعارضة هتعرض عليك قريب شغل.. وهيكون ليك دور مهم في توصيل رسايل مهمة للجمهور.

انتفض عماد، وسأل بفرح:

- بتتكلمي بجد؟ يعني هيبقى ليَّ دور حقيقي؟ ثم عاد وعقد حاجبيه وسأل بتوجس:

- رسايل ازاي يعني؟

- يا ابني ما تبقاش غشيم وحمار.. إيه اللي رسايل ازاي؟ هتبقى جاسوس يعني؟ ما تصحى بقى وتفوق.. احنا في ٢٠١٠.. القصة وما فيها إن رسايل المعارضة لما بتتقال بجمود وبشكل مباشر.. مش بتوصل بشكل مؤثر لشريحة كبيرة من الناس.. الناس مش بتصدق الباشا أبو بدلة بالشيء الفلاني لما بيتكلم عن الفقر والقهر.. الكلام لازم ييجي من حد شبههم.

وكمان لأن دايمًا إعلام النظام الفاجر بيشوّه المعارضة.. ويحُطهم في خانة المُخربين.. وخانة عبده مشتاق.

فدايمًا اختيار طريقة توصيل الرسالة.. والرسول نفسه.. بتكون جزء أساسي من الرسالة.. دي كلها حاجات أخدناها في كورسات.. ازاي تأثر في الجمهور.. وازاي توصل فكرتك.. ومين يقولها. فاهم حاجة؟

- آه معاكِ. قال بانتباه.

قفزت صوفي إلى جوار عماد، الذي داعب رأسها، فنامت على ظهرها، ليداعب بطنها، فامتثل، وهو يستمع بتركيز شديد إلى أسماء، التي أكملت:

- انت بقى موهوب في الحتة دي بالفطرة.. دي اتقالت قصادي النهاردا من الأستاذ عاصم سليمان نفسه.. قال الولد دا موهوب.. لو اتوجّه صح.. هيفيدنا جدًّا.

- عاصم سليمان كبير معارضي النظام بنفسه؟ بس دا... وارتجف صوته لثوانٍ برغم محاولته إخفاء توجسه، وأكمل:

- دا يعني مش هيسبب لي مشاكل مع الداخلية؟ انتِ عارفة أنا مش وِش بهدلة.

- يا ابني انت ما فيش حاجة ضدك.. دا أكونت كتب مقالة وبعدها صفحة ع الfacebook عجبها وعملت له share. ودا اللي خلّاهم يقولوا هو يعمل حساب ويكتب المقال واحنا ننزله.. عشان ما يبقاش في حاجة تربط اللي كاتب المقال باللي ماسكين الصفحة.. دول اللي الداخلية بتدوّر عليهم.. ودول اللي ما حدش يعرفهم غير قليلين جدًّا.. بس هما برَّا مصر.. دا أكيد.

وبعدين أساسًا لو اتمسَكت.. هما يومين وهنقلب الدنيا وهتطلع.. وساعتها هتبقى بطل ومناضل رسمي.

ما تقلقش.. دي لعبتنا.. مش حد مننا اللي ممكن يتفرم ويتسكت عليه ولا يختفي أو يتخطف.

هَزّ عماد رأسه مُتفهمًا، فهذا هو كل ما كان يتمناه يوم ركوبه القطار، وتوجهه صوب القاهرة.

يعلم أنها قاهرة، ولكنه لم يأتِ ليُقهَر.

ولكنه أيضًا، يعلم عن بطش النظام بمعارضيه، ولا يستطيع منع الخوف والقلق والتوتر من النيل منه.

"ما فيش حد بيوصل بسهولة.. وانت مِختار طريق صعب بس يستاهل.. البلد دي تستاهل.. اجمد يا عُمدة" فكّر وداعب صوفي، التي هزّت ذيلها بكسل، وكأنها سمعت جُملته الصامتة وتؤيدها.

- أنا بس مش غايظني غير الاسم الله يقرفك.. حشرة؟ قالت أسماء بامتعاض.

قام فجأة، وكأنه أراد أن ينفُض عنه الخوف قبل أن يتمكّن منه، واتجه صوب السمّاعات الرديئة في آخر الغرفة، وضغط زر التشغيل في جهاز Mp3 Player صغير، موصَّلًا بها، لينطلق صوت عبد الحليم حافظ من السمّاعات:

وان لَقاكم حبيبي سَلِّموا لي عليه..

- ومالها الحشرة؟ ماهو Spiderman حشرة.

طمِّنوني الأسمراني عاملة إيه الغُربة فيه..

* * *

لم تعشق بَعد.. حتى يُغيّرك العشق.

٣١

خرجت مريم من باب العمارة التي تسكُن بها، واضعة نظارتها السوداء لتقيها من شمس الصيف، التي لا ترحم، لتجد عُمر منتظرًا إيّاها بجوار سيارتها.

كانت الشمس ساطعة، والسماء بلا سُحب، ولكن نسمة صيفية رائقة كانت تجول في الفضاء، ساهمت مع صوت العصافير القليلة، التي ما زالت تحتفظ برصيد، ولو قليل، من نشاط الفجر، في إضافة على السماء بهجة، لم تنجح حرارة الشمس القاسية في تعكيرها.

لَم يلحظ اقترابها منه في البداية، حتى وصله عطرها، فأدار رأسه صوبها وابتسم، فقالت:

- لا أنا كدا هابتدي اخاف منك.

نظر إليها، وابتسم قائلًا:

- حقِّك.. أنا يتخاف مني فعلًا.

- لا يا شيخ؟ دا انت حتى شكلك ما تعرفش تأذي فرخة.

اعتدل ناصبًا قامته، فاسحًا لها الطريق لتركب سيارتها، وأجاب:

- ما هي دي الفكرة.

ابتسمت ولم تُجِب، ثم ركبت سيارتها، وفتحت الزجاج، وقالت:

- طب وانت هتسند على إيه بعد ما آخد عربيتي وامشي؟

ضحك، وأجاب:

- تمشي تروحي فين؟ أنا فصلت البطارية.. مش هتدور أصلًا.. عشان تتحايلي عليَّ أوصَّلِك.

عقدت حاجبيها لثوانٍ، وتفحّصته بحثًا عن أي أثر لمزاح في كلامه، أو جدّية، فلم تجِد، كانت ملامحه محايدة بثقة، برغم ابتسامته، فمدّت يدها وأبقت عينيها عليه، وأدارت مُحرك السيّارة، فدار بشكل طبيعي، فضحكت، ثم رسمت علامات الامتعاض على ملامحها عندما ضحك باستمتاع لأنه خدعها، وقالت:

- ما تقدرش أصلًا.

- لو تعرفيني كويس مش هتقولي كدا.

انتبهت لجملته، وسألت بصدق:

- ليه؟

- عشان أنا ما فيش حاجة ما اقدرش ما اعملهاش.

- مغرور.

هزّ رأسه نافيًا، وأجاب:

- شاطر.

رفعت أحد حاجبيها بتشكُّك، وعدم اقتناع، ثم قالت:

- طب بعد إذنك بقى عشان... وانتظرت أن يتحرك ليُفسح لسيارتها طريق الخروج، دون رغبة حقيقية.

- إيه؟ عندك ميعاد مع روايتي في "الكافيه" وخايفة تتأخري عليها؟

- انت كمان عارف أنا رايحة فين؟

- دالوقت عرفت.

ضحكت، فتحرك ليدور حول السيارة، واستفزها انه دار من خلف السيارة، فلم تتمكن من النظر إليه جيّدًا وتفحصه، كما كانت ستفعل لو دار من أمام السيارة، حيث أنها لا تستطيع أن تتفحصه وهو ينظر إليها بسبب خجلها.

فتح الباب المجاور إليها ودلف إلى السيارة، وقال بثقة:

- أنا كنت ناوي استنى لحد ما تخلّصي الرواية وبعدين آجي اعرف رأيك.. وآخد عزومتي.. بس بصراحة شُفتك نازلة.. طلبت معايا آجي معاكِ. ممكن؟

نظرت إليه بشَك، وسألت:

- شُفتني فين؟

- آه صحيح.. أنا ساكن في العمارة دي.. الدور المقفول بقزاز اسود دا. وأشار صوب شقّته.

نظرت صوب شقّته، ثم نقلت نظرها إليه، وقالت بغضب:

- وانت بقى بتراقبني؟

أجاب بهدوء وثقة، كأنها سألته عن الوقت:

- مش Stalking يعني.. بس بالاحظك. انتِ في وش البلكونة.. صعب ما اشوفكيش.

لَم تُجِب، ولَم تتحرك بالسيارة، ولَم ترفع عينيها عنه، حتى قال بصِدق:

- أنا مش باراقبك يا... وتذكر أنه لا يعرف اسمها، فأكمل:

- مش باراقبك.. أنا بس محتاج صاحب.. مش أكتر من كدا. وشُفتك وحسيت إننا ممكن نبقى أصحاب. بس لو ضايقتك.. اعتبريني ما حصلتش. بس أنا محتاج صاحب.. زيّك بالظبط ويمكن أكتر.

قالت وهي لا تزال ثابتة في وضع استجوابه:

- وانت عرفت منين بقى إني محتاجة صاحب؟ بتراقب مكالماتي؟

- ما بلاش وضع الـattack دا.. أنا كان ممكن اقولك أي حاجة تصدقيها.

صمتت لثوانٍ، فكّرت خلالها في منطقه، الذي وجدته سليمًا، فهو لَم يراوغ، ولَم يكذب، وملامحه صادقة بشكل مريح، وهو في النهاية أصاب الحقيقة عندما ذكر حاجتها لصديق، فهي تملك من الوقت الفارغ أكثر بكثير مما تستطيع صديقتها الوحيدة چينا ملأه.

لَم يضغط، لَم يحاول إقناعها، فقط انتظر هناك، بملامح محايدة، مُطَمْئِنِة، مُطْمَئِنَّة.

"هذه الملامح لا يمكن أن تكون كاذبة، ولو كانت كذلك، فهو بارع للغاية، بارع لدرجة استحقاقه لفُرصة"

بعد صمت متوتر منها، وانتظار واثق منه، أمام نظراتها المتفحصة، تحركت هي بالسيارة صوب "الكافيه"، حيث اعتادت أن تذهب لتقرأ، لتعطي هذا الغريب فرصة ستُغيّر حياة كل منهما.

* * *

٣٢

- مظبوط يا أحمد بيه.. دي جريمة قتل بدون شك.
- أول ما اوصل مكتبي هابُص ع التقرير.. وهارجع لك. في حد معيّن في بالك؟
في تلك اللحظة، دلف النقيب شريف إلى مكتب وائل، الذي لَم يسمع طرقاته التي سبقت دخوله. فرفع حاجبيه في تساؤل واضح، ليرفع شريف اسطوانة أمام وجهه، وكأنه توقع السؤال، وفهمه دون كلام، فرفع الرائد علامة الإجادة أمام معاونه، وأجاب مُحدثه عبر الهاتف:
- أنا لسَّا واصلة لي حالًا تسجيلات كاميرات المول.. هاتأكد من مكان الزوج وقت الوفاة.. وهنتكلم تاني أكيد.
- تمام.. الله المُستعان.
- سلام مؤقت يا أحمد بيه.
- مع السلامة.
أغلق وائل الخط، ومال بظهره إلى الخلف، وبدأ كُرسيه الكلام بصريره المُعتاد، ليُكمل الرائد بحماس:
- قتل مش انتحار.
- معقول؟!! سأل النقيب وهو يشعل سيجارته.
- ١٠٠٪.. طمّني.. لقيته؟ قال وائل وهو يضغط زر استدعاء راضي.
مَدّ شريف يده بالاسطوانة إلى الرائد، وأجاب:

- موجود هناك من قبل ١١.. ومشي بعد مكالمة جاره على طول.

دخل راضي إلى المكتب، ليطلب وائل قهوته، وقال شريف للمُجند:

- وانا كمان يا راضي.. من بُن وائل بيه.

- المرة الجاية لما هاشتري بُن.. انت اللي هتحاسب عليه. قال وائل مُحذِرًا، فهزّ شريف رأسه موافقًا، وقال:

- آمين.

- طب قُل لي.. طول الوقت كان قصاد الكاميرات؟ ما هو ممكن يبقى ظهر واختفى ورجع ظهر تاني.

نفى شريف بهزّة من رأسه وهو يسحب نفسًا طويلًا من سيجارته، ثم أتبعها بقوله:

- لا لا ماغابش عن الكاميرات ثانية.. أنا تابعته بنفسي.. والCD معاك فيها طول فترة وجوده في المول.. من لحظة دخوله لحد ما خرج.

- طب عاوزين لابتوب نشوف الحاجة دي عليه.. ما تشوف لنا حد من ظباط الوردية برًا معاه جهاز نستلفه منه.

- حاضر.. أشرب بس القهوة وهاتصرف لك في جهاز.

دلف محمود الساعي حاملًا قهوة الضباط، وكأنه جنيٌّ حقق أمنية شريف بمُجرد أن نطقها الأخير، وفي الحقيقة، لو كان جِنيًّا، ما كان لشريف أن يطلب سوى قهوته، بسبب سهره ليلة أمس، واستيقاظه مبكرًا للحصول على التسجيلات، وأيضًا بسبب عدم قُدرته على التركيز.

- كنت بتكلم أحمد بيه سامح وكيل النيابة؟ سأل شريف بعد أول رشفة.

- اممم. قال وائل بشرود، مومِئًا بالإيجاب.

- في إيه في تقرير الطب الشرعي بقى؟

رفع وائل تقريره، وناوله لمعاونه، وقال وهو ينظر إلى مُفكرته:

- المسافة.. والبصمات.. والبارود.. كلّهم بيؤكدوا إن ناهد مش هي اللي ضربت نفسها بالرصاص.

وضع النقيب التقرير إلى جواره، على مكتب وائل، وبدأ يُطالعه بتركيز.

قال النقيب بعد أن فرغ من القراءة:

- المسافة مش دايمًا دقيقة.. معروفة، بس في علامات استفهام مش مفهومة فعلًا.

اعتدل وائل وأجاب مؤكدًا:

- الزناد ما فيش عليه بصمة.. ازاي؟

فكّر شريف لثوانٍ ثم أجاب:

- ممكن تكون ضغطت الزناد بظافرها.. مش ببطن عُقلة صُباعها.. بتحصل.

- يا شريف.. يعني هي اشترت سلاح.. ومافيش ولا مرة لمست الزناد؟ دا أول حاجة أي حد بيعملها لما يمسك سلاح.. بيحط إيده على الزناد كأنه بيضرب بيه، دي شهوة لا يمكن السيطرة عليها.

ثم فتح ملفًا أمامه، وأخرج منه صورتين ناولهما لشريف، وقال شارحًا وهو يشير صوب الصور:

- شوف دي بقى.. بصماتها على إيد السلاح في اتجاه الماسورة، اللي بيمسك سلاح بيحُط إيد السلاح على كف إيده.. ويلف إيده حواليها فبصماته بتكون على إيد السلاح عكس اتجاه الماسورة.

صمت لثوانٍ ليُعطي لمعاونه الفرصة لمراجعة ما قاله، ثم أكمل:

- ما فيش بصمة واحدة على فارغ الرصاصة.. يعني حطت الرصاصة في المسدس من غير ما تلمسها؟ ما فيش بصمة واحدة على ماسورة السلاح.. يعني سحبت الماسورة من غير ما تلمسها؟ بصماتها موجودة بس على إيد المسدس.

ودا مالوش غير معنى واحد.

أكمل شريف جُملة رائده الذي صمت، وهو يومئ برأسه:

- إن حد قتلها وطبع بصاماتها ع السلاح.

خيّم صمت ثقيل على المكتب لدقيقة، ما كان ليُخيّم عليه لو كان للأفكار صوت، فكُل من الضابطين كان غارقًا في تفكير صاخب، وتساؤلات بلا نهاية، ولا إجابات، حتى قطع النقيب الصمت، قائلًا:

- طب نبلّغ المُديرية بقى.. ونشتغل في الاتجاه دا.

- بالظبط. اعتدل وائل، وأكمل بعد انتزاع معاونه له من تساؤلاته:

- عاوز اقابل الجار ومراته.. والبواب.. وأقرب حد للقتيلة.. أم، أخت.. ونشوف بعدها هنوصل لفين. ثم أكمل عندما لمح الاسطوانة التي أمامه:

- وعاوز جهاز يا شريف اشوف عليه التسجيل دا، جهاز البحث مش هينفع ما انت عارف.

- حاضر.. هاتصرف أنا، قالها النقيب، ثم غادر المكتب ليُنفذ.

"فينك يا أحمد خالد توفيق؟ قضية الغرفة المغلقة بامتياز أهِه" فكّر الرائد، وهو يرسل رسالة نصيّة لخطيبته، كما قَرر أن يفعل، بعد شجارهما الأخير، على مدار اليوم، كنوع من إثبات الاهتمام، وإعطائها حقّها من وقته. كان يعلم أنه يجب أن يفسح لها مكانًا في وسط يومه؛ هذا واجبه، وحقها.

* * *

مذكرات

٨

وكأن اغتيال الحياة فيها، وفيّ، لا يكفي..

وكأن قتله لها، في حياتها، ألف مرة لا يكفي..

فقاموا بإعادة قتلها، وتعذيبي، مُجددًا، بسلاح سوء الظَنّ، والتشويه..

لَم أحتمل مشاهدته وهو يدّعي التأثر، وهو يصافح المُعزّين، المُدّعين مثله..

كيف قبلوا أن يتقبّل القاتل عزاءه في من قتل؟

واجهته.. ولعنته.. وأعلنته قاتل حياتي..

وسط حاشيته.. ووسط حاشيتي.. التي ألقت بأخشاب الطعن، إلى نار الكذب، التي أشعلها هو بذكاء ثعلب خبيث، لتعلو، وتحرق كل شيء، كان يربطني بهؤلاء..

ألم يكفيكم السكوت على مقتلها؟ وتقديم العزاء للقاتل؟

ادّعى أنها كانت تعشقني، وأنه علِم بهذا بعد انتحارها، من مُذكراتها..

وصمها، وإيّاي، بالعار.. واعتبر الجميع مُهاجمتي له الدليل الدامغ على صِدقه.

لم أبالِ بعاري.. وقتلني عارها.

انتقلت النار، تحرق سيرتها، على ألسنة من كان يجب عليهم أن يطفئوها.

* * *

٣٣

فتح عُمر باب "الكافيه"، سامحًا لمريم بالدخول قبله، ثم تركه ليعود ببطء إلى مكانه، ليوقف دخول ضجيج العاصمة، الذي تسلل عندما فتح عُمر الباب إلى داخل "الكافيه"، مُعكّرًا هدوءه، وموسيقاه الساحرة، وجوّه المُكيّف، لثوانٍ، وهو يقول:

- آه والله بجد.. ما بانساش.

رفعَت حاجبيها في غير تصديق، وقالت وهي تجلس:

- ياه.. الحكاية دي أكيد قاسية جدًّا. مش مُتخيّلة.

ابتسم، في شكل زفرة خفيفة حَمَلت من الهَم الكثير، وقال:

- اتعوّدت.

- لا يمكن حد يقدر يتعوّد على حاجة زي دي.

جاء محمد النادل، وانصرف بعد كتابة طلباتهما، لتسأل مريم:

- ازاي ممكن حد يتعوّد على حاجة زي دي؟

تنهّد عُمر تنهيدة طويلة، وكأنه يرغب في إتاحة مزيد من الوقت لنفسه، حتى يفكر في إجابة سؤالها.

"هل يجدُر بي الإجابة بصدق على هذا السؤال؟ علمًا بأن هذا أول لقاء حقيقي بيننا" سأل نفسه، ثم أجابها - مريم- ، بصدق:

- بالبُعد عن الناس.. والتعَب.

أجابها بعد اتخاذه قرارًا، أن يصارحها بكل شيء، فلجوؤه إليها في الأساس، كان بسبب حاجته لصديق، خارج إطار فريق عمله، ولا يصح ولا ينفع أن يتخذ المرء صديقًا، ويكذب عليه، وإلا فلماذا يصادقها من الأساس؟

حملت نظرتها تأثُرًا واضحًا، وقالت:

- ليه تبعد عن الناس؟ وما فهمتش التعب.

انتظر عُمر حتى غادر محمد بعد وضع المشروبات بينهما، وقال دون أن ينظر إليها مباشرة:

- الناس بتغلط أكتر ما بتعمل أي حاجة تانية يا مريم. عن سهو.. أو إهمال.. أو قسوة.. أو حقد.. غِل.. غيرة.. غباء.. طمع. غلط الناس مع حد ما بينساش زيّ بيتحول لجحيم، مع الوقت كل اللي بيقرب مني.. لسبب ما بيغلط.. ولما بيغلط - ودا طبيعي- أنا ما بانساش.. يبقى الحل إيه؟ ما اقرّبش من حد. إلا لو تعرفي سكة بلد الملايكة بقى؛ أنا لعنتي علاجها الوحيد "المدينة الفاضلة".

ابتسم ورفع رأسه ونظر إليها متوقعًا نظرة الشفقة، التي تثير غضبه، فهو لم يكُن، ولن يكون أبدًا ضعيفًا أمام لعنته حتى يستحق الشفقة، ولكنه

وجد بدلًا من تلك النظرة التي توقعها، نظرة شغف وإعجاب. سحرته النظرة تلك، حتى أنه ابتسم، وسأل:

- ما لك؟ بتبُصي لي كدا ازاي؟ ثم صَحّحَ، وقال:

- ليه؟ اقصد بتبُصي لي كدا ليه؟

- كدا ازاي؟

- كدا. وأشار إلى وجهها، فضحكت وقالت:

- أنا مستغربة بس.

- من؟

- عشان انت فيك شبه كبير منّي.

رفع كوبه ليشرب منه وقال مازحًا:

- انتِ مش حلوة قوي كدا يا مريم.. انتِ حلوة.. بس مش للدرجة دي. وضحك بمرح.

- بَطّل.. أنا باتكلم بجد.. أنا واحدة معقدة يا ابني. ما كنتش اتوقع ألاقي حد معقّد زيي كدا.. وكمان تطلع عادي.

- عادي ازاي؟ كنتِ متوقعاهم بـ٣ أرجل.. وعين واحدة؟

- يا ابني لأ.. كنت متوقعة الراجل المعقد دا بنضارة كدا.. ووشه بيحمر لما بنت تكلمه.. وبيلبس بنطلون قماش ويدخل القميص جوا.. عارف انت الجَوّ دا؟

- آه.. وطربوش. بنطلون إيه وبتاع إيه؟ احنا في ٢٠١٠. قال مُستنكرًا.

- اتريق اتريق.

- طب وانتِ بقى متعقدة ليه؟

كسى وجهها ضيق واضح، وأجابت بعد زفرة حارة:

- بابا الله يرحمه.. من ساعة ما سابني وانا رافضة اتعلق بحد عشان ما يسِبنيش تاني، إحساس الفقد دا وحش قوي يا عُمر.

حاول أن يبتسم مواسيًا، ولكنه فشل، فهَزّ رأسه متفهمًا، وقال:

- اسأليني أنا.. فاكره، وأشار إلى عقله.

أصدر هاتف عُمر المحمول رنينًا خافتًا، فاستأذن الأخير مريم ليُجيب:

- أيوة يا هيثم.

- بُص يا كبير.. قصة أعرف مين حشرة دي صعبة جدًّا.. أنا دخلت رسايل الfacebook بتاعة الصفحة.. بس الرسايل ممسوحة.

- انت مش قُلت قبل كدا ما فيش حاجة بتتمسح في الحقيقة؟

- أيوة.. بس بتتفركش إلكترونيًا. بُص هي زي ما تقول كدا.. ورقة ومليانة كلام.. وانت قطعتها ١٠٠ حتة.. هتلاقي الكلام.. بس مش هتعرف تفهم منه حاجة.

- طب وبعدين؟

- الحاجة الوحيدة اللي قدرت افهمها إن المقال دا له علاقة بواحد اسمه عماد. ما اعرفش اكتر من كدا.

تذكر عُمر، فورًا، نظرًا لذاكرته الحديدية، اسم عماد المنسي، صاحب مقال "النوم في العسل"، فأجاب:

- تمام.. كدا زي الفل.

- في حاجة تانية.

- ها؟ بنفاد صبر.

- أنا معطّلك؟

- اخلَص.

- الحاج ثروت الناظر مش عاوز يدفع فلوس عملية القسم.. وعاوز يقابلك شخصيًّا.

عقد عُمر حاجبيه، وكسا الغضب والاستغراب ملامحه، وقال:

- إيه الهبل دا؟ هو البرنامج ما اشتغلش؟

- لا بالعكس.. البرنامج اشتغل زي الفل.. في حد استخدم الجهاز النهاردا.. والبرنامج اترفع وكله تمام.

- طب ليه بقى مش عاوز يدفع الفلوس؟

- مش عارف بس هو عاوز يقابلك.. واللي بيراسلني قالي الحاج عجبه شغلك جدًّا وعاوز يشتغل معاك.

- آه.. فهمت. طب بُص؛ ابعت التقرير دا لنادر.. وقُل لُه عاوزين نتصرف في الموضوعين النهاردا.. وقُل له حشرة دا هو "عماد المنسي" بتاع "النوم في العسل" هنشوف.

- النوم في العسل بتاع عادل أدهم؟

- لا وانت الصادق النوم في العسل دا اسم الصنف اللي انت مصطبح بيه.. فوق واعمل زي ما قُلت لك.. سلام.

أعاد هاتفه إلى الطاولة، وابتسم محاولًا أن يغطي على ملامح الغضب التي اعتلت ملامحه منذ ثوانٍ، وفشل:

- ما لك؟

تنهّد، وقال بضيق:

- ما هو دا بقى التعب.

- تعب؟! استَفسَرَت.

- مش أنا قُلت لك أنا اتعوّدت على حالتي؛ بالبُعد عن الناس.. والتعب؟

- آه صحيح.. نسيت.

ابتسم وقال:

- بس أنا ما بانساش. ثم أكد:

- حرفيًّا.

ضحكت وسألت:

- ما له التعب؟

- شُغلي.

- مُتعب؟

- جدًّا.. ودي ميزته.. وكمان مُسلّي.. وخطير.. بيخلي دماغي تطفي ما تفكّرش.
أكتر وقت بارتاح فيه لما دماغي تبطل تفكير.. ودا بيحصل وانا باشتغل.

- وانت بتشتغل إيه؟ سألت بفضول واضح.

نظر إليها لثوانٍ، ثم أجاب بابتسامة، وكأنه أراد بها تلطيف الجواب:

- شَقي.

* * *

٣٤

- اتفضل يا باشمهندس.. ماعلش بقى.. تاعبينك. قال وائل بسُخرية مُستترة، وهو يُرحِب بزوج القتيلة، عادل.

أجاب عادل، الذي بدا وكأنه بدأ يعتاد على فقدانه لزوجته، حيث يبدو وكأنه قد حصل على قدرٍ كافٍ من النوم، وإن بقيت لحيته مدببة كالشوك:

- لا يا وائل بيه.. ما فيش تعب ولا حاجة.. خير؟!

- ارتاح الأول طيب ونطلب قهوتنا وبعدين نتكلم.. مش كدا ولا إيه؟ وابتسم وائل.

- اللي تشوفه. أجاب الزوج بعدم ارتياح واضح لابتسامة الرائد.

"نجَحتُ" فكّر وائل عندما شعر بعدم ارتياح الزوج.

- اتنين قهوة واحدة مظبوطة للباشمهندس.. والتانية بتاعتي. قال الرائد مُخاطبًا الساعي، ثم نظر للزوج وقال:

- مش قهوتك مظبوطة برضه يا باشمهندس؟

- تمام.. سعادتك لسَّا فاكر، وابتسم مُجاملًا.

- أنا ظابط مباحث يا عادل بيه.. شُغلتي آخد بالي من التفاصيل.. وافتكرها. ثم اعتدل وأراح ظهره على كُرسيه، وأكمل مع صرير الكرسي السخيف:

- في شُغلنا دا يا عادل بيه.. أصغر التفاصيل هي اللي بتحِل أكبر القضايا.

وركّز نظره على الزوج، الذي نظر إليه بدوره ولَم يُجِب. وكأن كُل منهُما يحاول أن يقرأ أفكار الآخر. حتى تنهَّد وائل، وقال بجدّيّة مَن قرر أن يبدأ العمل:

- طبعًا يا عادل بيه أنا مش محتاج أفكّر سعادتك إن الكدب هنا هو أكبر غلطة ممكن تكون بترتكبها في حق نفسك.. وأكبر إهانة ممكن تتوجه لظابط مباحث.. مظبوط؟

هَزّ الزوج رأسه في عدم فَهم، ونال التوتر من ملامحه، ولَم يُجِب، فأكمل الرائد وكأن جواب الزوج الذي لم يصله لا أهمية له:

- معلومة تانية مُهمة برضه... وقطع كلامه عندما دخل محمود حاملًا القهوة، وأكمل بعد أن غادر الساعي:

- إن أي سؤال باسأله هنا.. وانت بتجاوب عليه.. أنا باتأكد من إجابته.. ما فيش في تحقيقات المباحث أمر مُسَلّم بيه.. ولا حد فوق مستوى الشُبُهات.. وطبعًا ما فيش حد مُتهم إلا بالدليل.. يعني مش عاوزك تفهم كلامي دا وكأنه توجيه اتهام لسعادتك من أي نوع.. دا شُغلنا العادي.. ومش مطلوب منك غير إنك تساعدنا نساعدك. ثم ابتسم بوِد، وأشار للزوج وقال:

- القهوة يا عادل بيه.

تنهّد الزوج ورفع فنجانه ورشف منه بتوتر، ثم سأل وهو يعيده:

- هو في جديد ظهر في القضية يا وائل بيه؟

- آه.. المدام اتقتلت ما انتحَرتش.

توتَر الزوجِ، ولَم يُعقِّب.

- هو في وثيقة تأمين على حياة المدام؟ سأل الضابط فجأة، عندما لاحظ توتر الزوج، فهذا أنسب وقت لسؤال غير متوقع، حتى لا يُعطيه مساحة للتفكير في إجابة مُنتقاه.

- نعم؟!! آه. أجاب بتردُد. ثم قال بلهجة متماسكة:

- في وثيقة تأمين على حياتي وحياتها.. يصرفها اللي عايش فينا.. بس تعتبر لاغية في حالات القتل أو الانتحار.

"إجابة دقيقة جدًّا.. وكأنه توقع السؤال وحضّر إجابته.. هذا الرجل مُجرم.. أو ذكي جدًّا.. أو كلاهما" فكّر الضابط. ثم فتح مُفكرته، وسأل:

- هاحتاج اسم شركة التأمين.

كتب الضابط الاسم حتى يتأكد من صدق معلومة الزوج، ثم قال وهو يشير صوب جهاز لابتوب موضوع إلى جواره:

- أنا وصلني تسجيل الكاميرات في المول لما جالك اتصال جارك.

- تمام.

- لاحظت حاجة كدا.. مش عارف.. يمكن أنا بحُكم شُغلي شكّاك زيادة عن اللزوم.. بس تعالى كدا نشوفه سوا.

عدّل الضابط وضع الجهاز، ليسمح للزوج برؤية الشاشة، ثم ضغط على زر التشغيل.. ليظهر الزوج وهو يدخل من بوابة كشف المعادن عند أحد مداخل المبني التجاري.

- عندي كذا مُلاحظة كدا محتاجين توضيح.. رقم واحد.. سعادتك قُلت معايا هنا إنك كنت رايح تعمل شوبينج عادي.. وبرغم دا ما دخلتش ولا محل.. انت بس اتمشيت وبعدين قعدت تشرب قهوة لحد ما جالك الاتصال. وصمَت.

قال الزوج وقد بدأت تظهر عليه ملامح الضغط، وشعوره بأنه مُتهم:

- أنا كنت هالِف واشتري.. بس بعد ما اشرب قهوتي.. وللأسف حصل اللي حصل فمشيت.

لَم يُعلق وائل، وإن تابع الزوج جيّدًا وهو يُجيب، وأكمل:

- رقم اتنين.. انت طول الوقت كنت قصاد الكاميرات.. يعني ما دخلتش حمام ولا محل.. حتى الكافيه اللي دخلته مفتوح والكاميرا كانت جايبة رجلك وانت بتدفع.. وأخدت كوبايتك وخرجت قعدت قصاد الكاميرا، اعذُرني أنا ظابط مباحث.. بالذمة مش لو مكاني هتحِس إن دا مقصود؟ إنك طول الوقت قصاد الكاميرا؟

تشتَّت نظرات الزوج لثانية واحدة، ثم أجاب مُستنكرًا:

- يا افندم أنا مش عارف أصلًا لو في مكان مش متصور ولا ما فيش.. بصراحة مش عارف المفروض أرُد اقول إيه.. حضرتك تقصد إني كنت عارف يعني إن مراتي هتتقتل وتعمدت أظهر عشان ابرأ نفسي؟

ابتسم وائل مُستمتعًا بانزعاج الزوج، وقال:

- أنا ما اقصُدش غير اللي باقوله.. لو قاصد حاجة هاقولها.. أنا ظابط مباحث مش بالقّح كلام. ثم أكمل دون انتظار رد فعل الزوج على تحذيره الودي:

- رقم تلاتة.. لو تلاحظ هنا. وأشار صوب الشاشة:

- دا الاتصال الوحيد اللي وصلك.. من جارك.. اتفرج معايا كدا. وصمت.

تابع الزوج نفسه وهو يُجيب على الهاتف، وتابع اعتداله على الشاشة، ثم وقوفه وملامحه التي انزعجت، ثم توجّهه صوب باب المبني التجاري. ثم نظر إلى الضابط، الذي سأل بخُبث:

- أخدت بالك؟

هَز الزوج رأسه، وسأل:

- من إيه؟ مش فاهم.

ضغط وائل زر إعادة التسجيل إلى الخلف للحظات، وتوقف عند وصول اتصال الجار، ثم ترك التسجيل يعمل بالسرعة العادية، وقال:

- تاني كدا.. شوف وقُل لي: مش ملاحظ حاجة غريبة؟

تابع الزوج التسجيل بضيق، وتابع وائل الزوج بصبر، وقد وضع إصبعه على زر الإيقاف، وعند ثانية مُحددة، ضغط إيقاف، لتتوقف الصورة على لقطة لَم يلحظها الزوج في المرة الأولى، ولَم يتوقعها، وظهر عدم توقعه جليًّا من عرقه الذي ملأ جبينه فجأة، وهو ينقل بصره بين الضابط وشاشة اللابتوب على تلك اللقطة.

كان الزوج على شاشة اللابتوب، في تلك اللقطة، ينظُر مباشرة إلى عدسة كاميرا التصوير، وكأنه يريد أن يتأكد من أن تلتقط الكاميرا صورة وجهه كاملًا، لتثبت وجوده في هذا المكان، في تلك اللحظة.

* * *

٣٥

- شقي؟!!

تساءلت مريم باستنكار، عاقدة حاجبيها دون فَهم. وبصوت عالٍ نسبيًّا، طغى لثانية على هدوء المكان، الذي كان أي صوت فيه أعلى من الهمس بقليلٍ يمكن تصنيفه كضجيج، ولكنها لم تُلاحظ تعكيرها هدوء المكان، بسبب فضولها.

- آه شقي، عارفة معنى كلمة شقي؟ يا متعلّمة يا بتاعة الروايات؟ وابتسم مُداعبًا.

فكّرت لثوانٍ، ثم سألت:

- يعني تعيس.. انت بتشتغل تعيس؟ بعدم فهم.

- لا كدا هاقوم امشي.. ركّزي معايا.. حد بيشتغل تعيس يا مريم؟

- ما هو شقي معناها تعيس. أو.. آه... ثم قطعت جُملتها ونظرت إليه لثوانٍ، ثم قالت بتردُد خافت:

- خارج عن القانون.

لَم يُعقّب. كان يسمح لها باستيعاب ما قالته لتوّها، ثم قال بهدوء بعد ثواني:

- أنا كدا فعلًا.

انتزعت مريم نفسها من صدمة ألمّت بها لدقيقة كاملة، احترمها عُمر، وسألت بلهجَة من يرفض التصديق:

- لا مش فاهمة.. يعني إيه خارج عن القانون؟

- دي قصة يطول شرحها.. وصدقيني مش عارف إيه اللي خلّاني باكلمك بصراحة كدا.. بس يمكن كل حد بييجي عليه وقت يحتاج يفضفض.. حتى أنا.

غلبها نصفها المُعجب به، وسبقها في الإجابة، فقالت دون تفكير موافقةً إيّاه:

- يعني إيه حتى انت؟ ما انت بني آدم ولازم تلاقي حد تتكلم معاه، ثم أدركت أنها تعاطفت معه دون قصد، فأكملت مُصحِّحَة:

- بس خارج عن القانون ازاي؟ حرامي؟ بتقتل؟ نصّاب؟

كست ملامحها علامات عدم الارتياح، والتوتر، ولها كُل الحق، فقال عُمر الذي لاحظ توتُرها:

- بُصي يا مريم.. أولًا أنا لا يمكن أأذيكِ.. فاوعي في أي لحظة تخافي وانتِ معايا.. ثانيًا أنا مش بأذي حد أصلًا.. أنا بس مش ماشي صح حسب وجهة نظر معظم الناس.

- ما فيش حاجة اسمها كدا. باستنكار، وضيق، قالت.

ابتسم وكست ملامحه خيبة الأمل وأجاب بخفوت:

- دا رأيك.. وانا آسف لو ضايقتك.. ما اعرفش ليه ما كدبتش عليكِ.. وحسيت إني محتاج اقول لك الحقيقة.. بس انتِ عندك حق.. ما فيش حاجة اسمها حد يقبل حد ما يعرفوش بعد ما يعرف عنه إنه كدا.

ثم رفع كوبه وأنهاه على عجل، وأكمل مبتسمًا ابتسامة من جُرحٍ:

- رواية الطاعون هتوصل لك البيت.. ومش هتشوفي وشّي تاني، وهَمّ بالنهوض، فاستوقفته، دون وعي منها، أو تفكير، قائلة:

- إيه الأڤورة دي؟ انت قلبت رأفت الهجان ليه كدا؟

- انتِ هتستعبطي بقى؟ بغضب باسم.

- دا انت أخدت عليَّ قوي.. أنا تقول لي هتستعبطي؟!

- ما انتِ قُلتِ ما فيش حاجة اسمها كدا وبتاع.. وحسستيني إنك هتبلّغي عنّي.

فابتسمت وقالت:

- طب بذمتك مش اعرف الأول انت مخالف القانون ازاي؟ ولا عاوزني اتصل ابلّغ عن واحد "شقي" وخلاص، ورفعت علامات التنصيص، ثم أكملت:

- لازم اعرف اقولهم إيه لما اتصل ابلّغ عشان ما حدش يضحك عليَّ.

- تصدقي اقتنعت. وضحكا بمرح لثوانٍ، حتى خفتت الضحكات، وذابت، ثم نظر كل منهما إلى الآخر، يسأله، أو يسأل نفسه ويبحث عن الإجابة في ملامح الآخر.

لَم تشعُر مريم بأي تهديد لها من عُمر هذا، ولَم تفهم السبب، فقط رفضت تصديق فكرة أنه يمكن أن يؤذيَها. وكان عُمر هو الآخر يثق تمام الثقة في أنها لَن تخافه، وستسمعه، وتصدّقه، وتتقبّله.

اتفقا دون اتفاق أن يُخاطرا من أجل صداقتهما، خاطرت هي بعلاقة مع "خارج عن القانون" حسب قوله، وخاطر هو بأن تهرع هي لإبلاغ السُلطات عنه، لا يخاف إبلاغها السلطات لأنها لا تملك عنه ما يكفي من المعلومات لإثبات أي شيء عليه، ولكنه كان يثق في أنها لَن تفعل.

من أين جاءت ثقة كل منهما في الآخر؟ لم يفكر أحد منهم في إجابة هذا السؤال.

حاجة مريم لصديق، وإعجابها بطريقته، وثقته في نفسه، سمحوا لها بإزاحة الخط الأحمر الذي ترسمه كل فتاة في طريق الشاب الذي يحاول الاقتراب منها، حتى تسمح له بالمرور، دون تفتيش أو تدقيق أو تمحيص، وكأنها رئيس عمل مرتشٍ ومتواطئ مع عميل اشترى ضميره.

وحاجة عُمر لصديق يعرف عنه كل شيء، دون تجميل، ويقبله كما هو، دفعته لقبول مخاطرة الإفصاح عن سرّه، فسنوات مضت عليه، لا يعرف

أسراره غير حوائط منزله، ومساعديه، ووصل لمرحلة من الوحدة، تقترب من اليأس، فخاطر، وكله ثقة في تلك الجميلة، التي لسبب ما، لا يستطيع تصورها تخافه، أو تخونه.

قطعت مريم الصمت الصاخب، وقالت:

- ممكن بقى تقول لي خارج عن القانون ازاي؟

- أقدر أثِق فيكِ يا مريم؟ سأل بصِدق.

- أنا اقدر اثِق فيك يا عُمر؟ أجابت بذكاء.

فابتسم ابتسامة عذبة.

قابلتها هي بابتسامة أعذب من أن تُنسى، حتى وإن لم يكُن يمتلك ذاكرة خارقة.

* * *

٣٦

تلألأت حبّات العرق على جبهة عادل، الذي فَقَد كل سيطرة على ملامحه، وتكلّمت لُغة جسده بكل صراحة، وصراخ، واعترفت أنه لَم يتوقع سؤال الضابط، ولم يستعِد له. وبقي الرائد دون رد فعل، وكأنه مشاهد يستمتع بعرض مسرحي لشكسبير، ويتمنى ألا ينتهي.

نقل الزوج نظره بين شاشة اللابتوب، ووجه الضابط، عدة مرات، ثم ظهرت على ملامحه علامات كفاحه للسيطرة عليها، ونجح أخيرًا في إقناع نفسه، أنه لا يوجد ما يُدينه في تلك اللقطة، وترجم هذا بقوله:

- أنا مش فاهم حضرتك تقصد إيه.

ضحك وائل باستمتاع ملحوظ، وترك ضحكته تجلجل حتى زالت من تلقاء نفسها، دون تدخل منه، ثم قال:

- يا باشمهندس قول كلام غير دا.

- مش فاهم حضرتك. قالها وقد أحكم سيطرته على نبرته وملامحه بشكل كبير، فهاجمه الضابط:

- لا فاهم يا عادل بيه. ثم رفع إصبعه في وجه الزوج وقال بحدّة:

- وآخر مرة هاسمح لك تهين ذكائي.. أنا باسألك وبشكل مباشر.. ومش هاقبل منك غير إجابة مباشرة.. عندك حاجة المفروض اعرفها منك؟ قالها الرائد، وضغط على كلمة "منك" جيّدًا. ثم أكمل بنفس الحِدّة:

- وباقول منك لأني هاعرف كل اللي محتاج اعرفه.. انت مش في برنامج تليفزيوني هتختار تقول إيه وما تقولش إيه.. انت في تحقيق رسمي في قضية قتل قصاد ظابط مباحث.. هنا اللي بنحتاج نعرفه هنعرفه.. منك أو من غيرك.. علشان كدا باقول منك.. لأنها هتكون في مصلحتك.. أحسن بكتير من إني اكتشف من وراك حاجة كنت المفروض انت تقولها لي.

فتح الزوج فمه ليُجيب، ولكن الرائد أكمل دون توقف، كالموج:

- غلطة واحدة، قالها ورفع سبابته، ثم أكمل:

- هي غلطة واحدة بتكون كفاية عشان كل اللي فاكره مستخبي يتكشف. غلطة واحدة يا عادل بيه، مكالمة تليفون، تحويل بنك، تذكرة سفر، بوليصة تأمين. رسالة ع الfacebook. ومافيش حد ما بيغلطش.

تملّكَ القلق والتوتر من الزوج، وتخشّبت ملامحه، وتسارعت حركة بؤبؤتيه، في علامة على تفكير، وكأنه يراجع كل ما قاله الرائد في عقله، ويتأكد من عدم إغفاله لشيء منهم، ولاحظ الرائد ملامحه التي أعلنت بوضوح عن انهيار وشيك، فقال بنبرة أقل حِدّة:

- فياريت يا عادل بيه ما تقولِّيش مش فاهم.. وتفسّر وجودك طول الوقت قصاد الكاميرات.. وتفسر بالتحديد بصّتك دي للكاميرا وقت المكالمة. وأشار إلى شاشة اللابتوب، ثم أنهي كلامه قائلًا:

- أنا عارف إن مش انت اللي قتلت مراتك.. واضح، وأشار صوب الشاشة مُجددًا.

- بس أنا برضه عارف إن في حاجة هنا انت مش قايلها لي.. واحب اعرفها منك، لأني كدا كدا هاعرفها، بس لصالحك انت اعرفها منك، دي فرصة.. استغلها.

* * *

مذكرات

٩

ولكن يبقى السؤال: هَل صدَق؟ ماذا لو حقًّا عشقتني هي الأخرى دون إفصاح؟ ماذا لو كانت تنتظر مني الخطوة الأولى؟

أي خطوة كانت تنتظر؟ وعلى أي طريق؟

وهل للجنة طريق على الأرض؟

يبدو وكأنني استنفدت، كيّ أصبح حبيبها، كل رصيدي من الحَظ. فلَم يتبقَ لي ما يكفي من الحظ، لأحيا.

أعتبر نفسي، إن صدَق، برغم كل شيء، صاحب حظ عظيم.

أراني سقطتُ، رغمًا عني، في فخ لعنته..

تتمنى نفسي الملعونة أن تصدُق كلماته، التي تحرق ذكرى حبيبتي..

أي شيطان أصبحت؟

* * *

٣٧

- أنا باشتغل مُهمات للناس اللي معاها فلوس ومحتاجة حاجات غير تقليدية.

- أي نوع من المُهمات؟! سألت بتوجُس.

فابتسم مُطمئنًا:

- مريم.. أنا مش قتّال قُتلة.. ولا بلطجي.. ولا حرامي.. أنا عندي خطوط حمرا مش باخطّيها.. اهدي بقى عشان اعرف افهّمِك.

هزّت رأسها، فأكمل:

- أنا ساعات بيجيلي شغل ناس محتاجة تسرق حاجة.. بارفضه.. واللي عاوز يسرق كمبيالات كاتبها على نفسه.. ولا عاوز يخوّف حد واخد جراچ تحت بيته وضع يد.. ولا اللي عاوز يخبط حد بعربية يرقّده قَرصة ودن عشان مضايقه.. كل دا شغل بلطجية وهجّامين.. مش بتاعي.

الخدمة اللي أنا باقدمها خدمة شيك.. وما حدش غيري يقدر يعملها.. أنا باعمل الشغل اللي ما يخطرش على بال حد. بمقابل بيتحدد حسب الخدمة.

- ماعلش.. برضه مش فاهمة. اِدي لي مثال طيب.

فكّر عُمر لثوانٍ، ثم قال:

- يعني مثلًا تزوير عملية سرقة بالإكراه لمكتب صرافة عشان يتهرب من ضرايب أو ينصب على شركة التأمين.

اتسعت عيناها انبهارًا لثانية، ثم تحوّل انبهارها لابتسامة دون قصد، ثم أدركت مدى خطأ فعلتها، حيث أنها لا يصِح أن تنبهِر بما يفعله، أو على الأقل عليها ألا تُظهِر إن فعلت، فامتعضت، أو حاولت، ولَم تعقب.

- باروح اسرق المكتب.. والعملية تتصور بكاميرات المراقبة.. عشان يبقى كله حقيقي وبالدليل.. وطبعًا موظفين المكتب ما يعرفوش.. علشان لو يعرفوا هيبان من رد فعلهم إنها تمثيلية.. أنا باقوم بعملية سرقة حقيقية.. بس بالاتفاق مع صاحب المكتب.. وباخد نصيبي وارجّع الباقي.

- عملت دا فعلًا؟ بانبهار لَم تُخْفِه.

- كذا مرة، أجاب بحياد وكأنه يتحدث عن أحوال الطقس.

- يخرب بيتك، وضحكت، ثم خفضت صوت ضحكتها، ونظرت حولها تلقائيًا، وكأن الناس حولها سيعلمون على ماذا تضحك، إذا هُم سمعوا ضحكتها.

ضحك عُمر، وقال:

- صدقيني دي الطريقة الوحيدة اللي بتطفي دماغي.. الأدرينالين.. الشعور بالخطر.. التوتر اللي بيكتسح خلايا جسمي كلها وانا في المُهمة بقى إدمان.. كأني باعمل دماغ.

ثم ابتسم ومال برأسه واعترف:

- دا غير إن مكسبها كويس جدًّا.

- بس مِش خطَر عليك؟

قال مُزيلًا قلقها بسحر غريب:

- عُمْر الشَقي بَقي.

فابتسمت.

* * *

٣٨

خيّمت على غرفة مكتب الرائد سحابة توتر، استمتع بها الضابط، ولَم يحاول التدخل بأي شكل لتعكيرها، فقط بقى هناك مُعلِّقًا بصره بالزوج المتوتر، الذي بدأ يفقد القدرة على التحكم بأعصابه، ويظهر هذا جليًّا في حركة يداه، وبؤبؤتيه.

تململ الزوج دون أن يُعقِّب على جملة الرائد، التي حملَت تهديدًا واضحًا، وتحذيرًا شديد اللهجة، ولَم يحاول الرائد مساعدته على الكلام، فقط ترك الفرصة للزوج لكي يختار كيفية سير التحقيق، وانتظر.

أدرك الزوج أن الرائد لن يتكلم، وأن عليه الإجابة، أو بالأحرى تفسير لقطة الكاميرا، التي كانت لا تزال ثابتة على شاشة اللابتوب، وكأنها تنظر إليه وكحال الضابط، تطالبه بالتفسير. فتململ مُجددًا، ثم قال بنبرة كافح حتى يجعلها محايدة، لا مبالية، وفشل:

- أنا مش عارف انت ليه متحامل عليَّ كدا وبتعاملني كمُتّهم.. سيادتك لسَّا قايل إنك عارف إن مش انا اللي قتلت ناهد.. طب ليه أنا ملاحظ إني محلّ شكّ؟ مش فاهم.

لَم يُجِب الضابط، وإن كست ملامحه سحابة غضب، بسبب إصرار الزوج على إنكاره إخفاء أي شيء عن وائل، ظهرت في سرعة أنفاسه، التي كانت ستُخيف الزوج إذا تمكّن من سماعها عبر المكتب، فأكمل الزوج، وقد استعاد ثقته في نفسه نسبيًّا، وبدأ صوته بالتدريج يعود إلى الهدوء والاتزان:

- أنا ما عنديش مانع تشُك فيَّ.. أنا يهمّني يتقبض على اللي عمل كدا، وهَزّ رأسه بإقرار يمينًا ويسارًا، كأنه يُقِرّ حقيقة، ولكنه، دون وعي منه، وقع في خطأ فادح، يوقِعنا فيه، أحيانًا، عقلنا الباطن عندما نكذب، حيث أن هزة رأسه كانت هزّة نفي واضحة، لَم تُخطئها عين الرائد المُدرّبة.

- بس سعادتك لما تشُك فيَّ.. يكون بدليل.. وثيقة التأمين اللي سألتني عنها؛ كأنها لم تكُن لو انتحرت أو اتقتلت.. وممكن تتأكد بنفسك.. واللقطة اللي سعادتك بتطالبني بتفسيرها دي.. دليل براءة مش إدانة.. أما بخصوص ليه بابُص للكاميرا؟ والله دي ممكن تبقى صدفة.. عيني جات عليها لما رفعت راسي.. مش فاكر.. بس دي مش دليل على أي حاجة أصلًا.

السؤال بقى يا سيادة الرائد؛ إيه اللي حضرتك عملته عشان تقرب من القبض على قاتل ناهد؟ غير إنك بتطارد شخص كان موجود في مكان تاني خالص وقت قتلها؟

"أفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم.. تعجبني" فكّر وائل، ثم ابتسم وأجاب بأدب جَمّ:

- عندك كل حق في سؤالك.. والشرطة وأكيد النيابة هتعمل كل اللي في وسعها علشان تقبض على اللي دبّر... وضغط على حروف "دبّر". ثم أكمل:

- ونفذ عملية قتل مدام سعادتك.. خليك واثق من كدا.

ووعد شخصي مني أنا لسعادتك يا باشمهندس.. اللي عمل كدا هيتشنق. اعتبر القضية دي هدف حياتي من النهاردا.

اجتاحت رعدة سريعة جسد الزوج، عندما وعده الرائد بشنق المسؤول عن قتل زوجته، لاحظها وائل بالرغم من أنها لَم تدُم لثانية واحدة.

ذكّرته الرعدة تلك، برعدة مماثلة رآها في عين شخص آخر منذ سنوات مضت، وسبب تذكُرها الآن إنها جاءت بعد وعد مماثل من الرائد الذي كان على رتبة نقيب وقتها، جاء أيضًا بعد هجوم المُشتبه به وقتها.

تذكر الضابط عندما ذهب ليواجه سالم، في مدينة الأقصر بعد شجاره معه في نقطة التفتيش الشرطية، وتحويل الأول للتحقيق بعد أن قدّم سالم شكوى ضده.

كان سالم جالسًا، ينفخ دخان شيشته، أمام أحد محلات والده، والتي يستخدمها كواجهة لأعمال كثيرة غير شريفة، مستمتعًا بشتاء الأقصر المُنعِش، اقترب منه وائل بتحفُّز، زاده غضبًا ابتسامة سالم الساخرة، التي

استقبله بها، دون أن يتحرك. وقف وائل أمام سالم، الذي نفخ سحابة دخان كثيفة في الهواء، ثم رفع صوته مناديًا أحد صُبيانه:

- هات يا حريقة كرسي للباشا.

لَم يتحرك وائل، ولَم يرفع عينه عن سالم، الذي اختفت ملامحه، لثانية، خلف سحابة دخان كثيفة مرّت عبر رئتيه، قبل أن ينفُخها لتختفي في سماء الأقصر الداكنة، المُطرزة بالنجوم.

جاء "حريقة" بكرسي خشبي، ووضعه بأدب خلف الضابط، الذي جلس في مواجهة سالم، فسأل الأخير مبتسمًا بتشفٍّ:

- تعسّل يا وائل بيه؟ ولا تشرب حاجة سُخنة؟ ولا كيفك في شيء تاني؟

- شاي يا سالم.

تعكّرت ملامح سالم لثانية واحدة، بسبب مناداة النقيب له باسمه دون ألقاب، وهو الذي توقع أن قدوم الضابط إليه، كان ليعتذر عما بدر منه قبل أيام، بعد تحويل الأخير للتحقيق، حيث ظَنّ أن "قرصة الودن" تلك كافية لإخضاع الضابط، ولكنه بدأ يشعُر بخلاف ذلك.

أشار سالم لصبيُّه، وقال:

- اتنين شاي بنعناع يا حريقة.

ثم سحب نفسًا طويلًا، وعيناه تحاولان سبر أغوار الضابط، ولكن دون أن يسأله عما جاء، فقط انتظر بصبر، حتى قال وائل بعد صمت متوتر:

- أنا عندي موهبة من وانا صغير.

- بتغنِّي ايّاك !! سأل سالم ساخرًا.

تجاهل النقيب سخريته، فقد توقع أن يتعرّض للاستفزاز، من قبل أن يأتي، واستعد له جيّدًا، ولكنه رغب بشدّة في المجيء، حيث أراد أن يرى عين سالم عندما يهدّده بشكل مباشر.

أراد أن يعرف، وهو يثق في قُدرته على كشف ستر الشخص، عن طريق عينيه، فتحامل على نفسه حتى يكمل مُهمّته التي جاء مُخاطرًا بمُستقبله الوظيفي كله من أجلها، وقال:

- عندي موهبة الحُكم على البشر من عينيهم.. باعرف إن كان اللي قصادي كدّاب ولا صادق.

أومأ سالم برأسه، وقال بنبرة لا تخلو من الاستخفاف:

- دي حاجة حلوة خالص.. على الله بقى تنفعك الموهبة دي في شغلك.. اللي انت سايبه وقاعد تجري ورا ناس مضايقينك مش عارف في إيه.

أجاب الضابط بصوت قاسٍ، لا تردد فيه:

- أنا باوعدك يا سالم.. وعد مش هيسقط مهما طال الوقت.. ومهما حصل لي.. وعد يا سالم إن اللي دبّر وقتل دكروري هيتشنق.

اجتاحت رعدة سريعة جسد الزوج، عندما وعده الرائد بشنق المسؤول عن قتل دكروري، لاحظها وائل بالرغم من أنها لَم تدُم لثانية واحدة.

"هتفضل القضية دي نُقطة سودا في حياتي"

هاجمت موجة كآبة كاسحة الضابط دون إنذار، عندما تذكر أنه فشل في الحفاظ على هذا الوعد، وتمنى أن يحافظ على وعده الذي قطعه لتوّه أمام الزوج، الذي كان يعلم الضابط يقينًا أنه عنده ما يخفيه، ويخيفه.

* * *

٣٩

- بس شُغلك دا خطير يا عُمر.. مع مُجرمين.. وناس مش كويسين.

- ما تقلقيش.. أنا اللي زيي يتخاف منه.. مش عليه.

غمزت، وقالت:

- يا واد يا خطير انت، بس مش مصدّقاك.. شكلك ما يجيبش حد خطير يتخاف منه خالص.

ضحك عُمر وهَز رأسه نافيًا:

- لا مش عشان خطير.. وأدهم صبري في نفسي وكده.. أنا يتخاف مني عشان ما حدش يعرفني.. ما حدش بيشوفني، أنا زي الشبح يا مريم.

والناس بتخاف من اللي مش بتشوفه قصادها.. الناس بتترعب من اللي ماتعرفوش، وانا ما حدش يعرفني.. ولا بيشوفني، عشان كدا بيخافوا مني،

- ازاي ما حدش بيشوفك؟ ولا يعرفك؟ أمال بتشتغل معاهم ازاي؟ وعقدت حاجبيها بفضول.

ابتسم، وظهرت عليه ملامح التردُد. فقالت:

- أنا مش قصدي اتطفل.. أنا بس... وتركت الجملة مُعلّقة، عندما لم تجد ما تُكملها به، وكأن فضولها، سيُفهم على أنه اهتمام به، أو لعلّه كذلك.

كانت جاذبيّته أقوى من أن تتركها تدور حوله من بعيد كما تفعل الشمس الرحيمة مع كواكب مجموعتها، كانت كل دورة لها حوله تضيق عن التي

سبقتها، وكانت تعلم أن مصيرها الاحتراق، ولكنها لَم تعبأ، ولم تخشَ مصيرها، ولم تحاول الخلاص منه، فقط ارتاحت لتفسيرها الكاذب؛ أن ما يحدث هو مُجرد فضول.

حيث أنها كانت ترفض مبدأ الاهتمام به، فوضعته تحت خانة الفضول، كما يُسمِّي المُرتشي الرشوة بـ"الشاي" فتصبح مقبولة.

وكان هو يشعر بها، ويفهم أن فضولها يجب أن يكون أقوى من أن يُرَد، وهذا طبيعي، فلا تقابل كل فتاة شابًّا لطيفًا، وسيمًا، خارجًا عن القانون كل يوم. وهذه تركيبة يصعب مقاومة الفضول والإعجاب أمامها.

أفصح عن عمله، وتفاصيل لم يتصوّر أن يفصح عنها لغريب، ثم شعر بالتردد عندما سألت عن المزيد، وكأنه لَم يكُن يعلم أن الفضول سينال منها عندما تعرف طبيعة عمله. فلماذا التردد إذًا؟ هل يحاول فقط أن يبدو أمام نفسه، وكأنه أجبِر على الإفصاح؟

كان يعلم في قرارة نفسه أنه قرر بالفعل مصارحتها بكل شيء في اللحظة التي قال فيها كلمة "شقي". حتى وإن كان قد قالها دون وعي حقيقي منه، فهذا الذي قرر هو لاوعيه، لاوعيه هو، فلماذا إذًا التأجيل والتردد؟

نعم يحتاج لصديق، وها هي أمامه، تسأله عن عمله، وهو لأول مرة في حياته، يرغب في الإجابة على هذا السؤال.

كأن لها سحرًا أقوى من أن يُبطَل.

* * *

كل جُهد يُكافأ، ولو بعد حين.

٤٠

لا يعلم وائل سبب عودة ذكريات قضية الهجّام سليمان لمطاردته، كأحلام يقظة غير اختيارية. ولكنه كان يشعر بأن هناك سببًا لذلك، وكان يثق في حدسه حد اليقين، كأن القضية القديمة تحاول إخباره بشيء، أو كأن هناك رابطًا من نوعٍ ما بين القضيّتين.

ارتعد وائل من فكرة أن يكون الرابط هو حدسه الخاطئ؛ حيث أنه يُكرر خطأً، ينفي دائمًا وقوعه فيه أول مرة من الأساس، فحدسه يرفض السماح له بالاعتراف أنه أخطأ بالاشتباه في سالم، وها هو يُكررها ويوجّه شكوكه صوب رجل تثبت كل الأدلة أنه لم يرتكب الجريمة، ليس بريئًا بعد، فقد يكون ساعد ودبّر، ولكنه حتى الآن لا يوجد دليل واحد يثبت هذا، سوى لقطة لا تثبت شيئًا.

فعلها في الأقصر، وها هو يعيدها مُجددًا، يشتبه في شخص، لا يمكن أن يكون قد ارتكب الجريمة، ولكن حدسه، الذي يثق به ثقة عمياء، يؤكد له أن سالم هوّ من دبّر قتل دكروري في الأُقصُر، ودبّر توجيه التهمة إلى الهجّام، ويؤكد أيضًا - حدسه- أن عادل هذا، شريكٌ في مقتل زوجته، أو يخفي شيئًا على الأقل، ومَن يخفي شيئًا على الشرطة في تحقيق رسمي، هو مُجرم.

هل يُمكن أن يكون وائل على مشارف عدم الوفاء بوعد قطعه مُجددًا؟ وهذا هو وجه الشبه بين القضيّتين؟

هل يُحذّره عقله الباطن من خطأ حدسه؟ هل يضيع وقتًا ثمينًا في مطاردة بريء كما لمّح الزوج؟

كان يعلم أنه عندما ينجرف خلف حدس، لا يُمكن إيقافه، كموجة بحر كاسحة.

هل يجب عليه أن ينتبه للإشارات، ويسير في التحقيق وفق ما تقدّمه المعلومات والأدلة فقط؟

وهل هو أخفق فعلًا في الوفاء بوعده السابق؟

لماذا يرفض حتى مُجرد افتراض أنه أخطأ في الماضي؟ وأن حدسه كان خاطئًا؟ هل غشاوة غروره أعتم من أن تسمح له برؤية الحقيقة؟ ومَن مِن البشر لا يُخطئ؟

قد يكون الهجّام سليمان خدعه، عندما شعر منه بإمكانية تصديقه، فتلاعب بحدسه، وأسمعه ما أراد أن يسمع وقتها، ليُجنّده ويسخّره لمحاولة إلصاق الجريمة بآخر، واستغل شجاره - الهجّام- مع سالم قبل القبض عليه بشهور، ليوجّه وائل وشكوكه صوبه، هذا وارد جدًّا، فسليمان هذا مُجرم متمرّس، بلا شك.

قاسية هي الأفكار عندما تتصارع داخل العقل. لا ترحم، تصيب صاحبها، خاصة إذا كان صاحب ضمير نقي، بالشَك. تهاجمه، وتسأله عن كل ما فعل، وكأنها تستجوب مشتبه فيه، مُذنب حتى يثبت براءته.

حاول وائل الهروب من دوامة الأفكار، التي تتحول لثُقب أسود تبتلع الوقت، وتصيب عقله بالإنهاك، ولكن دون جدوى.

كلما حاول اتخاذ قراره بالسير وفق الأدلة فقط، وإزاحة حدسه جانبًا، منعه حدسه كسدٍ عالٍ بلا فتحات، تسمح لشكوكه بالمرور عبره، ولكن شكوكه أيضًا لا ترحمه، وتضرب سد حدسه ضربات موجعة، تصيب الضابط بالصداع، والألم، والذنب.

"هتفضل القضية دي نُقطة سودا في حياتي"

* * *

مذكرات

١٠

لست بشيطان..

ولا هُم..

لا أظُن الشيطان في قسوة هؤلاء..

هؤلاء الـ "بشر".

البشر..

تلك الفصيلة التي أنتمي، آسفًا، إليها.

أصبحت الشيطان في نظرهم..

ويا ليتني شيطان.. انتمائي للبشر عار..

وأصبحت ملعونًا بينهم..

وكيف لا؟ وأنا الذي دنَّست سُمعة العائلة بأسرها.

شَعَر الجميع بالارتياح لهذا التفسير.. لأنه لا يتطلب منهم مواجهة صاحب النفوذ، واتهامه بالقتل..

شَعَر الجميع بالنقاء والعِفة.. بتدنيس ذِكرى أطهرهم..

صدّقوه حد اليقين..

لأنهم أرادوا ذلك.

وبقيت أنا الملعون بعجزي عن حمايتها..

لَم أتصوّر أن يأتي اليوم الذي يتحقق فيه الحلم، الذي كان لي حياة..

ليقتلني.

كل ما أرغبه، بقدر رغبتي فيها، وأكثر، أن أعاقب هؤلاء.

* * *

٤١

كان والد عُمر رجلًا بسيطًا، يتميّز بالذكاء، وسوء الحظ. لَم يحظَ بالمال الوفير، ولكن رزقه الله الرضا، لم يكُن غنيًّا، ولكنه استغنى، لم يحظَ بعُمر طويل، ولكنه عاش سعادة عُمر طويل.

يتذكر عُمر سنواته القليلة التي عاشها مع والده، قبل وفاته بسبب ذبحة صدرية، لَم ينتبه لها والده، وعالجها بمُسكن أودى بحياته، ويتذكر معاناة والدته، وعملها كمسؤولة توزيع في إحدى دور النشر، بعد وفاة والده حتى تؤمّن له نفس مستوى الحياة المتوسطة التي أمّنها لهم والده، من خلال عمله كمُدرس لغة إنجليزية بسيط الحال، حتى جاءها هبوط حاد في دورتها الدموية، ليحرمه منها هي الأُخرى.

تعلَّم عُمر من والده الرضا، والقُدرة على رؤية الجانب المُضيء في كل شيء. فكانت أحلامه بسيطة جدًّا. ولكنه تعلّم أيضًا أن أكثر ما يمكن أن يُرهق الروح، وخاصة روح شخص لا ينسى مثله، هو الفُراق.

تعلّم أن كل شجرة مهما طال عُمرها، سيأتي يوم عليها تُنتزع من التربة، وأن مقدار ألم انتزاع الشجرة من تُربتها، يساوي مدى قوّة جذورها، وعُمقها. فعُمق الجذور، وقوّتها، لن يمنعا انتزاعها، ولكنهما سيزيدان ألمه قسوةً.

تعلّم أن الدنيا جميلة، ولكن كالحلم، ففضّل الاستيقاظ، فالواقع برغم بشاعته، فهو على الأقل حقيقي، وصادق.

يتذكر عُمر كل شيء، ولكن أكثر ما يتذكره سحرًا وجمالًا، كانت ألعاب والده السحرية، والتي كانت موهبته الخاصة، حيث كان يتمتع والده بخفّة يدٍ مُذهلة. لَم يَمل عُمر من ألعاب والده، مهما كرّرها أمامه، بالرغم من أنه كان يتذكرها، ككف يده.

تعلّم من والده أن الحيلة تحدث أمام عينه، ولكنه لا يراها، لأن الساحر الجيّد هو الذي يوجّه نظر جمهوره، صوب الجهة المعاكسة لتلك التي تحدث فيها الخدعة.

شَبّ عُمر، وأكمل تعليمه بمساعدة ما تبقى له من إرث ضئيل، وعمل مؤقت التحق به حتى تخرّج، ثم قرر أن يدرس تصميم مواقع الإنترنت، ففعل، حتى أتقنها، وبدأ في تأسيس شركة خاصة، سماها Drafts، كانت أرباحها تكفيه، ولكنه لَم يشعر أبدًا بالانتماء، بعد انتزاع القدر كل من اهتم لأمره، وتركه وحيدًا.

كانت ذاكرته، وعقله الذي لا يهدأ، تُشكّلان عقبة في طريق راحته، فلَم يرتَح يومًا.

- انتِ مُتخيلة يعني إيه ما بانساش؟ مجرد ما آجي أحاول أنام.. أفضل افتكر كل حاجة، كلمة راحة دي الحاجة الوحيدة اللي نسيتها.. أو ما عرفتهاش أصلًا.

لَم تُجِب مريم، فقط هزّت رأسها بتعاطف حنون، وتركته ليكمل قصّته، التي أسرتها.

- حاولت افصل دماغي بالقراية.. أدمنتها.. بس بالوقت أدركت إني مش باعالج نفسي.. أنا باعمل العكس.. لأني بازوّد المواد اللي عقلي بيستخدمها ضدّي.. بقيت عايش بدل حياتي ألف حياة.. وعقلي بقى يعذبني كل يوم.. مش بس بذكرياتي.. لأ بذكريات لأبطال روايات حبيتها وروايات كرهتها.. زي الطاعون مثلًا.

وابتسم، فاستجابت بابتسامة مُتفهمة، عذبة.

- الرياضة كانت بتساعد كتير.. لما باتعب وباهلَك.. دماغي مش بتشتغل زي العادي.. عملت قرشين وجبت كام جهاز في البيت اتمرن عليهم.. عشان ما اختلطش بناس في چيم أو غيره.. وشغلي كله كنت باعمله بالإيميل.. ومن منازلهم، بس فضلت تعبان. وتنهّد، ثم أكمل:

- بقيت امارس رياضة بس بشكل غريب.. بقيت مثلًا امشي على سور البلكونة.. أطلع السطوح أجري على السور.

اتسعت عيناها رُعبًا، في عدم تصديق، ولكنها لم تقاطعه.

- كنت اتعلق برَّا البلكونة في عز الليل.. ومنها أنُط على بلكونة الجيران.. وامشي على السور من برَّا زي Spiderman. وضحك مستمتعًا بخوفها، فقالت:

- إيه الجنان دا؟ أنا مش فاهمة.. ليه يعني أصلًا؟ عاوز تموت؟

- تؤ.. مش عاوز اموت.. بس انا اكتشفت إن الأدرينالين بيسكّن دماغي.. ولا أجدع مُخدر. وبعد شوية قراية وبحث اكتشفت إن في ناس فعلًا بتدمن الأدرينالين.

عارفة لما تخافي فجأة.. وتلاقي أطرافك بتترعش.. وجسمك كله مهزوز كدا؟ دا تأثير الأدرينالين.. أنا بقى أدمنت الشعور دا.. لأني اكتشفت إنه بيسكّت دماغي نهائيًا.. ومفعوله بيستمر لساعات طويلة.

بانام يا مريم زي الطفل.. بعد كل عملية.. وولا باحس بحاجة، دي نعمة والله.

بس طبعًا بعد فترة من الحركات العبيطة دي.. أتقنتها.. وما بقيتش باخاف منها.. وطبعًا بسبب عدم خوفي منها ما بقاش الأدرينالين اللي بيفرزه جسمي كفاية.

ثُم تنهّد وصمت لثوانٍ، وكأنه سيبدأ بعد الاستراحة فقرة جديدة من حياته:

- لحد ما حصلت حاجة غيّرت حياتي.. علامة. وأشار إلى السماء.

* * *

٤٢

- يعني انت شُفته وهو خارج الصُبح لوحده؟

سأل الرائد وائل، بوّاب العمارة التي حدثت بها جريمة القتل، وهو يُشعل سيجارته، ثم رفع منفضة السجائر، وأفرغ محتوياتها في سلّة القمامة أسفل مكتبه، عندما لم يجد مكانًا يترك فيه سيجارته المُشتعلة، بسبب امتلاء المنفضة، ودارت في مُخيلته صور مرضى سرطان الرئة، عندما أدرك أنه دخّن ما يفوق ضعف مُعدّله الطبيعي، كعادته أثناء التحقيق في قضية صعبة.

- لا يا بيه.. الكدب خيبة.. أكيد كنت باجيب طلبات من برّا.

- ولما رجع؟ قابلته؟ ورفع قهوته، تقريبًا العاشرة، ليُزيد مُعاناة جسده الصحية.

- أيوة يا بيه دخل من باب العمارة على السلم على طول ولا سلام ولا كلام.

- ما ركبش الأسانسير؟ سأل عاقدًا حاجبيه.

- لا يا بيه.. أنا فاكر كويس.

- كان شكله مستعجل؟ عشان كدا ما استناش الأسانسير؟

- لا لا يا بيه.. الأسانسير كان تحت.. بس هو طلع على السلم على طول.. أنا فاكر عشان حاولت أنده له.. أقول له يركب الأسانسير.. بس ما سمعنيش.. ما خدش باله أكيد وهو في حالته دي.. وعرفت بعدها اللي حصل لما طلعت.

- إيه اللي يخليه يطلع ٦ أدوار على رجله؟ سأل الرائد بخفوت، وهو يدوّن شيئًا ما في مُفكرته، وكأنه يسأل نفسه. فأجاب البوّاب:

- ما انا بقول لسعادتك هو أكيد... قاطعه الرائد بإشارة من يده، أن يصمُت، ثم عاد إلى أفكاره، ومُفكرته.

* * *

٤٣

استيقظ عماد على صوت رنين هاتفه المحمول، مصحوبًا بلعق صوفي كلبته لوجهه، وكأنها تعلم بأهميّة المكالمة، وتُحثّه على الرَد، حتى لا يفوّتها. فَتح عينيه، وأزاح كلبته عنه برفق، ونفَض رأسه بقوة، محاولًا عبثًا طرد صُداع احتلّها.

مَدّ يده وتحسس حوله، حتى وجد الهاتف، ففتح الخط دون معرفة من المُتصل:

- ألو، ثم تذكّر أنه لَم يعرف المُتصل، فرفع الهاتف عن أذنه، ونظر إلى شاشته، ولكن ضوءها آلم عينه، فأبعده وأغلق عينه لثانية، ثم أعاده إلى أذنه وقرر أن يعرف المُتصل على طريقة التسعينيات. فجاءه صوت أسماء الناعم التي كانت قد تحدثت منذ الثانية التي فتح فيها الخط، فلم يفهم عما تتحدث:

- ...حلو كدا بقى زي اللي فاتوا.. دي فرصة عشان لو طلع...

- *شششششش*. صاح عماد، ثم أكمل هو يقعد على طرف السرير:

- ما لك يا بنت المجنونة ع الصبح؟ مش فاهم منك حاجة.

- اسمع يا زفت.

- عاوزة إيه؟ قال بضيق، وهو يمسح جبهته، على أمل إزاحة الصداع.

- القيادات في الحركة هيتحركوا النهاردا على الأرض وعلى النت عشان في واحد مات في قسم شرطة من التعذيب.. أنا بعتلك القصة كلها على الميل.. كنا عاوزين مقالة شديدة كدا على أكونت حشرة.. بس خُد بالك دي فرصة كبيرة.. الحكاية المرة دي سُخنة.. والاهتمام بيها هيكون على مستوى عالي جدًّا.. محليًّا وخارجيًّا.. ركّز.. عشان المقال دا لو سمّع.. انت هتتنقل نقلة تانية خالص.. وهتسيب الشغل وتقِب على وش الدنيا.. اسمع مني.

يلا.. أسيبك أنا عشان بنحضر لمسيرة.. وهاستنى منك تليفون.. بس في أسرع وقت يا عماد.. القصة كل ما تنزل بدري كل ما هتتخدم أكتر. سلام.

وأغلقت الخَط.

ألقى عماد بالهاتف على السرير بإهمال، وأراح ظهره بعرض السرير، وحاول أن يسترخي، ولكن إثارة مكالمة أسماء احتلت كيانه، ونفضت عنه كسل النوم، فقام وقد قرر أن يستغل الفُرصة التي جاءته على طبق من ذهب، وإن كان مُلطخًا بدماء أحدهم، هذا الذي قُتِل مُعذّبًا.

قفزت خلفه صوفي من على السرير إلى الأرض بنشاط، وكأن حماسه انتقل إليها، أو شعرت به، فعزمت على مساعدته، وتشجيعه.

* * *

٤٤

- حصل إيه؟! سألت مريم بفضول ولهفة.

- لقيت اللي كنت بادوّر عليه.. فجأة وبدون مُقدمات. ثم تغيّرت ملامح وجهه، وسأل:

- تشربي حاجة تانية؟

ضحكت، وقالت:

- إيه يا ابني انت مش طبيعي كدا عادي؟ ماشي.. قهوة.

ضحكا، وطلب قهوةً لكل منهما، ثم أكمل بحماس:

- كنت سهران ليلة.. ولقيت حد منزّل على الfacebook قصة قصيرة لولد اسمه نادر.. اسمها "عُمْر الشَقيّ".

باختصار وبدون الدخول في تفاصيل.. أنا لقيت نفسي في بطل القصة.. لو عاوزة تقريها أبقى ابعتها لك.. أنا الوحيد اللي عنده منها نُسخة، وأشار إلى عقله، ثم أكمل:

- لأني مسحتها بعد كدا من كل حتة ع النت.

- ليه؟!!

- اصبري.. جاي لك في الكلام. وانتظر حتى وضع محمد القهوة أمامهما، وغادر، والغيرة تملأ عينيه، لأنه اعتاد أن يرى مريم بمفردها، وها هي تجلس لساعات مع غريب، جاء قبل يوم، وتعرّف عليها بشكل أو بآخر، تحت أنفه. لَم ينوِ محمد أبدًا أن يبدأ علاقة مع مريم، أو يصاحبها، ولكنه شعور أناني، غير مُفسّر، ينتاب الرجل الشرقي عندما يشعر أن تلك الفتاة التي يعرفها، ولو بشكل عابر، تعرف غيره، وكأنها كانت له، ولَم تُصبح كذلك، أو كأنه أولى بها، برغم عدم وجود لديه أية نيّة للتقرُّب منها.

- القصة دي كانت بتتكلم عن شاب خِسر كل حد له في الدنيا في حادثة نجا هو بس منها.. بما فيهم خطيبته.. كان بائس حد الرغبة في الموت.. ولما كان أجبَن من إنه ينتحر.. قرر إنه يعمل عمليات مجنونة كنوع من الانتحار المُقَنَّع.. كان بيسرق محلات دهب تحت تهديد السلاح.. ومكاتب صرافة.. وصل به الفُجر إنه يسرق خروف صاحي من محل جزّارة.

ضحكت باستمتاع وهي مأخوذة تمامًا بحكايته.

- المُهم إن القدر والحظ كانوا بيساعدوه كنوع من السُخرية منه.. ومن رغبته في الموت.. عشان كدا نادر سمّاها "عُمْر الشَقيّ".. المهم إن الموضوع اتطور بالبطل لما قابل بنت في واحدة من عملياته.. وبعدي... ثم قطع سرده، وقال مُختصرًا:

- مش هاحرق لك القصة. لم تُخطئ عيناه لهفة مريم على سماع قصة بطل "عُمْر الشَقيّ" مع الفتاة، ولم تُخطئ أيضًا حسرتها عندما قطعها، ولكنه لم يُبيّن، وأكمل بنفس الحماس تاركًا إيّاها مُعلّقة برغبتها في سماع باقي القصة:

- أنا لما قريت القصة.. اكتشفت إن هوّ دا اللي أنا محتاجه: الشعور بالخطر.

المهم إن القصة وصلت إنه كوّن فريق عمل من ٣.. واحد راس مدبّر.. ومُخطط رائع.. عشان هو نزعته الانتحارية مكانتش تناسب اللي كان عاوز يعمله بعد ما اتعرف على البطلة.. فبقى محتاج حد يفكر.. ويوجهه صح.. وطبعًا كان محتاج واحد هاكر كمبيوتر على أعلى مستوى.. وأخيرًا طبعًا المجنون اللي مش بيخاف.. البطل اللي بيقوم بالعمليات بنفسه. وأشار إلى صدره، وابتسم.

فسألت بفضول وهي تُعيد فنجانها على طبقه:

- وبعد ما قريت القصة ولقيت نفسك فيها؟

- قررت اعمل زيّ هشام.

- هشام مين؟

- بطل القصة.

كشّرت ملامحها، وقالت:

- مش لايق.

- هو إيه؟!

- الاسم.. قصة اسمها "عُمْر الشَقيّ" لازم بطلها يكون "شقي".. واسمه "عُمَر". وابتسمت ابتسامة ساحرة، لَم تمنعه من ملاحظة احمرار وجهها خجلًا. فقال باسمًا:

- ماهو حَصَل فعلًا.. وساعتها القصة ممكن يبقى اسمها "عُمْر الشَقيّ" أو "عُمَر الشَقي". وغَمز، وأشار إلى نُفسه مُجددًا.

* * *

مذكرات

١١

أبرياء..

هؤلاء القتلة، كلهم، أبرياء..

في نظر القانون أبرياء..

الغيبة والنميمة لَم تُجرّم في قانون البشر..

لأنه قانون البشر.

لذلك هُم في نظر بعضهم البعض أبرياء..

رحلت من كانت رمزًا للبراءة..

وكأن رحيلها نزع براءة كل شيء..

فلم يتبقَ سوى الدنس.

دنس، نجس، لطّخ أمامي كل من حاول تلطيخ سيرتها.

لن تُخلّصهم من هذا الدنس، حتى وإن قامت وصُلِبت في سبيل خلاصهم..

فهذا الدنس جزء من بشريّتهم الدميمة.

بعد رحيلها لم يبقَ سوى هؤلاء..

البشر..

لم يبقَ سوى القتلة..

البشر قتلة..

كل البشر..

* * *

٤٥

- أنا بصراحة يا وائل بيه قُلت إنه صوت حاجة اتكسرت.. أو باب اترزع.. بس الجماعة هي اللي أصرّت إنه صوت مسدس. قال ماهر المُحامي، جار المُهندس عادل، فسأل وائل مُستوضحًا:

- جماعة إيه؟

- جماعتي حضرتك.

- آه.. المدام.. ماعلش أنا شارب ٢٠ قهوة ومخلّص علبتين سجاير في كام ساعة.. سامحني، طب ولما كلّمته في التليفون.. لاحظت أي حاجة غريبة عليه؟ أي حاجة.

قال المحامي وهو يُعيد كوب الماء إلى الطاولة الصغيرة أمامه بعد أن فرغ:

- لا والله يا وائل بيه.. أنا بعد ما عرفت اللي حصل توقعت أسئلة سعادتك.. أنا محامي برضه ومش جديد في القصة.. دوّرت المكالمة في بالي كذا مرة.. كانت طبيعية جدًا.

- إزاي؟

- إزاي إيه؟ باستغراب.

- إزاي كانت طبيعية جدًّا؟!! انت متصل بواحد تقول له سمعنا صوت ضرب نار في شقتك.. قُل لي ازاي المكالمة دي ممكن تكون طبيعية.

توتر المحامي، وزاده توتره توترًا، حيث أنه كان ممن يُحبون التملُق لرجال الشرطة، وإخفاقه في إبهار الضابط، يُقلل، من وجهة نظره، من فُرصه -المُنعدمة من الأساس- في أن يصبح صديقه قريبًا، فبدا كالطالب الذي يخضع إلى اختبار شفوي، يعتمد مُستقبله كله على نتيجته، في مادة لا يفقه فيها شيئًا، ونسي أن يُجيب، حتى ذكّره الرائد.

- ها؟!! احكي لي كدا.. كانت طبيعية ازاي؟

قال بصعوبة، بصوت ملأه الشَك، والتردد، بعد أن فقد الثقة في كل إجاباته التي أعدّها وتمرّن عليها قبل المثول أمام الضابط:

- يا وائل بيه اقصد إنه ما قالش حاجة غريبة.

- وانت مش شايف إن دي في حد ذاتها حاجة غريبة؟

- مش عارف والله يا... قاطعه وائل بضيق وقال:

- يعني ما وصلكش إحساس إنه كان متوقع المكالمة؟ ركّز وافتكر كويس.. هدوؤه وكلامه بطبيعية ما كانش طبيعي زيادة عن العادي؟

قال المحامي بتسليم:

- عندك حق يا وائل بيه.. فعلًا. ثم اعتدل بحماس وأكمل:

- آه.. هو ما استغربش خالص.

شَعَر وائل أن المحامي يقول ما شَعَر هو أن الضابط يريد أن يسمعه، فقاله، دون يقين منه، فقرر أن يتخطى تلك التفصيلة، لأن شكّه في صدق المحامي، ينسف يقينًا يحتاجه الضابط لكي يشتبه في الزوج بضمير مرتاح.

- طب ولما رجع البيت؟

أجاب الزوج وقد استعاد صوته ثقة افتقدها لثوانٍ:

- بعد المكالمة ييجي بساعة أو أقل حاجة بسيطة خبط عليَّ.. وطلب مني اتصل بالشرطة. ودخل الشقة وفضل قاعد زي ما سعادتك جيت لقيته. وما حدش فينا أنا ولا الجماعة دخل الشقة.. عشان أنا وصّيتها إن هيبقى في تحقيق وممكن نلمس حاجة تئذي التحقيق. وأراح ظهره برضى واضح عن نفسه.

أغمض وائل عينيه، محاولًا تجنُّب الألم النفسي الذي يتعرض له أثناء مشاهدة المحامي يقوم باستغلال جريمة قتل في إثبات عبقريته المنعدمة، وسأل بصوت من لا يحتمل المزيد من السخافة:

- ولما جه من برَّا ما حدش قابله قبل ما يدخل الشقة؟

- لا يا بيه.. أنا كنت مستنيه ورا الباب بصراحة.. كنت هاعرف إنه جه من صوت الأسانسير.. بس سيد البواب قال لي إنه ما استناش الأسانسير وطلع جري ع السلم.. عشان كدا ما سمعتوش.. وما عرفتش إنه جه إلا لما خبّط عليَّ.

تذكّر وائل الصوت المزعج الذي أصدره المصعد عندما وقف به في الدور السادس، يوم ذهب لمعاينة الشقة.

أضاءت فجأة في رأسه فكرة، وانهمرت التفاصيل، تسقط في أماكنها الصحيحة، كأحجية تَحّل نفسها، بنفسها.

"خرج الضابطان من مصعد البناية، فأصدر المصعد، كإشارة للتوقف، صوتًا عاليًا، وكأنه قطار يُعلن وصوله لوجهته."

"- لا لا يا بيه.. الأسانسير كان تحت.. بس هو طلع على السلم على طول.. أنا فاكر عشان حاولت أنده له.. أقول له يركب الأسانسير.. بس ما سمعنيش.."

"كان الزوج على شاشة اللابتوب، في تلك اللقطة، ينظُر مباشرة إلى عدسة كاميرا التصوير، وكأنه يريد أن يتأكد من أن تلتقط الكاميرا صورة وجهه كاملًا، لتثبت وجوده في هذا المكان، في تلك اللحظة."

"هتفضل القضية دي نُقطة سودا في حياتي" !!

تحرّكت فكرة ما، في آخر مجال رؤية وعي الضابط، على أطراف لاوعيه. شَعَر بوجودها، ولكنها اختفت بمُجرد محاولته الإمساك بها، كتلك الأشباح التي تتخيل وجودها في أركان الغُرفة المُظلمة، عند قراءتك لإحدى قصص الرعب، وحدك بالمنزل، في ليل شتوي كئيب.

ولكن على عكس الأشباح، كان الرائد واثقًا، حدّ اليقين، من وجودها، ولكنه لم يتمكّن بعد من القبض عليها، ولكنه كان يعلم أنها ستسقط قريبًا في فخ سيعِدُّهُ لها في وعيه، هو فقط يحتاج إلى استدراجها إليه بالمزيد من التفاصيل، التي سيكشفها التحقيق.

* * *

٤٦

خرج عماد من غرفة نومه، ليجد شخصًا غريبًا في صالة شقته الصغيرة. سرت رعشة فزع في جسده كله، تبعتها دفعة أدرينالين، تسببت في ارتعاش يده، التي رفعها ليُشير إلى الزائر المجهول، الذي يخفي الظلام ملامحه، ويزيد من رعب عماد.

- انت مين وبتعمل إيه هنا؟! صرَخ بصوت عالٍ.

- أنا محتاج اسألك كام سؤال.. لو جاوبت عليهم بسرعة.. هاختفي زي الكابوس اللي صحيت منه، ولا مش عاوز تصحى؟!

تحرك عماد بهدوء خطوات قليلة، وكأنه في مواجهة وحش نائم، ويخشى إصدار أي صوت يوقظه، أثناء تحدُث المجهول، الذي كانت ثقته في نفسه أعلى من أن تسمح له بملاحظة حركة عماد الهادئة، والتي فسّرها على أنها حركة غير مقصودة بسبب الخوف.

وفجأة التقط مضرب Baseball ثقيل، كان يبعد عنه خطوات، قطعها عماد بذكاء، وهجم على المجهول، الذي لَم يتوقع الهجوم، ولا الضربة التي شقّت رأسه نصف...

* *

خرج عماد من غُرفة نومه، بسبب سماعه لصوتٍ غريب في صالة منزله، حاملًا في يده مضرب **Baseball** ثقيل، وحاشدًا كل ما يملُك من أسلحة، وهي مَضربه الذي يبقيه في متناوله دائمًا، والكثير من التحفُّز، وجرعة أدرينالين تعرف عملها جيّدًا.

فتح باب غُرفته، ليجد على بُعد خطوات منه، رجلًا غريبًا، تفصلهما كنبته الكبيرة، مما جعل من المُستحيل على عماد، أن يصل إلى الرجل، قبل أن يُرديه مُستخدمًا هذا المسدس الضخم، الذي تأكد المجهول من إظهاره بوضوح، في وجه عماد، برغم ضوء الصالة الخافت.

توقف الزمن لثوانٍ، حتى قفز كلب عماد الأسود الضخم على ظهر المجهول، والذي حَرم لونه، الغريب من ملاحظة وجوده عند تسلّله إلى الشقة، وأطبق فكّه على رقبة الغريب، الذي تأوه في ألم واضح، وسالت الدم...

* *

خرج عماد مُسرعًا من غُرفة نومه، بعد سماعه صوت تأوه كلبه الضخم، كان الكلب يتأو وكأن هناك وحشًا يلتهمه حيًّا. تسمّر غير مُدركٍ لما يراه أمامه لثوانٍ، مرّت وبدأت تتضح رؤيته، وكأن كان هناك سحابة دُخان، وانقشعت تدريجيًّا عن عقله، فرأى أمامه رجلًا غريبًا، ممسكًا بيده صاعقًا كهربائيًّا، وإلى جواره كلبه، بعد أن تحوّل إلى نُسخة أليفة منه.

ترجم عقل عماد ما حدث؛ تسلل أحدهم، وصعق الكلب، حتى أدرك الحيوان، بغريزة البقاء للأقوى، أنه لا قِبل له بهذا الذي بضغطة زر، يستطيع تحويل جسده إلى جحيم بلا مفر، فهدأ عند قدميه.

رفع الغريب مسدسًا كبيرًا، لا يقِل إرهابًا، لعماد، عن الصاعق للكلب، في وجه الصحفي، وقال بصوت لطيف لا يناسب جبروت صاحبه:

- هما سؤالين وهاختفي زي الكابوس اللي بتحمد ربنا إنك صحيت منه، ولا انت مش عاوز تصحـ...

لَم يتوقع الزائر الطاسة التيفال، التي اصطدمت بوجهه فجأة كقطار دون قضبانه، والتي ضربه بها رفيق عماد في السكن حتى يضع نهاية كوميدية، لمشهد مرعـ...

* *

استمر نادر لساعة كاملة، يتوقع كيفية سير الزيارة، التي لا مفر منها، التي سيقوم خلالها عُمر باستجواب عماد، حتى يعرف منه مصدر معلومته التي كادت تفضح عمليتهم، التي ظَنّها نادر عصيّة على الفضح.

في نهاية مُحاولاته، التي استمتع خلالها بقتل عُمر أكثر من مرة، وضحك كثيرًا، توصّل إلى كل العوائق التي قَد تُعيق استجواب عُمر المهم، ورسم خطة العمل، وأرسلها إلى عُمر، عبر هيثم، ومعها قراره فيما يخُص امتناع ثروت هذا عن سداد مُستحقاتهم.

* * *

٤٧

عاد عُمَر إلى مريم حاملًا كيسًا بلاستيكيًا، وضعه على شنطة سيارتها، وانتظر إلى جوارها، يقرأ "إيميلًا" وصل إليه لتوّه من نادر، عبر هيثم، حتى تنهي هي مكالمة، كانت تبدو مُهمة.

- لا يا ماما.. ما فيش والله.. شوية زهق بس.. حاضر مش هاتأخر، وبعدين يا ماما لسَّا بدري.. الساعة ما جاتش ستة أصلًا.

- انتِ نازلة من الصبح يا مريم.. وحياتي عندك ما تقلقيني عليكِ.. فيه حاجة؟

- يا ماما مانا باكلمك أهُه.. فيه حاجة إيه بس؟ اتغدي انتِ.. وانا هاطمنك عليَّ كل شوية.

ثم مالت برأسها بعيدًا عن عُمَر حتى لا يسمع، وأضافت:

- يا ماما انتِ كل يوم تقولي لي اخرجي.. واتفسحي.. وعيشي حياتك.. ولما اسمع كلامك تندّميني كدا؟

- يا حبيبتي اعملي اللي نفسك بيه.. بس قولي لي.. أنا ما حيلتيش غيرك اخاف عليه.. ويشيلني.

- حاضر يا ماما.. بلاش دراما بقى.. أنا زي الفل ومبسوطة.. ومش هاتأخر والله.. يلا بقى سلام عشان الأكل جه.

- خدي بالك من نفسك يا حبيبتي.. مع السلامة.

أعادت مريم هاتفها إلى جيبها، ونظرت إلى عُمَر بخجل، وقالت مُهَدّدة، حتى تداري حمرة وجهها:

- اوعى يكون حَط بصل.. هارجّعك بيهم.

فضحك وقال:

- تصدقي نسيت اقول له يزوّد البصل عندك؟!

نظرت له مُتفحّصة، والسيارات خلفها، تعزف مقطوعة غير موسيقية، يتجاهلها عقل من تعوّد على العيش في العاصمة الصاخبة، ولكنها قد تصيب الزائرين، من مُعتادي الهدوء بالهلع، حتى يعتادوا عليها.

كانا قد صفّا السيارة، في أحد شوارع مصر الجديدة، العتيقة، ذات العمارات أوروبية التصميم، واشترى عُمَر "سندوتشات" ووقفا يأكلاها، على جانب الطريق، على غير عادة مريم، فهي لا تتذكر أنها قامت بهذا أبدًا من قبل.

قالت وهي تنظر خلفها، صوب سيارة أطلق سائقها بوقها، لدقيقة كاملة، حتى يتعجَّل السيارة التي أمامه، لتسير، في حين أن الطريق أمامهما مليء بالسيارات، ولا يوجد سبيل للسير، سوى الانتظار، الذي لا يطيقه مُطلق البوق المُزعج.

- ها؟!! قُل لي بقى.. إيه المشروع اللي شغال عليه حاليًّا.. وقُلت مطلّع عينك وتاعبك؟! سألت وهي تمضغ أول قضمة من "السندوتش"، الذي بدا من ملامحها، أن طعمه راق لها كثيرًا.

- مخلَل؟! سأل عُمَر وهو يناولها شوكة بلاستيكية، غُرزت في قطعة خيار مخلل صغيرة.

نظرت صوب الشوكة بتوجُس، وقالت:

- أنا مش فافي والله.. بس الأكل بالذات لازم يكون مغسول كويـ..

مَد عُمَر يده صوب فمّها ليُسكتها، ففتحته دون إدراك، والتهمت الخيارة، فراقت لها، وضحكت رغمًا عنها، فاضطرت إلى ترك السندوتش، ووضع يدها على فمها، لتمنع الطعام من الوقوع خارجه، وقالت:

- يا ابني هتموّتني.

ضحك ولَم يجِب على جُملتها، ولكنه أجاب على سؤالها، وكأن ما حدث لتوه، لم يحدث:

- المشروع اللي شغال عليه.. المفروض خلص خلاص.. بس حصلت مُشكلة واحدة.. وعقّدت القصة كلها، وللأسف مُضطر أعمل حاجة مش باحب اعملها خالص.. بس مُضطر.

سألت باهتمام وهي تلوك الطعام باستمتاع ملحوظ:

- إيه الحاجة دي؟!

- أسرق.

* * *

٤٨

- لمون يا ابني للحاجة.. وهات لي قهوة. قال وائل للساعي، ثم نظر إلى والدة السيّدة المقتولة، وقال بتعاطف:

- ربنا يصبّرك يا ماما.. أنا مش هاطوّل عليكِ.

- ربنا يبارك لك يا ابني.. اتفضل. قالت السيّدة بأسى، وفُقدان طاقة.

- كان في أي نوع من المشاكل بين ناهد وجوزها؟! أي حاجة تخلّيه... يعني... عاوز يخلص منها؟

نظرت له السيّدة المُسنّة بوعي غائب، متسائلة، فأضاف موضّحًا:

- دا شُغلي ماعلش.. بنراجع كل الاحتمالات.. ماعلش.. جاريني وجاوبي على السؤال من فضلك.

- لا يا ابني ولا يهمك.. أنا بس مش متصورة عادل يعمل كدا.. وبعدين ما هو حضرتك ما كانش معاها.. مش كدا ولا إيه؟!

قال وائل بودٍ، بعد أن بذل مجهودًا كبيرًا في إخفاء ضيق انتابه من سؤالها:

- يا حاجة ما تشغليش بالك انتِ هو كان فين.. ولا حصل ازاي.. دا شُغلنا احنا.. ساعديني اعمله من فضلك.. ها؟! كان فيه بينهم مشاكل من أي نوع؟

صمتت لثوانٍ، بدت خلالها وكأنها لا تنوي الإجابة، وكأن السؤال لم يصلها من الأساس ثم قالت بصوت بحَّهُ الألم:

- لا يا حضرة الظابط.. هو راجل بارد جدًّا.. وعمري ما شُفته متعصب.. ولا حتى ناهد بنتي عمرها حكِت لي إنه شخط فيها حتى.

هو كان بيحبها.. بس هي ما كانتش بتحبه.. بس ما كانش فيه بينهم مشاكل وخناق.

وموضوع الخلفة دا كان كاسر عينه قصادها.. وقصاد العيلة عندنا.. وهي طلبت الطلاق.. وهو كان رافض.. وكان بيقول لو الخلفة هي السبب نحاول بالعمليات.. بس هي كانت رافضة.

هَزّ الرائد رأسه، وصمت لثوانٍ، لعلّها تُضيف، ثم قال، عندما أدرك انتهاءها:

- تفتكري ممكن يكون عمل كدا؟

- إن بعض الظنّ إثم يا ابني.. بس أنا طول عمري باخاف من الراجل اللي بيكتم دا.. الراجل العصبي.. اللي بيقول كل اللي جواه أول بأول.. بيبقى طيب زي العيل الصغير.. لكن اللي بيكتم وما ينطقش دا يتخاف منه.. الكتمة وحشة يا ابني.. وبتحرق الجتّة.. وبتخلي شيطانك صاحي.. ربنا يرحمها.. كانت بتخاف منه وهو ساكت أكتر من أي وقت تاني. وبَكَت بصوت خافت، حزين.

* * *

٤٩

توقفت مريم عن الأكل، وقالت دون انتباه للفتات الذي طار من فمها:

- تسرق؟!!

ضحك عُمَر عندما تداركت هي موقفها، وأغلقت فمها الذي تدلى في استنكار واضح، ووضّح:

- هاسرق حقّي.

قالت بنفور مُستنكرة:

- ما فيش حاجة اسمها كدا.. لو حقّك.. مش هتحتاج تسرقه.

قضم بنهم من طعامه، ثم سأل بصوت عالٍ، حتى لا تغطي عليه أبواق السيارات:

- طب ولو حد سرق مني حقّي؟ مش من حقي اسرقه؟

- احنا في بلد فيها قانون. بغضَب.

ضحك وقال:

- يا بنتي اهدي بس.. قانون إيه؟ أنا أساسًا عامل عملية لو اتمسكت بعملها هتحبس.. واللي طلبها مش عاوز يدفع حسابي.

- ما هو عشان بتشتغل مع مُجرمين.. تستاهل.

- يعني أنا غلطان إني حكيت لك.. مش اتفقنا من الأول ما حدش يحكم ع التاني؟

تنهّدت بضيق، وقالت:

- عندك حق أنا آسفة.. بس ماعلش يعني؛ ما هو أنا طبيعتي مش قابلة اللي بتقوله دا لسَّا.

ابتسم، وقال:

- عارف.

- طب واللي هتسرقه دا يا عُمَر مش حد خطير؟ ممكن يئذيك.

- مش قُلت لك أنا ما حدش يعرفني أصلًا؟ وبعدين هو لو خطير.. كان احتاجني أعمله شغله الخطير؟

- مش مُقتنعة.

ضحك ولَم يُجِب، فقالت:

- طب بس بشرط.

- هو إيه اللي بشرط أصلًا؟

قالت بعفوية وكأنها تُقِر واقعًا:

- هاسيبك تسرق بس بشرط.

ضحك بصوت عالٍ لثوانٍ، ثم قال:

- هتسيبيني؟! لا لا.. انتِ أكل الشارع غلط عليكِ.. دماغك ضربت.

- استنى بس.. باتكلم بجد.. أنا عاوزة اتفرج.. دا شرطي الوحيد.

نظر لها بصمت لثوانٍ، حتى يتأكد من جدّية طلبها، ثم قال بعدما تأكد:

- بطّلي جنان.. دي مش رواية بوليسية بتقريها وانتِ قاعدة في البلكونة.. دي عملية بجد.

ثم قال بحزم مُحذرًا:

- ما تخلينيش اندم إني حكيت لك.

- أنا مش عاوزة آجي اسرق معاك.. انت اتجننت؟ لا طبعًا. أنا بس عاوزة اتفرج عليك وانت بتشتغل.. يعني بتخطط ازاي.. تشرح لي القصة.. مين اللي ضحك عليك دا.. مش يمكن نلاقي حل غير السرقة؟

ثم أضافت بثقة:

- مش انت حكيت؟ ووثقت فيَّ؟ يبقى تحكي للآخر.. ما ليش دعوة.

صمت لدقيقة كاملة، فكّر خلالها فيما قالت، ثم قال بلهجة من قَرر خوض تجربة جديدة:

- عندك حق.. بس بشرط.

- موافقة. قالت بحماس.

- طب مش تعرفي الشرط الأول؟

- قول. بنفاد صبر.

- تحكي لي انتِ كمان.

- أنا ما عنديش حاجة تتحكي.. حياتي مُملة...

- يبقى أنا كمان ما عنديش حاجة تتحكي.

- يووووه.. ماشي حاضر موافقة.. هاحكي لك.. انت الخسران.. بس ما تجيش تزهق وتقولي اسكُتي.

- اتفقنا.. Ladies first.. يلا.

- وحياة طنط؟

* * *

مذكرات

١٢

عندما تتسلل نملة إلى خزانة السكر: انت لا تقتل تلك المُذنبة وحدها..

ولكنك تتّبع خط سيرها وتقتل كل النمل.. برغم براءة معظمهم من ذنب

أكل سُكرك. فلماذا؟!

لأنك على يقين بأن سرقتهم للسُكر جزء من طبيعتهم.. لن يتخلّوا عنه..

مهما كان عقاب كل نملة فعلتها من قبل.

نعم..

كل البشر قتلة.

* * *

٥٠

خرج المهندس عادل من باب العمارة التي تقع فيها شركته، ليجد الضابط وائل يبدو منتظرًا إيّاه عند سيارته، فتوجّه صوبه، وصافحه بفتور، وسأل:

- سعادتك عرفت منين إني هنا؟

- انت ما تعرفش إنك تحت عينينا ولا إيه؟ واصطنع أسخف ابتسامة استطاعها، ثم تجهّم، وقال دون تأجيل:

- واحد جا لُه تليفون إن فيه صوت ضرب نار اتسمع جوّا شقته.. رجع جري ع البيت.. تفتكر إيه اللي ممكن يخلّيه يطلع ٦ أدوار ع السلم؟! ونظر صوب الرجل متفحصًا ملامحه، وكل حركة يقوم بها.

لَم تُخطئ عين الضابط، التوتر الذي نال من ملامح، ولُغة جسد المهندس، الذي رفع يده ملوّحًا، وهَزّ كتفه باستهتار مُصطنع، وحكّ دقنه، ثم قال بصوت أكمل فضحه:

- مش شايف إن دا سؤال سخيف جدًّا.. سامحني يعني.. بس كنت هاجيب منين صبر استنى الأسانسير؟

"كَذِب، كما توقعت"

- طب ولو الأسانسير كان في الأرضي؟

- ما شُفتوش.

"إجابة جاهزة، دون دهشة، ودون إنكار.. كان يعلم أن المصعد في الأرضي وتجاهله عمدًا"

- طب وسيّد البوّاب؟ ما سمعتوش برضه لما نده لك يقول لك الأسانسير واقف قصادك؟

- لأ.. ما سمعتوش. بضيق وتوتر وغضب مكتوم.

ابتسم وائل ابتسامة المُنتصر، وهَزّ رأسه برضى كمَن حصل على ما أراد، ثم قال:

- هنتقابل تاني. ورحل، وترك خلفه رجلًا يرتعد من التوتر.

* * *

٥١

أسند عُمَر مرفقيه على سور الكوبري، ونظر صوب النيل وقال بصوت هادئ، كصفحة النيل المُنساب، كالدماء في شريان جسد ساكن، قلبه ضعيف النبض:

- بعد ما قريت القصة.. قررت اجمع فريقي الخاص.. دوّرت كتير على هاكر شاطر.. لحد ما عرفت سكّة حد.. طلعت عيني عشان الاقيه.. بس اللي يفضل ورا اللي عاوزه بيوصل له في الآخر.. وعرضت عليه عرض صعب يترفض.

كان حلمه يبقى واحد من أكبر المُبرمجين في شركة من الكُبار.. بس أنا وعدته باللي فعلًا بيتمناه.. وعدته بالفلوس.

نظر صوب مريم، التي بدت كطفلة سقطت في حفرة بلاد العجائب. كانت مأخوذة بقصّته التي تليق بصفحات الروايات، وقال:

- للأسف في الزمن دا معظم شبابنا بقى حلمهم مُجرد وسيلة لتحقيق الفلوس.. يعني مش بيحلم يحقق نفسه في المجال اللي شايف نفسه فيه.. لا.. هو بيحلم يبقى غَني.

وطبعًا لما عرضت على هيثم يشتغل معايا.. ونبقى أغنيا وافق فورًا.

وبعدها وصلت لنادر بمساعدة هيثم.. وعرضت عليه نفس العرض.

عاوز تبقى كاتب وتصرف فلوس عشان تنشر كتاب؟ ولا تشتغل معايا.. وتبقى غني؟ هتكتب برضه.. بس هتكتب خطط وسيناريوهات.. وانا هانفذها. بصراحة نادر عبقري.. بس هو مجنون شوية.. عنده خيال وذكاء مش طبيعي في وضع الخطط والتمويه.. بس للأسف بيكلم نفسه كتير.. وساعات بيشوف شخصيات من القصص اللي بيكتبها قُصاده.. بس في الحقيقة.. هو عبقري.

وطبعًا قِبل فورًا.

زي ما قُلت لك.. أحلامهم كانت وسيلة. قال بأسف.

- انت زعلت عشان وافقوا يشتغلوا معاك؟

- لا بالعكس.. أنا بس كنت اتمنى يقاوموا المقاومة اللي كنت متوقعها.. لكن تخلّيهم عن أحلامهم بالسرعة دي.. لفت نظري لحاجة كانت غايبة عني. إن ما بقاش في حد عاوز يحقق نفسه عشان نفسه.

بقت كل الناس يدوب بتتمنى تعيش.. بتفرق من شخص للتاني.. بس الحقيقة بقى كله بيتمنى يعيش، فيه اللي بيتمنى يعيش بمليون جنيه في الشهر.. وفي اللي بيتمنى يعيش وبس.

ما بقاش في حد عنده رسالة وحلم.. ومؤمن بيهم. إلا قليلين قوي. حتى أنا.. كل هدفي اعيش.. بسبب ذاكرتي العيشة مُتعبة.. فعملت كل دا عشان اعيش وبس.

ثم تنهّد، وقال مبتسمًا:

- مش طالبة فلسفة.. المُهم؛ بدأنا نشتغل فعلًا.. وهيثم بقى يجيب شغل من على الDark و الDeep Web.. ونادر يرسم خطة التنفيذ.. وانا انفذ. وبقى معانا فلوس.. وانا بقيت عايش على جرعة الأدرينالين.. اللي باخدها في العمليات.

من فترة جات لنا عملية جديدة.. حد كان طالب ڤيروس كمبيوتر.. ينزل على نظام البحث الجنائي يمسح التاريخ الجنائي بتاع شخص مُعين. ڤيروس ذكي. هيثم قدر يعمل الڤيروس.. وكان تمنه غالي جدًّا.. بس بعدها العميل طلب حد يدخّل الڤيروس على نظام البحث، وطبعًا أجهزة البحث الجنائي معزولة.. يعني هيثم ما يقدرش يهاك عليها من الإنترنت.. لازم حد يوصّل الڤيروس بنفسه على شبكة البحث.

بس المشكلة كانت في إننا مش عاوزين الشرطة تكتشف الموضوع.. أولًا عشان ما تاخُدش بالها وتكتشف وتمسح الڤيروس.. وثانيًا عشان دي أول مرة نعمل عملية جوّا جهاز سيادي ومش عاوزين ندخل في حاجة أكبر مننا.

لحد ما نادر العبقري حلّها.. خطته كانت عبقرية وبسيطة.. تعتمد على توجيه نظر الناس كلها في سكّة غير السكّة اللي بنعمل فيها العملية.. زي الساحر، وزي ما كان أبويا الله يرحمه علّمني.

الخطة كانت إننا نعمل عملية اقتحام في قسم.. وتنتهي بمحاولة تهريب فاشلة لمُحتجز أبوه غني.. وننصب على الراجل في فلوس.. بس في الوقت اللي أنا فيه جوّا القسم.. أحمّل الڤيروس على جهاز البحث. وساعتها ما حدش

كان ينفع يشُك في إن اللي دخل القسم كان له علاقة بجهاز البحث من أصله، وفي نفس الوقت ما هرّبتش المُحتجز.. يعني باختصار كدا.. يا دار ما دخلك شرّ.. الداخلية مش هتُستفَز قوي يعني.

- يخرب بيتكم.. وبعدين؟! بانبهار واضح.

- العملية اتنفذت وكله تمام.. بس الحظ لأول مرة يعاندنا، فيه حد شَكّ في موضوع جهاز البحث.. ما اعرفش ازاي.. بس فيه حد شَكّ.. والخبر اتسرّب ع الإنترنت. وفي نفس الوقت.. بعد نحاجنا في تنفيذ العملية.. العميل مش راضي يدفع الفلوس إلا لما يقابلني.. واضح إنه منبهر بشُغلي وعاوز يجنّدني.. وبيضغط بالفلوس.

دالوقت أنا بقيت مُضطر أسرق فلوسي من العميل.. ولازم يتعاقب. هو راجل ملياردير.. وعنده نفوذ.. ومشاريع كتير في البلد.. بس مش دي المُشكلة. المُشكلة الحقيقة؛ إني عاوز اعرف اللي عرف موضوع البحث دا عرفه منين.. لازم اعرف الغلطة فين.

نادر لسَّا باعت لي من شوية خطة العمل على الجهتين دول.. غالبًا هابتدي النهاردا.

نفضت مريم رأسها بقوة، في محاولة لاستيعاب ما سمعت، وكأن عقلها سيتسع لكمية أكبر من المعلومات بعد هزّها إياه، وقالت:

- بسرعة كدا؟ ومش مُشكلة ازاي؟ دي سرقة يا ابني.. وبتقول عنده نفوذ.. يعني خطير.. وبعدين هتعرف منين الغلطة فين؟

- موضوع السرقة دا مش جديد علينا.. عملناه قبل كدا كذا مرة.. وهو عنده أكتر من مكتب صرافة.. وشركات كتير.. هنشوف أسهل مكان وهاروح آخد حقي منه، ما هو في مجالنا دا ما ينفعش يحصل كدا واسكت.. لأن دا معناه إني ضعيف.. لازم الرد يكون حاسم ويخوّف.

أما المعلومات؛ فهاعرفها من اللي سرّبها.. هيثم عرف اسمه.. وهيجيب عنوانه.. وانا هاروح اسأله.

- بالبساطة دي؟ هتروح تسأله؟

- مش بالبساطة دي طبعًا.. بس باختصار؛ هاسأل وهو هيجاوب.. لأنه مش هيبقى عنده بديل غير كدا.

ثم اعتدل ونظر إليها، وقال بغضب مُصطنع:

- مش هنتكلم عنك شوية بقى قبل ما اليوم يخلص؟

* * *

٥٢

فتح وائل دُرج مكتبه، وأخرج منه ملفًّا قديمًا، وضعه أمامه على المكتب وفتحه، وطالع سطور أول ورقة، كانت بها مُلاحظاته عن القضية، التي ينظُر إلى نُسخة من ملفّها؛ تلك القضية التي لَم تتوقف عن هدم جدار ثقته في نفسه كضابط مباحث فَذّ. فكلما أقام الجدار، هاجمته ذكرى تلك القضية، وأصابته في مقتل.

"هتفضل القضية دي نُقطة سودا في حياتي"

ظَلّ ينظُر إلى مُلاحظاته بوعي شبه غائب، حيث كان يستنطق القضية في الحقيقة.

لا يعلم الضابط لماذا توحّش هجوم ذكرى تلك القضية، على وعيه، كما تهاجم الوساوس، المريض النفسي، مع بداية تحقيقه في قضية الزوج، الذي أصبح اليقين من أنه هو من قتل زوجته، قاب قوسين أو أدنى من احتلال قناعة الضابط.

"لماذا الآن بالذات؟!"

تأكد الضابط أن عقله الباطن، يرسل له رسائل مُشفّرة، استقبلها وعيه دون مجهود، فصوتها أصخَب من ألا يُلاحَظ، ولكن بقي فك تشفيرها عصيًّا.

يحتاج وعيه المزيد من الإشارات، فجلس أمام ملف القضية، الذي لطالما استدعاه، في ليالٍ تعكّر فيها مزاجه، بحثًا عن خطأ اقترفه، أو ثغرة لم ينتبه لها، أفلت منها مُجرم، كان يعلم الضابط بوجوده، ولم يستطع إثبات أي شيء عليه، أو إثبات حتى وجوده.

ترفض القضية القديمة الإفصاح. ويملأ الصمت فراغ الغرفة، عكس رأس الضابط، التي يملأها ضجيج، إشارات تُبث بلُغة لا يفهمها، حتى العاصمة خلف زجاج باب شُرفته صمتت، وكأنها منافس شرس، واثق من فشل وائل، تنظُر إليه باستفزاز، وتشفٍّ، ولكنها تعطيه الفُرصة كاملة ليُفكر، حتى لا يبرر فشله بأن صخبها منعه من التفكير.

بدا وكأن الزمن قد توقف لدقائق، لم ينطق خلالها ملف القضية، حتى تنهّد الضابط بإنهاك واضح، وجسد مُرهق، معدوم الطاقة، بعد يوم كامل من استهلاك قهوة تكفيه لأسبوع كامل، وسجائر تكفيه لضعف ذلك.

أصدر هاتفه صوتًا خافتًا، مُعلنًا عن وصول رسالة، من خطيبته، ظهرت على الشاشة فور وصولها تقول: "مستنياك تكلّمني.. مش هانام". نظر وائل إلى هاتفه لدقيقة كاملة، وكأنه مسافر عبر الزمن، ولا يعلم ما هذا الشيء، وبدا وكأنه لا ينظُر إلى الهاتف سوى بعين سارحة، ووعي غائب، لا يُدرك أن عليه أن يقرأ الرسالة، ويجيب.

تجاهل الهاتف مؤقتًا، والتقط قلمًا من الدرج، وورقة بيضاء، وبدأ يفعل ما يُجيده؛ التحقيق. بدأ يطرح الأسئلة على نفسه، ويبحث عن الإجابات، أمامه على الحائط، حيث صور مسرح الجريمة الحديثة، وفوق المكتب حيث ترك ملف القضية القديمة، وأخيرًا وليس آخرًا، في عقله الباطن، حيث الرسالة المُشفّرة.

تمنّى أن تتمكن أسئلته من فكّ طلاسم رسالة عقله الباطن.

كتب أعلى الورقة "أوجه الشبه بين القضيّتين"، ثم ترك القلم وبدأ يُفكِّر.

لَم يَحْتَجْ الضابط لأكثر من دقيقة، حتى يدرك أن أوجه التشابه بينهما كثيرة.

المُشتبه فيه الأول من وجهة نظر الضابط، في كل منهما، يملك حجة غياب، لا غبار عليها، وكأنهما تعمّدا منع أي شك من التسرُب لنفوس المُحققين فيهما.

كل قضية منهما، لا تحتاج سوى لدقيقة واحدة من الملاحظة، حتى تجد الفاعل، دون مجهود، وكأنها أحد الأحاجي، التي تظهر على التلفزيون، مُغلّفة بغلاف شفّاف من الغموض، لتستفز المشاهدين للاتصال، طمعًا في الفوز بجائزة لا تزيد عن واحد بالمئة، مما يجمعه صاحب القناة من جيوب المُتصلين، الذي يعتقد كل منهم أنه فقط من حَلّ اللُغز، والذي يمكن رؤية حَلِّهِ من الفضاء.

أثناء التحقيق في كلتا القضيّتين، كان وائل على يقين، أن هناك طرف ثالث. طرف ارتكب الجريمة، ثم أوقع، بطريقة ما، سليمان الهجّام، في فخ نُصِب من أجله بعناية. وطرف ثالث قتل ناهد منذ أيام، واختفى بلا أثر، كالعطر الرخيص.

بدأت معنويات الضابط في الارتفاع، ونال منه الحماس، وضخ قلبه الدماء في عروقه بنشاط، جدّدته بداية عودة ثقته في ذكائه.

شعر بالطلاسم تتحرك في لاوعيه، كالدخان، حفّزها تفكيره المُرتب، وبدأت في الحركة، في سبيلها للفَك.

دوَّن وائل أوجه الشبه على الورقة أمامه؛

١. المُستفيد الأكبر عنده حجة غياب مؤكدة.

٢. القضية نازلة محلولة.

٣. طرف تالت.

الجريمة الكاملة؟!!

ثم ثبّتها على الحائط أمامه، وثبّت تحتها ورقة ملاحظاته عن قضية سليمان الهجّام، وأخد ينظّر إلى الحائط بشرود، وفي عقله فكرة، أو نظرية، أو سؤال، بدأ يتجمّع من فوضى أفكاره، كقطرات ماء مُنهمر، على زجاج سيارة مُسرعة، ثم بدأت حروفه تترتب من تلقاء نفسها، وكأنه، بملاحظته أوجه التشابه، أدخل مفتاح حل الشفرة، لتظهر الفكرة، في شكل سؤال، فجأة، بوضوح يليق بنهار مُشمس، جاء بعد ليل ممطر طويل، على سطح وعيه.

"هل يمكن أن يكون الفاعل في القضيتين قاتلًا مأجورًا، خفيًّا كالشبح، يجيد التخطيط، لدرجة تنفيذه الجريمة الكاملة مرتين على الأقل، دون حتى الاشتباه في وجوده؟"

* * *

مذكرات

١٣

أعدائي هُم البشر..

كُلهم..

والقانون..

الذي وضعه البشر..

الذي لا يُجرِّم القاتل..

لأن من وضعه من فصيلة البشر..

كل البشر قتلة..

والقانون هو سلاح الجريمة..

ولَن أقتل منكم، فقط، من تسلل إلى خزانة السكر..

كُلكم تستحقون القتل..

وبالقانون.

* * *

٥٣

خرج عماد من غُرفة نومه، على إثر دقّات متكررة، مُلِحَّة على باب شقَّته، منعَ ظلام الشقة، الذي يغطيها، سوى من ضوء خافت تسلل من مكان ما، من ظهور علامات الدهشة والاستغراب على ملامح الصحفي غائب الوعي، بسبب ما دخَّنه قبل أن ينام.

خَطَا خطوات حذرة في صالة شقَّته، حتى يتجنب اصطدام أصابع قدمه، في كرسيٍّ اعتاد اصطياد قدمه، بغريزة تجنُّب الألم، التي لا يُضعفها مُخدر، ولا يمنعها غياب وعي.

تمكَّن من العثور على مفتاح إضاءة الصالة، دون حوادث مؤلمة لقدمه، وفتح النور.

ولكن على عكس ما توقع، كان الطارق يجلس، داخل الشقة، على كُرسيه الخشبي، الذي اعتاد الاصطدام به، كلما غادر غُرفته أثناء الليل، ويسند ظهر الكُرسي على باب الشقة، مما ترك أرجل الكرسي الأمامية مُعلقة في الهواء، وكان يطرق الباب من الداخل حتى يوقظه.

"لهذا إذًا لَم أصطدم بالكرسي كالعادة، فالكُرسي في غير موضعه" سرَح وعي عماد هلاميَّ التركيز لثانية.

وبذل مجهودًا كبيرًا، حتى يتمكن من تحريك أي من أعضاء جسمه، وعجز. مارس كل من: المُخدر، والمسدس المصوّب إلى صدره، والقناع الذي

يستخدمه المُمثلون الأجانب عند أدائهم أدوار القوات الخاصة، الذي يُغطي وجه الزائر، أقصى درجات الكبت، ومنع الإرادة، ففقد السيطرة على نفسه، وصدرت منه رعدة، دارتها بيجامته الواسعة، ولَم يتحرك.

كان عُمَر قد نفّذ تعليمات نادر بدقة، أخفى وجهه بقناع يرتبط في العقول بالقوة المُفرطة، وأعطى ظهره لباب الشقة، حتى لا يهاجمه أحد بشكل غير متوقع، وعلَّق صاعقًا كهربائيًا في حزامه تحسُبًا لأي مواجهة قريبة المدى، مع أي أحد، أو شيء، وتأكد من وجود الكثير من قطع الأثاث بينه وبين عماد، مما سيعيق هجومًا انتحاريًا قد يقوم به الأخير.

"عبقري هذا النادر"

كان يستمتع عُمَر برؤية مشاهد نادر تتحقق، وكأنه شاهدها من قبل.

- عندك كلب؟

"تأكد من عدم وجود حيوان أليف.. أو مُفترس"

- انت جاي تسرق صوفي؟ نايمة. أجاب عماد بآلية.

"أوهمه أنك لست وحدك"

- أنا حبيت ادخُل لوحدي.. بس أي تصرُّف غبي منك.. الرجالة برَّا الباب دا هيحصَّلوني.. واتمنى لمصلحتك دا ما يحصلش.

هُما سؤالين وهاختفي زي الكابوس اللي بتصحى منه مش فاكره.

هَزّ عماد رأسه هزّة أقرب إلى الرعشة، اعتبرها عُمر إيماءة موافقة، وعلامة على نجاح خطة شَلّ تفكير الخِصم، فأكمل:

- انت صاحب حساب "حشرة".. نزّلـ...

- مش انـ...

- لا لا.. انت هتتكلم لما أنا أسألك السؤال اللي جاي أسأله.. اللي قُلته دا معلومة.. إقرار.. مش سؤال.

لما اسألك هتجاوب.. تمام؟

رعشة أخرى، دخل وعي عماد رسميًّا في وضع الدُمية.

- نزّلت معلومة خاصة بجهاز البحث الجنائي في مقالتك.. عرفت منين المعلومة دي؟ جاوب. وأشار عُمَر صوب عماد بمُسدسه باستهتار، فجفل الأخير وتمتم:

- من مجند الخدمة في القسم.. بتاع ظابط المباحث.

- والمُجند جاب المعلومة دي منين؟

- من ظابط المباحـ...

قطع أذان الفجر جُملة الصحفي، الذي انتفض عند سماعه الصوت العالي غير المتوقع، ثم هدأ نسبيًّا بعد إدراكه أنه الأذان، فسماعه أصوات البشر، بعث في روحه القليل من الاطمئنان، وكأنه ليس بمُفرده.

رفع عُمَر مُسدسه ووجّهه صوب عماد، وأشار له أن يكمل حديثه، فامتثل، ولكن بصوت أعلى حتى يطغى على صوت المؤذن:

- من ظابط المباحث في القسم يا باشا.. زميل سعادتك.. مش حضرتك مباحث برضه؟

"إن ظَنّ أنك جهة سيادية لا تؤكد أو تنفي.. الغموض يُربك الخصم.. وينهك عقله في تفسيرات طويلة مُنهكة.. لن تنتهي قبل حصولك على مُبتغاك"

ابتسم عُمَر باستمتاع، كما يفعل دائمًا وهو يرى نبوءات نادر تتحقق، وساعده قناعه على إبقاء وجهه جامدًا أمام الصحفي المُرتعد خوفًا. وقال مُتجاهلًا سؤال عماد، بصوت جامد وعالٍ نسبيًّا بسبب الأذان:

- اسمه إيه الظابط دا؟

- ااا. ثم صمت ليتذكر. كان قد كتب مقالة عن حادثة انتحار، يحقق فيها الرائد.. تذكر.

- وائل.. اسمه وائل يا بيه.

- ممم والظابط دا عرف المعلومة دي منين؟ يلا هانت آخر سؤال علشان تصحى.

شجّع وعد عُمَر بالرحيل عماد، فهو حتى تلك اللحظة كان على يقين أن هذا الزائر سيقبض عليه، وسيختفي مدى الحياة، وقد يُعثر على رُفاته، مُلقًى في مقبرة جماعية، أسفل أحد مباني أمن الدولة، الذي سيكتشف داخله أن صلاح نصر، لَم ولن يموت.

- تقريبًا يا باشا حاجة ليها دعوة بشاحن التليفون.. بيتهز.. أو بيلّعق.. فعرف إن حد لعب في الجهاز.

تذكر عُمَر، بفضل ذاكرته، وجود شاحن هاتف موصّل بالفعل بالجهاز، عند قيامه بتوصيل الـUSB Memory التي كانت تحمل الڤيروس، وتذكر اضطراره لفصله، وإعادته.

"ما هذا الحظ السيء؟!"

فكّر عُمَر لثانيتين، طغى سكون ساحر خلالهما على المشهد، بعد انتهاء المؤذن من مناداة النيام، للقيام، ثم عدَّل من جلسته، وقام فجأة، وتأكد من وجود الصاعق في مكانه، مُعلقًا في حزامه، وقال وهو يُعيد مُسدسه إلى جرابه تحت إبطه، والذي أعطاه مع اللون الأسود الذي طغى على ملابسه كلها طلّة ساحرة ومُرعبة:

- طبعًا معاك نمرة المُجند دا.. تكلِّمه حالًا وتجيب لي منه نمرة الظابط.. وطبعًا مش هتجيب سيرة إنك عاوزها عشان حد.. اتصرف.. بس لو جبت سيرتي.. هننزل سوا من هنا مش هانزل لوحدي.

* * *

٥٤

وقفت مريم خلف شباك غُرفتها، تنظر إلى زجاج شقة عُمر الداكن، لا تعلم عنه شيئًا مُنذ عادت إلى شقتها، هو حتى لم يطلب منها رقم هاتفها، وهي، بالطبع لن تطلب رقمه، ولن تعرض إعطاءه رقمها، ما لم يطلبه.

لم تخرج إلى الشرفة، بسبب حرارة الصيف، وبسبب عدم رغبتها في الشعور وكأنها مُراقبة منه.

صريحة هي مع نفسها لأقصى درجة، أعجبها عُمَر الشقيّ، ومن لن يعجبها هذا الشاب؟ ولكنها كانت تُعلم أين تقع حدود علاقتها به، لا يمكن أن تتطوّر تلك العلاقة إلى ما هو أبعد من الصداقة، هكذا أفضل.

سرحت قليلًا تتذكر...

- ماشي.. نتكلم عني.. عاوز تعرف إيه؟
- قولي انتِ.. عاوزة تحكي إيه؟ ثم ابتسم وأضاف مُحذرًا:
- بس خُدي بالك.. أنا مش بانسي.. ما فيش حرف هتقوليه هيتمسح.
- حاجة تخوّف دي؟
- آه طبعًا تخوِّف.. لو عندك حاجة تخافي منها.. اعترفي.. عندك؟

تنهّدت، ودارت التنهيدة بابتسامة عذبة، وقالت، وهي تسيطر على بعض الخصلات التي تمرَّدت، وبادلت نسمة الصيف المُداعبة، وتعيدها إلى مكانها:

- باخاف من الفُراق.. بس. دي الحاجة الوحيدة اللي بترعبني.. وعشان كدا مقرّرة ما ادخُلش في أي علاقة تعرضني لإحساس الفقد دا مرة تانية بعد بابا الله يرحمه.

موت بابا كسرني يا عُمر.. بعده دخلت في نوبة بارانويا.. وفضلت لفترة عندي قناعة إنه لسَّا عايش.. وبعدين بقيت مقتنعة إنه اتقتل.. لدرجة إني شبه حققت في حادثة موته...

غادرتها الذكرى، كعادتها، دون إنذار.

تساءلت وهي تجبر نفسها على التمدد على سريرها، وترك مراقبة زجاج الساحر.

"هل ضايقتُه عندما وضعت حدًّا لعلاقتنا؟"

"لَم أشعر بضيق انتابه.. إلا إذا كان بارعًا جدًّا في إخفاء مشاعره.. كما هو بارع في... تقريبًا: كل شيء آخر"

"هكذا أفضل.. لا يمكنني أن أحبه.. الأحبة يرحلون.. سأكتفي بصداقته.. وليصبح ثمن بقائه: هو الحُب الذي لن يكون بيننا.. سأضحّي بالحُب كهاميس.. سألقي به إلى نهر صداقتنا ليفيض ويبقى"

* *

"كيف يمكن لمن هو مثلي أن يحب؟"

"لا أعلم لماذا شعرت بغصَّة عندما قالت مريم أنها لا ترغب في علاقة حُب مع أحدهم"

"هل أرادت توصيل رسالة لي مفادها أننا لا نصلح لبعضنا البعض؟"

"وهل تلومها؟"

"أنت خارج عن القانون.. مُجرد قبولها صداقتك يعتبر خطيئة في نظر الناس"

"ثم لماذا الضيق؟ أعجبتك؟.. نعم. ولهذا تقرّبت إليها.. ولكنك لا تصلُح"

"أنت لا تنسى.. ستتذكر كل أخطائها.. وأتفه هفواتها.. وتحيل حياتها جحيمًا"

"ثم أن من هو مثلك لا يمكنه التخلّي عن عمله.. وعملك يتطلب عدم وجود نقاط ضعف في حياتك"

"والهوى يضعف القلوب.. ومن ثَم أصحابها"

"اقبل بصداقتها.. لأنها كما هي أكثر مما تستحق.. ولا تطمع في المزيد"

تردد صوت عُمر في رأسه، التي تخفيها خوذته، وهو يندفع بدراجته البخارية، بأقصى سرعة في شوارع القاهرة، الساحرة في هذا الوقت.

**

- يا وائل بيه وعزّة جلال الله ما قتلت القتيل دا ولا شُفته ولا دخلت شقته.

هَز نقيب مباحث قسم الأقصر رأسه موافقًا، وقال:

- ماشي.. هاصدّقك يا سليمان، هو بصراحة ما فيش أي دليل على وجود سرقة حصلت في شقة القتيل، دا المُريب في مسرح الجريمة، في حاجات يا ما في الشقة كان ممكن تتسرق واتسابت.. زي ما يكون اللي دخل كان مستعجل.. وما فيش دليل واحد على دخول قصري للشقة.. اللي دخل كان معاه مفتاح.. أو القتيل فتح له.. وكمان ما فيش أي بصمة ليك، بس ارجع واقول لك انت هجّام متمرس وفاهم.. ومش مستحيل تلفّق كل دا.. صعب.. لكن مش مستحيل.. وممكن يكون لما لقيت القتيل في الشقة استعجلت وما دوّرتش كويس.

- يا بيه وحياة ولادي ما حصل.. أنا هاجيب مفتاح شقته منين؟ وكمان أنا عمري ما شُفته الراجل دا ولا اعرفه عشان يفتح لي بيته، دا غير إن سعادتك بتقول إن القتيل دا اتقتل قبل ما اروح اصرَّف الحاجة بـ٣ أيام. أنا هادبح واحد يا بيه واخلّي حاجته عندي ٣ أيام؟ دا انا كدا باعلّق روحي في المشنقة بأيدي.

يا بيه أنا الله لا يقدّر يعني.. لو صاحب الشقة صحي وانا باقلّبها.. مع إنها عمرها ما حصلت.. عشان أنا أول حاجة باعملها بأمّن ع السُكّان.. بس افترض حصلت.. ومسكنا في بعض.. هغُزه في جنبه الشمال.. بعيد عن

كبده.. جرح يوجع ما يئذيش.. واطلع اجري.. مش ادبحه.. أنا مش غشيم. ولو حصل ودبحته.. هاحرق الحاجة.. يا بيه دا فيها مشنقة يا بيه مش هزار.

أغلق النقيب عينيه بإنهاك، وتنهّد بضيق وسأل:

- طب تعالى نصدق.. ونفترض إن حد كمّنك عشان يلبّسها لك.. لازم الحد دا كان يعرف إنك كنت رايح تسرق الشقة دي بالتحديد.. وفي اليوم دا بالتحديد.. قام راح هو قبلها قتل القتيل وسرق حاجته وحطها في الشقة اللي انت ناوي تسرقها.. عشان انت تسرقها وانت ما تعرفش إن صاحبها مقتول.. وتروح تصرَّفها عادي جدًّا. دا التفسير الوحيد اللي يمشي مع حكايتك.. مش شايفها صعبة شوية يا سليمان؟

هزّ الهجام رأسه بأسًى، ولم يُجِب، فسأل النقيب:

- مين كان يعرف إنك رايح الشقة دي؟

- قُلت لسعادتك ما حدش. أنا مش تلمي...

قاطعه وائل صارخًا، وهو يضرب على المكتب أمامه:

- عارف عارف.. أنا مش ابن امبارح.. أنا معلم.. أنا مش تلميذ.. أمال مشرَّف هنا ليه يا عم شارلوك؟ فوق بقى.

أجاب سليمان بخفوت، وقد فقد الكثير من كِبره:

- وعزة جلال الله يا بيه ما حد يعرف.

هدأ وائل قليلًا وسأل:

- بتختار الشقق اللي بتسرقها ازاي؟

لَم يُجِب سليمان، فأعاد النقيب سؤاله بشكل آخر:

- مش وقته تبقى حويط.. انطق.. أنا باحاول انقذك.

- واحدة بت بتخدم في البيوت يا وائل بيه.. مرافقها.. وبتقول لي ع الشقق الفاضية في العمارات اللي بتروحها.. بس لو على رقبتي مش قايل هي مين.. أهلها يدبحوها لو شمّوا خبر.. وهي ما تعرفش أنا باروح فين وربنا يا بيه. أنا باسمع منها.. واراقب المكان كام يوم.. وبعدين باختار حسب مداخل الشقة ومخارجها.

أفاق الرائد وائل من ذكرياته، على صوت حركة أمه خارج غرفته، حيث قامت من نومها لتُصلّيَ الفجر، فتنهّد بضيق، ونظر إلى ساعته، ثم التقط قلمه، وكتب سؤاله على الورقة المُثبّتة أمامه على الحائط. ثم عاد وجلس يستنطق الحائط في صمت، ويأس.

كان يعلم أن في حالة صحّة نظريّته المجنونة، فالسبيل الوحيد، لحل القضية القديمة، هو عبر حل القضية الأخرى.

"هتفضل القضية دي نُقطة سودا في حياتي"

* *

غطّى عماد جسده بالكامل، برغم حرارة الصيف القاسية، لعل الغطاء يُشعره بالأمان، ويطرد تلك الرعدة، التي غادر الغريب، ولَم تُغادره معه، كما يجب عليها أن تفعل.

تدافعت الأفكار في رأسه، كالثيران في شوارع مدينة بامبلونا الإسبانية، أثناء انطلاق مهرجان سان فيرمين، وشرع يتذكر لقاءه مع هذا الزائر الهادئ.

كل شيء حول هذا الزائر ينافي المنطق، كل أسئلته تُشير إلى أنه لا يعمل لصالح الجهة التي ادّعى انتماءه إليها، ولكن كل شيء فيه يشير إلى العكس.

"ماذا كان اسم تلك الجهة على أيّة حال؟!!"

لا يتذكر عماد لصالح أيّة جهة قال الزائر أنه يعمل، ولا يتذكر إن كان قد قال من الأساس، ولا يتذكر من الزيارة، سوى بعض اللقطات المتفرّقة، وكأنه كان يشاهد تصويرًا لمشهد، تُقطع عنه الإضاءة، وتعود، بتتابع سريع. فلا يتذكر ما يكفي لتكوين رأي وفكرة كافية عن الزيارة، ولكنه يتذكر ما يكفي لإرعابه لفترة ليست بالقصيرة.

"جبان"

تسارعت أنفاسه، واجتاحت جسده رعدة، بسبب أدرينالين الغضب، الذي اجتاح جسده، كان يعتبر نفسه على مشارف بدء مسيرة ثورية، تمنّى لها أن

تليق بمناضل، ولكنه وبعد أول لقاء حقيقي له مع الوجه القبيح للسُلطة، اكتشف وجهه هو الحقيقي.

التقط الهاتف ليتصل بأسماء، حتى يحكي لها ما حدث، ويسألها النصيحة، ولكنه تراجع، عندما سمع صوت تحذير الزائر له، يتردد داخل أروقة عقله، كالتعويذة، ويشِلُّ حركته.

"ما تمشيش في سكّة وانت مش مُستعد تكمّلها للآخر"

"جبان"

* * *

٥٥

صفحة دردشة مُشفّرة، على الإنترنت، بها ثلاثة مُستخدمين، بأسماء مُستعارة:

الشقي:

- دا كل اللي قاله.. ومعايا رقم تليفون الظابط. وواضح إنه راجل ذكي.. ومش هيسيب القصة دي في حالها. هنعمل فيه إيه دا؟

هولمز:

- هات عنوانه.. وانا هامخمخ واقول لك.

الشقي:

- حالًا.. ومستني رسالتك.

هولمز:

- سؤال: ليه لما الظابط شك؛ ما حدش منع البرنامج؟

أوفسايد:

- يا ابني وهو أنا تلميذ؟ هاعمل ڤيروس يتقفش عادي كدا؟

هولمز:

- بس مش لدرجة إن حد يكون عارف إنه موجود وما يعرفش يجيبه. وبعدين ما تعيشّ في الدور.

أوفسايد:

- بُص يا مُغفل.. واتعلم من البرنس الكبير.. يمكن تستفيد.. مع إني عارف إنك ما فيش فايدة فيك.. الڤيروس بتاعي خامل.. يعني النظام ما يحسش بيه.

هولمز:

- أنا عارف.. ومش الڤيروس بتاعك بس اللي خامل.. انت فيك حاجات كتير خاملة.. وما يتحسش بيها.. كأنك ما فيش.

أوفسايد:

- كدا؟!! طب اِلحق قول لهايدي بتاعة الفيسبوك الوداع يا عم العنتيل.

الشقي:

- طب بالذمة دا منظر عصابة؟

هولمز:

- أنا مش قُلت لك مليون مرة ما تراقبش جهازي يا هيثم؟ ينفع كدا يا عُمَر؟

أوفسايد:

- هاهاهاهاهاها.. هاموت من الضحك.

الشقي:

- يا ابني مش قُلنا ما نستخدمش أسماء هنا؟ يا جدعان اكبروا.. أنا حاسس إني باكلِّم أطفال.

هولمز:

- ما نقولش أسماء ليه؟ مش المفروض عم "أوفسايد" دا مشفَّر الصفحة دي كويس؟ ولا في دي كمان ما بيعرفش.

الشقي:

- خلاص يا هولمز.. وانت يا زفت أوفسايد.. اتلَم.

أوفسايد:

- عشان خاطرك يا كبير.. المهم إن الفيروس بتاعي مش بينشط إلا في حالة الاستخدام الطبيعي للنظام.. يعني في حالة إجراء بحث على الجهاز، بمعنى إن أي بحث أو ترقب لأي اتصال يقوم بيه الفيروس بتاعي هيرجع بنتيجة صفر، دا أكيد.

وعشان كدا.. برغم شك الظابط.. ما حدش لقى الفيروس.. لأن واضح إن الكشف كان عادي مش مكثف.. لو مُكثف كان على الأقل هيمنع عمل البرنامج.

هولمز:

- مش يمكن لقوا الفيروس وسابوه عشان يجيبوك؟

أوفسايد:

- الڤيروس مدفوع ذاتيًّا.. مالوش أي اتصال بيَّ بعد تحميله.. هو مظبوط بالرقم القومي لصاحبه.. وعارف هيعمل إيه بمجرد اتصال النهاية الطرفية بالسيرڤر.

الشقي:

- يعني انت بتقول إن الڤيروس دا كان لا يمكن منعه؟

أوفسايد:

- كان ممكن منعه طبعًا.. لو يعرفوا تحديدًا بيدوّروا على إيه.. أو لو اتعاملوا مع التهديد بجد.. على الأقل كانوا فصلوا الجهاز دا عن الشبكة مؤقتًا.. بس واضح إن شك الظابط لم يرقَ لمستوى التهديد من أصله عندهم.. ودا لمصلحتنا.

الشقي:

- وقصة سي زفت اللي مش عاوز يدفع؟

هولمز:

- لازم نفرمه.

الشقي:

- في أي طريقة يا أوفسايد الراجل دا يعرف يوصل لك؟ الموضوع دخل في الجد.. ما فيش هزار المرة دي.

أوفسايد:

- عيب عليك يا كبير.. الراجل دا أصلًا لحد دالوقت ما يعرفش إن احنا عارفين هو مين.. ولا يمكن حد يعرف يجيبني.. أنا عارف كويس أنا باعمل إيه.. وما تقلقوش.. بافتراض حد وصل لي.. أنا هاعرف في لحظتها وهاختفي في ثانية.

الشقي:

- يبقى زي ما اتفقنا يا هولمز.. نفرمه.

أوفسايد:

- بس الناس دي مجرمين يا شقاوة.. ربنا يستر.

هولمز:

- انت هتصدق الأفلام اللي بيضحكوا بيها ع الناس؟ اللي هو يأجر قاتل عشان يقتل حد.. ولما يرفض.. يبعتوا له ألف واحد يقتله.. طب لو انت عندك كل الكومبارس دول.. أجَّرت من برَّا ليه؟ ولا هو تبذير فلوس أوفر ع الفاضي؟

يا ابني الناس دي مجرمين آه.. بس فشلة.. يعني هما لو فالحين كانوا جابونا نعملهم شغلهم؟ طالما متأكد إن ما حدش هيعرف احنا مين هيترعبوا مننا.

الشقي:

- ها يا عم تسلل؟ متأكد؟

أوفسايد:

- عيب عليك.

هولمز:

- احنا الأول نسرق فلوسنا.. ونعرّفه في رسالة إن احنا.. وبعدها هافكَّر له في حاجة تعلّمِه الأدب للأبد.

الشقي:

- أحبك وانت بتضرب بالمطرقة.. اكتب نَص الرسالة.

هولمز:

- انت فتحت الرسايل بتاعتي أنا وهايدي يا أوفسايد؟!!

أوفسايد:

- سرّك في بير.. يا كبير.

الشقي غادر الغُرفة

أغلق عُمر صفحة الدردشة، وهو يضحك، مُتخيِّلًا المعركة الدائرة داخلها الآن، ثم قام ووقف مواجهًا زجاج شقته، ينظر إلى شُرفة مريم لدقيقة كاملة.

ثم عاد إلى مكتبه، وضغط زر تشغيل الأغاني، لينطلق صوت عايدة الأيوبي، بسحره الآسر.

لما قابلته مرة صُدفة.. حبيبي.. مش أي صدفة..

وقفنا وعيونا بتتكلم.. وقلوبنا صراعها يعلا..

فتح أحد الأدراج، واخرج هاتفًا محمولًا، صغير الحجم، وفتحه، واتصل برقم أحد مطاعم الوجبات السريعة، وضغط رقم واحد للغُة العربية، وقال بعد سماعه صوت الموظف الناعس في هذا الوقت من النهار، الذي لا يزال يولد في السماء:

- لا لا مش أول مرة.. ممكن أدي لك الرقم التاني هتلاقيه متسجل عندك.

ثم أعطى الموظف رقم هاتف الرائد وائل، وانتظر. مرّت ثلاث ثواني، ثم قال موظف خدمة عملاء المطعم، بآلية، بيانات الرائد وائل، حتى يتأكد من صحّة البيانات، فأكَّدها له عُمَر، بعد أن حفظتها ذاكرته، ثم شكر الموظف وقال له أنه أعاد التفكير، وقرر أن يصوم حتى المغرب، وأغلق الخط، وهو لا يزال ينظُر صوب شرفة مريم.

آه حبيبي.. مهما تباعدنا.. مصيرنا فـ يوم نتلاقى..

العقل خاين.. والقلب صاين.. للعهد صاين.. آه آه..

* * *

٥٦

صَرّ كُرسي الرائد، تحت وزنه المُعتدل، وغطّى على صوت صرير أسنانه، وهو يُسلم على الزوج، الذي حضر بعد استدعائه بساعة واحدة، وكأنه يتحدى الضابط، ولا يوجد ما يخشاه.

تحكم الضابط في أعصابه، وهو يطالع ملامح الزوج الهادئة، ووجهه الحليق، وابتسامته الساخرة. التي ترسل رسالة مفادها، لن تستطيع معي شيئًا.

طلب الزوج قهوة عندما سُئل عما يريد، ودار ببصره في المكتب المرتب، وقال بهدوء مستفز:

- سعادتك محتاج هنا ستاير جديدة.. تسمح لي أبعت لك ستاير هدية بالريموت؟ حاجة من اللي بتركب في مكاتب كبار رجال الأعمال والسياسة في البلد.

لسَّا مركّب ستاير في مكتب نبيل مجاهد عضو مجلس الشعب قريب.. نوع جديد لسَّا نازل.. وهيبقى مكتبك تاني مكتب في مصر، إيه رأيك؟

"وصلت رسالتك.. أنت مسنود"

ابتسم وائل ابتسامة أشبه بابتسامات العرائس، ولم يُعقِّب، حيث كان في الحقيقة، يكتم غيظه، وبعد أن تمكن من السيطرة على غضبه، قال بهدوء:

- نتكلم في الشغل بقى بدل ما اعطل سعادتك كتير.. واضح إنك راجل مهم وعندك شغل كتير مع ناس كبيرة في البلد. وانا ما يرضنيش نعطل شغل الباشاوات.

- اتفضل يا وائل بيه.. خُد وقتك.

فتح وائل ملفًا كان أمامه على المكتب، وسأل بجدِّيَّة:

- سعادتك سحبت مبلغ من حسابك في البنك من شهر تقريبًا.. بقيمـ...

- ٢٣ ألف جنيه. قالها الزوج، ثم أخرج من جيب قميصه إيصالًا، ناوله للرائد وقال:

- دا إيصال من شركة السياحة.. دي كانت رحلة عاملها مفاجأة لناهد.. بس للأسف ما لحقِتش تعرفها.. وكلّمتهم امبارح وبنتفاوض هيخصموا كام من المبلغ عشان يعملوا لي Refund.

"استعدَّ جيّدًا"

- كأنك توقعت السؤال.

انتظر الزوج حتى وضع الساعي قهوته أمامه، ثم قال:

- بصراحة ليَّ صديق بيشتغل في البنك.. ولما قال لي إن المباحث طلبت كشف حسابي.. حبيت أوفّر على سعادتك عناء التحقيق.

أغلق الرائد الملف الذي أمامه بضيق، لم يستطع إخفاءه، ونحّاه جانبًا، بعد أن علِم أن الزوج استعد جيِّدًا لكل ما هو داخل الملف، فأصبح عديم الفائدة، ثم قال مُهاجمًا:

- قُل لي بقى.. عملتها ازاي؟ ومين ساعدك؟

عقد الزوج حاجبيه، ومط شفتيه في عدم فهم، ولَم يُجِب.

- انت وانا عارفين إنك طلعت على رجلك عشان الأسانسير صوته عالي وجارك من النوع البصّاص وكان هينُط معاك في الشقة أول ما يشعر بوصولك.

صمت لثوانٍ، حتى تأكد من وجود بوادر توتر على ملامح الزوج، وبدء تبخُّرٍ بريقه الزائف الذي أتى مُغلفًا به، ثم أكمل:

- ودا ما لوش غير سبب منطقي واحد. وصمت.

المزيد من التوتر، والبريق اختفى.

- إن في حاجة جوّا الشقة انت كنت محتاج تتأكد منها الأول لوحدك.

اعتدل الضابط، وأسند مرفقيه على المكتب، وقال بحزم وغضب واضح، ولكن بصوت خافت، كمَن يتعرض للتعذيب، ولكنه يرفض الصراخ حتى لا يستمتع مُعذِّبَه:

- انت قتلت مراتك.. بمساعدة حد.. والدليل موجود في الشقة.. وانا هالاقيه.. وانت عارف إني هالاقيه.. لأنك ما كنتش تتوقع اوصل لكل اللي وصلت له دا.. لكن أنا أذكى بكتير منك.. ومن اللي نفَّذ الجريمة. ودا اللي مخليك متوتر.. ومخليني متطمن.

ثم قال بكل استخفاف:

- امشي يلا اطلع برَّا مكتبي.. وسلامي لزباينك الكبار.

كان يتعمّد الضغط على الزوج، بإعطائه معلومات صحيحة، توهمه باقترابه من حل اللغُز، حتى يدفعه للقيام بأي خطأ، يكشف ثغرة تُمكِّن الضابط من المرور خلالها إلى الحل، وكان قد كلَّف مُخبرًا بمراقبة الزوج، وإبلاغ الضابط بتحركاته، بالإضافة إلى مراقبة مُكالماته.

كان يعلم أن هناك دليلًا ما داخل الشقة، ولكنه عصيٌّ على الإيجاد. فمعاينة المباحث والنيابة لم تكشف عن وجود أي شيء مُريب.

"كيف فعلها؟!!"

* * *

مذكرات

١٤

عندما ترى عدوّك يقتل نفسه..

لا تقاطعه..

وكل البشر قتلة..

وأنا لن أقاطعهم..

بل، سأعينهم..

بالقانون..

قانون القتلة يليق بهم.

* * *

٥٧

- بطّلي زَنّ بقى يا چينا. قُلت لك ما فيش طلوع البلكونة.. وبعدين بلكونة إيه في الحَر دا؟ اهمدي.

شوَّحَت چينا بيدها في الهواء، وهي تعود لتجلس إلى جوار مريم، على سرير الأخيرة، بعد أن وقفت لمدة طويلة تنظر صوب زجاج شقة عُمر الداكن، وقالت:

- صدقيني انتِ كدا هتضيّعي الواد من إيدينا. بغضب مُصطنع قالت.

- إيدين مين يا مجنونة؟ وبعدين هو يعني هييجي يزورنا في البلكونة؟

- مش يمكن عامل تقيل يعني ولما يشوفك قُصاده ينِخ؟

- ما انا كنت معاه يوم بحاله.. ما فكرش يطلب موبايلي حتى؟

مطّت چينا شفتيها، وقالت بحيرة:

- غريبة الحكاية دي فعلًا.. بقاله فوق الـ٣ أيام غطسان.

- بس للأمانة هو قال لي إنه عنده مُشكلتين في الشغل مستعجلين لازم يخلّصهم، بررَّت مريم بخفوت، وبدت وكأنها تُبرر لنفسها قبل چينا.

- برضه مش هتقولي لي بيشتغل إيه؟ ترجَّت چينا صديقتها، التي هزّت رأسها بعناد، وقالت:

- أنا عمري ما اديت حد كلمة ورجعت فيها.. وانا وعدته مش هاقول.

- يبقى مُخابرات، ورفعت چينا كتفيها في علامة على نفاد اختياراتها الأخرى.

- أو جاسوس، قالت مريم، وهي تغمز باستمتاع.

* * *

٥٨

- كان فيه فلوس قد إيه في المكتب؟

- مصري على عملات.. في حدود مليون جنيه.

- بالبساطة دي؟

سأل الملياردير ثروت الناظر مُساعده بغضب شديد، جعل وجهه يبدو كوجه مسخ غير بشري، فأجاب الشاب بهدوء حذِر:

- ومش كدا وبس يا حاج.. دا باعت رسالة كمان لسعادتك.

- رسالة؟ باعتها فين؟ بعد ما سرق المكتب وقف يرغي معاهم ويقول لهم رسالة؟ إيه التهريج دا؟

- لا يا حاج.. بعتها مع الهاكرز اللي اتفق لنا معاه.. نُعمان.

تنفَّس ثروت بسرعة، وعَلا صوت أنفاسه، حتى شعر مساعده أن مكتبه سوف يحترق، وقال أخيرًا:

- مش كنتم واثقين إنه لا يمكن يعرف أنا مين؟ وانت نفسك مأّكد عليَّ إن سي زفت نُعمان دا أحسن واحد في مصر؟

- يا حاج ما هو المجال دا احنا لسَّا جُداد فيه.. ما حدش بيتعلم ببلاش.

- بنتعلم بمليون جنيه.

خيَّم صمت ثقيل لدقائق على المكتب الفاخر، الذي تفوح منه رائحة البخور، وتُغطيه نباتات زينة، حتى قطع الملياردير الصمت قائلًا:

- الغبي دا لو اشتغل معايا كان كسب ملايين.. مش مليون بس. ثم صرخ:

- غبي. فانتفض مُساعده، ولم يُعقّب.

- قول لهم يعملوا لي لمون يا هادي.. وهات الرسالة دي اقراها.

"في مجالنا لا مجال لمخالفة الاتفاق. حصلت على أجري، لا مجال لليِّ الذراع، في مجالنا البقاء للأذكى.

أنت أخطأت، وستُعاقب.

لا يوجد في مجالنا استئناف للحكم، ولا طعن على نفاذه.

تم تحذيرك قبل بدء العمل، ووافقت، تقبَّل خسارتك، وعقابك، واعلم أنك تستحقُّه.

بعد ساعات من الآن، ستحضر أنت اجتماعًا، سريًّا للغاية، مع قوًى معارضة للنظام، ستبحث أثناءه، عن بناء تحالُفات، تعينك في انتخابات مجلس الشعب القادمة.

لقد قُمت بتجريد هذا الاجتماع من ميزة السرّية، كعربون عقاب.

ما كان عليك أن تحارب أكثر من جبهة في نفس الوقت."

ارتفع ضغط الرجل، وتشوَّشت رؤيته، وشعر برأسه يدور.

"كيف علم هذا الشيطان بلقاء سريٍّ قبله بساعات؟"

كانت الرسالة واضحة كالشمس، ويراها الملياردير واضحة، برغم تشوُّش رؤيته.

* * *

٥٩

نفخ عماد دُخان سيجارة محشوَّة، بإكسير السعادة، كما يسمّيه، وهو يسند بمرفقيه على سور سطح العمارة، التي يسكنها، وخلفه شقته المتواضعة، وأمامه القاهرة، بكل قُبحها، وعشوائيَّاتها، وغبارها الخانق.

قهرته القاهرة في أول مواجهة، ولا يقوى هو على المقاومة.

تلاعبت الأفكار بوعيه، فاستسلم، ولم يلاحظ حتى رنين هاتفه، الذي أظهر اسم رئيسه في العمل، كان اتصالًا طبيعيًّا ومتوقعًا، بعد تغيُّب الصحفي عن العمل لأيام، دون إذن، ولكن وعي عماد كان في مكان آخر.

"أم الدنيا"

يُسمّي أبناء مصر، بلدهم بأم الدنيا، ويسمّي أبناء محافظات مصر كلها، القاهرة بنفس الأسم.

هل هناك أم بهذه القسوة على أبنائها؟ كيف تقهر الأم أبناءها؟

ألا يعمل هذا الضابط المجرم لصالح "أم الدنيا"؟

أم أنه أيضًا مقهور؟

هل نلوم السوْطَ عندما يضربنا به السوَّاط؟

لا نلوم السوط لأنه لا يقوى على الرفض، ولا يعرفه، ولكن الضابط يستطيع الرفض.

هل يستطيع الرفض؟

هل يستمتع بتعذيب الناس؟ ولو نفسيًّا كما فعل معي؟ أم يتألم؟

أم تراه كان يتألم، حتى فقد الإحساس تدريجيًا، وأصبح مُجرد سوط؟

هبَّت نسمة صيفية ساحرة، رطَّبت الهواء حول المقهور، وكأن ضميرَ نما للقاهرة فجأة، فشعرت بالذنب، وقررت أن تطيِّب خاطر عماد، وتهوِّن عليه ناره.

سمع صوت خطوات خلفه، فلم يستدر، كان مُنهكَ النفس حد الاستسلام. لدرجة أنه حتى لم يتحرك، أو يجفل، ولا حتى بَدَت عليه حتى ملاحظة يد أسماء، التي علمت بما حدث، عندما وضعتها حوله، في دعم صامت، كان يحتاجه بشدة، وإن لَم يُبْدِ حاجته.

- أنا مش هاقدر اكمّل في السكة دي يا أسماء.. أنا جبان.

وبكى. فاحتضنته هي كأمه، ولَم تُعقِّب.

فالصمت أحيانًا يكفي.

* * *

لا تسلُك طريقًا، لم تستعد لآخره.

٦٠

كالظل، يندفع عُمر بملابسه السوداء، في شوارع القاهرة، ويشاهد من خلف زجاج خوذته الأسود، بداية استسلام الليل، لزحف النهار الوليد، في الأفق البعيد.

بلا هدف يقود، بأقصى سرعة، وكأنه يهرب من الموت، يزيد من سرعته، فيعلو صوت أفكاره مطاردًا إيَّاه، وكأنه يستحثُّها، ويستفزُّها بجهاده إيّاها.

كيف يهرب المرء من نفسه؟ من أفكاره؟

ولماذا حَرّم الله كل وسائل تغييب العقل؟

أيعقل أن يتحول العقل لأداة تعذيب؟ ويُحرَّم على التغييب؟

كان عُمر يحاول الهرب من نفسه، من أفكاره، من شعور بالذنب، التصق به كالوحمة، ومن رغبة في التورُّط تطارده كالشهوة.

"لماذا رأيت ما رأيت؟"

"هل يمكن أن تكون الصدفة بهذه الدقة؟"

"لا يمكنني التورط"

"لا يمكنني التورط"

"لا يمكنني التورط"

"لا يمكنني التورط"

كان عُمر قد ذهب بعد اتفاقه مع نادر إلى منزل الضابط، ليتخلَّص منه نهائيًّا، ويضع حدًّا لتحقيق الضابط في عملية الاقتحام.

فهو لا يملك رفاهية ترك ضابط ذكي، يمسك بطرف خيط، مُستقبل حُرية عُمر نفسه مُعلَّق بآخره.

ونجحت الخطوة الأولى من المُهمة، خطوة التوريط، والتشتيت، ومرَّت كما خُطِّط لها، ولكن حدث ما لم يكن ممكنًا لنادر توقعه، مهما كتب من سيناريوهات، وتوقع من مفاجآت.

انتهى عُمر من الضابط، كما خَطَّطت وأراد، ولكن يبدو أن الضابط، بشكل ما، لم ينتهِ منه.

عرض عقل عُمر ذكرى آخر حديث دار بينه وبين مريم، أمامه، وشرع يسأله...

"كيف لا يمكنك التوَرُّط؟"

"كيف ستسامح نفسك وأنت لا تنسى؟"

"هل تعتقد أن الصدفة يمكن أن تكون بهذه الدقة؟ هذا قدر، هذه علامة" تذكّر، إن صحَّ قول "تذكَّر"، على من لا ينسى من الأساس؛

"...وفضلت لفترة عندي قناعة إنه لسَّا عايش.. وبعدين بقيت مقتنعة إنه اتقتل.. لدرجة إني شبه حققت في حادثة موته.. وفضلت فترة مقتنعة إنه اتقتل.

شريك بابا في الشغل كان الوحيد المستفيد من موته.. بس كان برًّا القاهرة يومها، كان بيزن على بابا كتير يبيع له نصيبه في الشركة.. وبابا كان رافض.. والعقد يتفسخ تلقائيًّا بموت أحد أطرافه.

وبعدين في حاجة.. القضية كانت شبه محلولة أصلًا.. قضاء وقدر.. يعني ما فيش مجال للشك أصلًا في وقوع جريمة.. بس استفادة شريك بابا من موته كانت مريبة.. ودا اللي خلّاني فضلت فترة مقتنعة بوجود طرف تالت ارتكب الجريمة.. واختفى. وبعدها أخدت أدوية..."

دوَت تلك الكلمات في رأسه كأجراس الكنائس يوم الأحد، عندما لمح عُمر، على حائط الرائد، ورقة مكتوب عليها:

١. المُستفيد الأكبر عنده حجة غياب مؤكدة.

٢. القضية نازلة محلولة.

٣. طرف تالت.

الجريمة الكاملة؟!!

هل يمكن أن يكون الفاعل في القضيتين هو قاتل مأجور، خفي كالشبح، يجيد التخطيط، لدرجة تنفيذه الجريمة الكاملة مرتين على الأقل، دون حتى الاشتباه في وجوده؟

هتفضل القضية دي نُقطة سودا في حياتي

صرخ عقله يبرز التطابق المُريب بين كلام مريم، وملاحظات الضابط، فوقف لدقيقة كاملة يطالع الحائط كله، ويدور ببصره على كل صورة، وورقة، وملاحظة.

كان في الحقيقة يحفظ كل شيء في ذاكرته، فهو يملك واحدة لا يحتاج معها لتصوير الحائط حتى يستدعيه، ويتذكره، وقام فقط بتصوير صور مسرح الجريمة، حتى يتمكن من طبعها لاحقًا.

استمر عُمر يهرب من نفسه، لساعة كاملة، في شوارع بدت له كالمتاهة، التي لا نهاية لها، ولا منها مفر، وهو كان يدور في الحقيقة، داخل وعيه، هربًا من إصراره على فعل ما يعلم جيّدًا أنه آخر شيء عليه أن يحاول فعله.

* * *

٦١

انتزعت يد خَشِنة، يُغطيها شعرٌ كثيف، نادر من نومه، فاستيقظ دفعة واحدة، ليجد ياقة منامته في قبضة رجل غليظ الملامح، تُغطي ذقنه لحية كثيفة قد اعتنى بها جيّدًا.

اتسعت عينا نادر على آخرهما، ليلاحظ أن هناك رجلًا آخرًا يجلس على الطرف الآخر من السرير، وبعد نظرة واحدة إلى وجهه، علم أنه الملياردير ثروت الناظر، الذي لا تقل ملامحه غلظة، ولا قبحًا، عن هذا الذي تعلّق بياقة منامة نادر، وكأنها طوق نجاته من النار.

- هل ظننت أنك ستفلت بفعلتك؟ هل حقًا ظننت أنني لن أتمكن من التعرف عليك؟ يا لك من أحمق عبيط. قال ثروت بصوت، ولهجة ذكَّرت نادر، بالأفلام التي دارت أحداثها في سوق عكاظ، عندما كانت تحكم قبيلة قريش مكة.

تعجَّب نادر من هزل المشهد، ولكنه لم يتمكن من فعل أي شيء سواه، ثم بدأ الخوف يزيح التعجب، ويحتل كيان المُخطِط العبقري، عندما وقف ثروت، وأخرج من جيب سترته مسدسًا كبيرًا، أسود اللون، وصوَّبه إلى رأس نادر وقال:

- الموت لك يا من ظننت أنك انتصرت على ثروت، وأطلق النار.

انطلق صوت عصفور جميل، إثر خروج طلقة ملوَّنة من ماسورة المسدس، ثم نبَت لها جناحان، طارت بهما في سقف الغرفة، ثم انطلق صوت العصفور مُجددًا، أكثر من مرة، وفي كل مرة كان يخرج من ماسورة المسدس عصفور ملون جميل ساحر اللون، ليُحلق مع من سبقوه في سقف الغرفة، حتى امتلأ السقف بهم.

فتح نادر عينيه، أخيرًا، على صوت جرس باب شقته، الذي يصدر صوت زقزقة عصفور جميلة، ونظر حوله بحثًا عن ثروت، ومساعده، ثم بحث عن العصافير فوق سريره، فأدرك أنه كان يحلم، فهدأ، حتى انتزعه صوت دقّات قوية على باب شقته، تكاد تخلع الباب من قوَّتها.

"هذا الصوت حقيقي؟!!"

قام نادر مُسرعًا، واتجه صوب باب شقته، وفتحه ليجد عُمر أمامه حاملًا خوذته بيده، والكثير من الغضب والضيق على ملامحه.

- أنا لو باصحِّي قتيل.. كان صحي بدري عن كدا يا نادر.

مَدّ نادر يده وأمسك كتف عُمر، ثم مَرَّر كفه على ملامحه، فنفض عُمر يد نادر عنه، وقال بضيق:

- أيوة يا نادر أنا هنا بجد.. مش بتتخيل.. اصحى بقى أبوس رجلك وفوق.. عشان عندنا شُغلانة بنت كلب لازم اخلص منها قبل ما تخلَّص عليَّ.

كان دائمًا ما يتخيل نادر أن هناك بشرًا حوله، وكان يعلم أنهم مُجرد انعكاس لأفكاره، وكان يتحدث معهم، ويناقشهم، ويساعدوه، فأراد أن يتأكد من حقيقة وجود عُمر.

دخل عُمر الشقة، وتوجه صوب حائط الصالة الأيمن، وأزاح الكنبة أسفله، ثم نظر إلى نادر، وقال:

- عاوز ورق فاضي.. وقلمين أحمر وازرق.. واعمل لنا حاجة سخنة نشربها.. وفضّي دماغك يا نادر.. واستحضر في دماغك كل عباقرة حل جرايم القتل اللي تعرفهم.. عاوزهم معانا هنا.. عشان عندنا ٣ جرايم قتل لازم نحلّهم فورًا.

* * *

٦٢

أعاد وائل سمّاعة هاتف مكتبه إلى مكانها، ورفع فنجان قهوته، وارتشف منه سريعًا، ثم أعاده مكانه، وهو يقول:

- ما فيش حاجة في الشقة ممكن تثير الشَكّ.. شوية معدات من شغله.. وأدوات موجودة في كل بيت.. زي ما انت شايف أهُه.. بقالي ساعة ع التليفون مع وكيل النيابة.. بنراجع جرد الشقة.. وكل الصور سوا.. وبنطرح كل البدائل ومافيش نظرية واحدة منطقية أو تنفع تتطبَّق.

تنهَّد النقيب ولَم يُعقِّب. كان يعلم وائل، أن النقيب لا يستصيغ نظريته، ويرى أنها مستحيلة، ولا يوجد دليل واحد على تعرض هذه السيّدة للقتل. قد يكون الزوج يتصرف بشكل مريب، ولكنه اعتاد على هذا من البشر. الناس يتوترون عندما يخضعون للتحقيق، هذا طبيعي، واحترم وائل وجهة نظر مساعده، خاصة وأنه لم يعترض على التدقيق في أمر الزوج، فهو

- النقيب- يعلم جيِّدًا الفرق بين وجهة النظر الخاصة، ومهام العمل.

فُتِح باب مكتب الرائد، بعد دقَّة واحدة سريعة، فرفع الضابطان رأسيهما صوب الباب تلقائيًّا، ليجدا رجلًا أشيبًا، فارِع الطول، ومهيب الطلَّة، يدلف إلى المكتب دون استئذان، حاملًا ابتسامة ودودة على وجهه، وسيفين متقاطعين ونسرًا على كل كتف، فهبّا واقفين ليستقبلا هذا الغريب المُقتحم.

- السلام عليكم.. اللواء ماجد بندر من إدارة التفتيش.. كنت عاوز سيادة الرائد في كلمتين لو وقته يسمح.

كانت جُملته تحمل أمرًا مُبطَّنًا للنقيب أن يغادر المكتب، فسلَّم على اللواء مُرحِّبًا، وغادر المكتب حاملًا قدرًا كبيرًا من الحيرة، والتوجُّس، والقلق.

- اتفضل يا افندم ارتاح. قال وائل مُتوجسًا.

جلس اللواء، وانتظر حتى التفَّ الرائد حول مكتبه، وجلس في مواجهته، ثم قال:

- هادخل في الموضوع على طول.. عشان دمَّك ما ينشفش أكتر من كدا. بُص يا سيادة الرائد.. وصل إيميل النهاردا الصبح.. على واحد من حسابات الوزارة.. فيه معلومة تخُصَّك يا وائل. بلاغ على وجه الدقة.

عقد وائل حاجبيه، ولم يُعقب، فأكمل اللواء:

- في اتهام خطير ليك يا وائل في الرسالة.. وانا هنا عشان احقق في الموضوع بنفسي، باختصار؛ وصلت معلومة إن انت اللي قمت باقتحام القسم.. ونصبت على رامز بيه غالي، ومش كدا وبس.. لا كمان إنك صاحب حساب "حشرة" على الـfacebook. وإن كل السيناريوهات اللي بتحاول تطرحها عن اختراق جهاز البحث.. وخلافه.. محاولة منك عشان تحوِّل نظر الناس كلها عن الهدف الحقيقي من العملية.. اللي هو النصب، مجرد تضليل للوزارة عشان ما حدش يشُك فيك.

قُل لي يا وائل.. أنا وصلني إنك من أول يوم بترفض تمامًا إن العملية دي كان هدفها مجرد النصب، الكلام دا صحيح؟

لَم يكن وعي الضابط قد استوعب بَعد كل ما قيل، حتى يتمكن من لملمة شتات عقله، والتمكُّن من إجابة أي سؤال، فلم يجِب، وإن أجابت جبهته عرقًا غزيرًا، وارتعشت يداه، وكأنها تريد أن تفصح عن سر ما، ويمنعها شيء خفي.

- طب شوف يا سيادة الرائد.. أنا عرفت إنك ساكن مع والدتك.. طبعًا أنا رفضت تمامًا نروح نفتّش الشقة من وراك، انت واحد مننا.. وما يرضيش حد نعمل كدا.

اللي هيحصل إن انا وانت دالوقت هنخرج نروح على شقتك.. نكمّل كلامنا في الطريق.

* * *

٦٣

استغرق عُمر أكثر من ساعتين، حتى تمكَّن أخيرًا، من نسخ حائط الضابط، من ذاكرته، على حائط صالة نادر، الذي قام بطباعة الصور التي صوَّرها عُمر، الذي ثبّتها على الحائط بدوره، ليصبح نسخة طبق الأصل، من حائط غُرفة الرائد، وفي أثناء انشغاله بالحائط، شرع بشرح ما حدث، وما ينتويه لنادر، حتى يساعده فيما أراد.

كان يعلم أنه يُخطئ بالتورط، وأنه يتخطى الخط الأحمر، الخاص بالاقتراب من الجهات السيادية، ولكنه كان يعلم أيضًا، أن حل لُغز جريمة قتل مثل تلك التي أمامه، هو شيء لن يقاومه نادر لثانية واحدة، وأمام إغرائه، لن يلتفت لأي خطوط حمراء، ولن يلحظ تخطيه لها. فنادر هو مُخطِّط، وروائي ذكي، يهوى ما يستفز ذكاءه.

- يعني انت عاوز تفهّمني: إن في Serial Killer موجود في مصر من سنين، وبيعمل عمليات، من كتر عبقريتها، ما حدش اشتبه في وجوده من الأساس؟ وإن الضابط دا... سأل نادر بخفوت، ولم يكمل سؤاله، وكأنه يسأل نفسه، وهو يطالع الحائط أمامه، بانبهار، كالطفل في محل ألعاب. لَم يتعجب عُمر، لأن نادر يفعل هذا كثيرًا، ثم أضاف نادر دون أن ينظر إلى عُمَر:

- وانت شاكك إن أبو صاحبتك اتقتل على إيد الراجل دا.

- هاحاول أعرف تفاصيل أكتر عن موت أبو صاحبتي.. بس المهم خلِّينا في القضيتين دول.. انت شايف إيه؟ ثُم نظر حوله، وأضاف:

- وأصحابك؟

صمت نادر لوقت طويل، وبقي مُعلِّقًا نظره على الحائط بانبهار واضح، تركه عُمر وأعطاه مساحة التفكير، التي يعرف عُمر أن نادر يحتاجها، عندما يشرع في حل لُغز، أو وضع خطة، أو التنبؤ بسير عملية، وتوقع مفاجآتها.

وفي تلك الأثناء كان عقل نادر يعمل بلا توقف، يلتهم المعلومات والتفاصيل، ويستمع لأسئلة أصدقائه الوهميين، الذين يراهم حوله الآن، ويبحث عن إجاباتها على الحائط، فمنذ الدقيقة الأولى بعد استيعابه لقصة عُمر، أعجبه اللُغز، وتحدّاه، واستحث عقله على تفسيره.

فبدأ يعمل بالترتيب، وطرح على نفسه سؤالًا، وسعى لإجابته:

"بافتراض صحّة نظرية الضابط.. كيف فعلها القاتل؟"

ثم بدأ بالقضية القديمة، قرأ كل الأوراق التي تخُصها، وكل تفاصيلها، ومُلاحظات الضابط، ثم نطق أخيرًا بعد صمت دام لساعة، وقال بإقرار:

- قضية سليمان سهلة جدًّا. بس ما فيهاش أي خيط للقاتل.. بس سهلة.. تتعمل يعني.

- إزاي؟ سأل عُمر بإنهاك، بسبب عدم حصوله على أي قسط من النوم.

- سليمان كان بيراقب المكان.. وبيتأكد من مداخله ومخارجه.. يعني لو حد راقبه كويس كان هيقدر يتوقع الشقة اللي هيسرقها.. من الشقق الفاضية

في المكان.. ومن تحركات سليمان. ولو تلاحظ القتيل اتقتل قبل ماهو يسرق بـ٣ أيام.. يعني حد راقبه.. وعرف مكان الشقة.. وقتل القتيل.. وسرق حاجات تخصه عليها بصماته.. وليها طابع شخصي.. عشان يبقى سهل التعرف على صاحبها.. وحطَّها في الشقة اللي سليمان قرر يسرقها، والدليل على إن القتل ما كانش بهدف السرقة.. إن في حاجات اتسابت في الشقة.. اللي قتل كان رايح يلفق تهمة.. مش يسرق.

بس عبقري القاتل دا.. أنا لازم اقعد معاه.. دماغ دهب.

لَم يُعقِّب عُمر على مدح نادر للقاتل المزعوم، فهو يعلم جيّدًا أن نادر يحترم العقلية، بغض النظر عن شخصية صاحبها، وهذا القاتل إن وجِد، فهو بدون شك عبقري.

- طب وقضية السِت يا نادر؟

صمت نادر مُجددًا، فعَلِم عُمر أنه سيغرق في أفكاره، وسيستغرق باقي نهاره، فقال:

- طب نادر.. أنا هادخل انام.. وصحِّيني لو وصلت لحاجة.

دخل عُمر إلى غُرفة نوم نادر، واستلقى على سرير الأخير، واستسلم لأفكاره، وصخبها المُزعج.

"...بعدها أخدت أدوية اكتئاب.. وبقيت اكلّم نفسي.. ووصلت معايا الأعراض لأني شكّيت في ماما نفسها.

كانت أسوأ فترة عدّت عليَّ في حياتي يا عُمر.. مش هابالغ لو قُلت إن اللي حصل لي بعد وفاة بابا وبسببها.. كان أصعب وأقسى من الوفاة نفسها.

أنا معترفة إني ضعيفة قصاد الفراق.. بيكسرني.. وبيفقدني كل قدرة على إني اكون طبيعية.. أو حتى ازعل واتقبَّل الفراق بشكل طبيعي.

أنا بمُجرد.. ومش قصدي أضايقك بكلامي.. بس والله بمُجرد ما بافتكر الفترة دي باتعب.. وبحس إني روحي بتطلـ.."

رأى عُمر مريم يومها أمامه تختنق، ويضيق صدرها، وتجاهد لتتحكم في مظهرها الخارجي، وأراد أن يساعدها، ولكنه عَجَز، وهذا الشعور بالعجز لَم يختبره منذ وفاة والدته، وقبلها عند فُقدانه لوالده، وكُرهه لهذا الشعور، يدفعه دفعًا لمساعدتها الآن.

ولكن المُساعدة تؤلم أحيانًا.

فبعض الراحة لا يستحق الكثير من الألم.

"كيف تريد إعادة كل هذه الذكريات إليها؟ وهي التي أنعم الله عليها بنعمة النسيان؟ هل تحسدها على نعمة حُرمت أنت منها؟ فتريد حرمانها منها ولو مؤقتًا؟" هاجم نفسه.

"هي تخطَّت الماضي، ولكنها لم تنْسَهْ، لو نسيت ما كان ليؤلمها تذكره هكذا ألم." برَّر.

"ماذا ستسفيد هي إذا علِمت أن والدها قد قُتِل على يد قاتل مأجور، خفي كالشبح؟" سأل.

"ستسطيع تقديم شريكه إلى العدالة، ليحصل على العقاب الذي يستحقه." أجاب.

"ولكنها قالت أنه أحسن إليهم، وأعطاهم أكثر مما استحقّوا." عَارَض.

"وهذا في حد ذاته دليل إدانة، هذا شعور بالذنب واضح كالشمس." دَافع.

"وماذا لو علمت هي وعادت إليها ذكريات أسوأ أيامها، ولم يتمكن أيٌ منكم من القبض عليه، أو حتى إثبات وجوده؟" استفسر.

"...." صمَت.

"أثبت وجود هذا القاتل بدليل لا يقبل الشكّ أولًا، حتى تعرض عليها حقيقة مؤكدة، وليست مُجرد نظرية." قررَّ.

ثم عاد له شعور حاول منذ أن غادر غرفة نوم الضابط أن يتجنَّبه، ولم يستطع، شعور كاسح بالذنب، تملّك منه، حد الغضب.

فهو اعتاد أن يُبرر لنفسه، ما يفعل لنفسه، بأنه لا يؤذي أحدًا. ولكنه اليوم شعر لأول مرة أنه يؤذي أحدهم، ويشاء القدر أن يرى عُمر بعينه، أن هذا الضابط صاحب ضمير حَيّ، كيف لا؟ وهو الذي يحتفظ بملف قضية قديمة، تسببت في عقابه، مُثبَّتًا على حائط الغرفة التي ينام بها، ويتذكرّها، ويسعى حتى في وقته الخاص، لحلِّها، ولإنقاذ رجل اعترف أنه سارق محترف.

وأيضًا قد يكون هذا الرجل هو الوحيد القادر على القبض على شريك والد مريم، وعقابه العقاب الذي يستحقه، ولكن عُمر، بكُل أنانية، لفَّق له تُهمة؛ سيُبرّأ منها، بعد وقت طويل من التحقيقات، والاستجوابات المُنهِكة، ولكنها ستترك ندبة على ملفه. وقد تترك على روحه جرحًا لن يندمل، قد يكون السبب في تحوّل هذا الضابط المتفانِ إلى مُجرد ضابط يستغل منصبه لتحقيق مصالحه الشخصية، ولن يلومه وقتها عُمر، فهو الذي حاول من قبل التصدي لمُشتبه به، وبسبب هذا أوقف عن العمل وتم نقله بعد تحقيق مُهين، وها هو نفس الموقف يتكرر مُجددًا، بسبب أنانية عُمر.

"ترى كم شخص أذيت من قبل، دون أن يشاء القدر أن ألمح حائطه، لأدرك حجم الضرر الذي تسببت به؟" تساءل عُمر، وشعوره بالذنب يؤلمه.

* * *

٦٤

غَرق وائل طوال الطريق بين القسم ومنزله، في أفكار لا ترحم، وعرق غزير، برغم عمل مُكيّف سيارة اللواء الخاصة، بسبب غضب وتوتر اجتاحا كل كيانه.

تلاطم وعيه بين أمواج من التساؤلات والشَك والتفكير، وتكسَّرت على صخور الشك كل فكرة حاول تكوينها عما يحدث له.

لا يوجد فيما يحدث له شيء مفهوم بالكامل، وكأنه في منزل كثير الردهات، قليل الإضاءة، ليلًا، يتخبَّط بين نظريات، وأفكار، وتفاصيل تلك القضايا التي قلبت حياته رأسًا على عقب.

ولكن؛ هناك تفصيلة واحدة ترقى إلى مرتبة الحقيقة، بين كل تلك النظريات، التي يراها في عقله، هي أنه اقترب والدليل؛ هو ما يحدث له الآن.

ما يحدث هذا هو وجه التشابه الرابع، الذي يجمع قضية سليمان الهجَّام، والسيِّدة ناهد؛ هو أنه كلما اشتبه في أحدهم وضغط عليه، يتم إيقافه بشكل أو بآخر، وجرُّه إلى خوض معارك وهمية، في شكل تحقيق داخلي، سينتهي حتمًا هذا المرة، على أقل تقدير، بتركه المباحث نهائيًّا.

هذا إن احتفظ بوظيفته من الأساس.

أفاق وائل من أفكاره، عندما وصل إلى باب شقَّته، فطلب من اللواء بأدب كسير:

- من فضل سعادتك اسمح لي أدخل أطمِّن الحاجّة الأول.

- اتفضل يا ابني اسبقني.. بس سامحني.. بلاش تغيب عن نظري، ثُم أشار إلى معاونيه، أن يبقيا خارج الشقة، حتى يستدعيهما.

فتح وائل باب الشقة بمفتاحه، فاستقبلته طلَّة والدته، حاملةً ضيقًا ولومًا واضحين، فتعجَّب، ثم لمح مَيْ خطيبته تظهر من خلفها، بنظرة تحمل الكثير من خيبة الأمل، والانكسار.

"لماذا تنظُران إلي بكل هذه الشفقة واللوم؟"

"هل علِمت ميّ عبر والدها؟"

"هل أخبرت والدتي؟"

نالت منه حيرة مُنهكة، وكأن ما هو فيه لا يكفي لإنهاكه.

سمح لضيفه بالدخول، وقاده إلى مقعد وثير بابتسامة، توهم هو أنها ظهرت على ملامحه، ولكنها لَم تصل إلى وجهه، ثم توجَّه صوب والدته وسلَّم عليها، ثم نظر إلى خطيبته يسألها دون كلام عن سبب تواجدها هنا دون اتفاق. فأجابت، وكأن سَدَّ الصمت انهار تحت ضغط سيل الكلام:

- بُص يا وائل.. أنا مش هاقدر اكمّل أكتر من كدا.. أنا ما اعرفش عنك حاجة من ساعة ما اتصالحنا عشان مقصّر معايا. منعَت دموعها، وأكملت بصوت مختنق:

- واضح إنك ما عندكش مكان ليَّ في حياتك.. وشُغلك بس هو الـ...

قاطعها وائل بخفوت، وإنهاك، لا مثيل لهما، كمَن نزف وعيه، إثر طعنة الغدر الأخيرة، الكثير من التركيز، فلا يقوى على فعل أي شيء، ولا حتى الكلام:

- مَيْ مش هينفع دالوقت الكلام دا.. أنا عندي مشكلة في الشغل.. ومش هاقدر اعـ...

- شُفتِ يا طنط؟!! بالذمة مش قايلة لِك هيقول كدا بالحرف؟ عشان تعرفي إنه ما فيش فايدة. احتدت مَيْ وهي تنظُر إلى والدة الرائد، الذي أغلق عينيه، هربًا مما يحدث له، لعلَّه كابوس سيفيق منه، عندما يفتحهما مُجددًا.

شعر وائل بكتف مَيْ يحتك بكتفه، في طريقها للخروج من منزله، وحياته.

يالا قسوته وداع.

فتح الرائد عينيه، ونظر إلى والدته، من خلف ستار دموع تجمَّعت في مُقلتيه، وقال بكل ما أوتي من تماسك، لم يكفِ ليظهر كما أراد، ولكنه أدَّى الغرض:

- اسمعي يا حاجّة.. في حد عمل فيَّ بلاغ كَيدي.. وسيادة اللواء محتاج يفتِّش الشقة.

اتسعت عيناها هلعًا، فاقترب منها، واحتضنها، وأكمل مُطمئنًا، بصوت مَن يحتاج إلى مَن يُطمئنه:

- ششششش.. اهدي امال يا ست الكُل.. دول خمس دقايق سُخفا.. وهيروحوا لحالهم.. اطّمني كدا.. انتِ عندك شك في تربيتك ولا إيه؟

بكَت دون صوت، وتماسكت من أجله، والألم يمزّقها. قبَّلت ولدها على جبهته، وقالت شيئًا ما، ضاع وسط محاولات منع بكائها، وخرجت الكلمات كالهمهمة، فتوقفت قبل أن تتحول إلى نحيب، يزيد معاناة وحيدها، وتوجَّهت صوب الضيف وسلَّمت عليه، وجلست في أبعد رُكن من الصالة، بقهر وعجز.

أومأ الرائد إلى اللواء برأسه، الذي نادى بدوره على رجاله، وأطلقهم يفتشون في الشقة، عن دليل تأكيد التُهمة التي جاءت بهم إلى هنا.

لَم يستغرق التفتيش سوى دقائق معدودة، حتى عاد الرجلان، كلٌّ يحمل غنيمته. أحدهم يحمل جهاز الكمبيوتر الخاص بالرائد، حيث كانت توصي التعليمات بتحريزه، ليخضع لفحص دقيق، والآخر يحمل كيسًا بلاستيكيًّا أسودًا، يحتوي على ما يبدو أنه مبلغ كبير من المال، يتخطى على أقل تقدير، ما يكسبه الرائد في أكثر من سنة.

* * *

٦٥

بكَت مَيْ في مقعد سيارة الأجرة الخلفي، كما لم تبكِ من قبل.

ما أقسى أن تضطر إلى وداع من تُحب باختيارك، ما أقسى أن تضطر إلى أن تقسو على من تتمنى أن تحنو عليه، أن تضطر إلى إخفاء لهفتك على احتضان من تحب، خلف قناع قاسٍ من الإنكار.

بكَت.

بكَت حبيبها الذي وصلت معه إلى طريق مسدود، بحائط ضخم من الإهمال والتجاهل، كانت على أتم استعداد إلى أن تحفره بأظافرها من أجله.

ولكنها لا تستطيع وحدها أن تفعل.

بكَت.

لَم تعلم عن محنته شيئًا، ولكن هذا ذنبه هو، وهي معه من يتحمل ناره. تخلَّت عنه هي، دون علم ولا قصد، في أصعب لحظات حياته، وكل هذا، لأنه لم ينتبه إلى الإشارات.

لطالما نبَّهته هي إلى إهماله لها، واهتمامه المبالغ فيه بعمله، ولم ينتبه.

ظنَّ أنها شكوى معتادة، فاعتادها.

أحيانًا نصبر على مشكلة صغيرة، حد عدم الملاحظة، ولا نعلم أنها ستتحول، في أقل أوقاتنا استعدادًا للتعامل معها، إلى كارثة.

لا تستهِن بقطرات الماء الضعيفة، التي تتسرب من السد، لأنها بداية الانهيار.

والانهيار يحدث في لحظة.

* * *

٦٦

تململ سي. أوجست دوبين، وقال بلكنته الفرنسية:

- صدقني يا نادغ.. من قتل هذه السيِّدة تمكَّن من إخفاء وسيلة خروجه من الشقة.. يجب التركيز على إيجاد وسيلة خروجه، ولكن مقتلها أمر مفروغ منه.

- على الأقل قال شيئًا صحيحًا في الجملة.. أنها قُتلت. سخَر المُحقق هولمز منه، ثم دار على عقبيه وسأل بثقته المعهودة، وملابسه الڤيكتورية:

- للشقة مخرجان.. أحدهما مصوَّر.. والآخر متصدِّئ.. كيف تمكن من الخروج؟ هل خرج من النافذة، ثم تعلق في الهواء وطلاها بالصدأ؟ ثم ضحك مُستهترًا، وخرجت ضحكته على شكل زفرة امتعاض.

تعكّرت تعابير وجه البلچيكي بوارو، وقال:

- تتحدث وكأنك تعرف الحل.

- لا أعرف الحل.. ولكنني أعرف أن أحدًا منكم لن يعرفه، عندي نظرية بالتأكيد.. ولكن تبقى تفصيلة واحدة صغيرة خفيَّة.

نادر هذه مضيعة للوقت.. أين واطسون؟ ونظر إلى نادر.

- وكأني في حضانة للأطفال. اعترضت الآنسة ماربل.

ثم قال ثيرو ولفي، بلكنة نيويوركية واضحة:

- أنا لا يمكنني التفكير وأنا جوعان.. ألم يكفِك انتزاعك لي من منزلي؟ وجَرِّي إلى هنا دون إذن؟ أين آرتشي؟ على الأقل دعه يعد لي وجبة تعينني على تحمُّل سخافاتهم.

قال عُمر بإنهاك:

- نادر.

لم يُجِب نادر، الذي كان لا يزال يرى أشهر مُحققي أدب الجريمة في العالم حوله، يتجادلون في تفاصيل القضية، التي أمامه. ولم يخترق صوت عُمر جداره العازل عن الواقع بعد.

- نادر. صرخ بها عُمر، فتبخَّرت فورًا ظِلال ضيوف خيال نادر، الذي انتفض والتفت إلى عُمر، وعيناه على أقصى اتساع لهما.

كانتا حمراوان كعيون الشياطين، بسبب قلة النوم، وكثرة التركيز.

- ركِّز معايا.. وصلت لإيه؟

نظر نادر إلى حيث كان هولمز واقفًا، وكأنه يستحضره، ثم قال:

- ما فيش شك إن الموضوع دا جديد يا عُمر.. كتير كتبوا عن الغرفة المغلقة.. أحمد خالد توفيق اتكلـ...

- ممكن يا نادر أبوس رجلك.. ما تحكي لي قصة حياة الغرفة المغلقة الأدبي؟ وصلت لأي نظرية؟ أي حاجة؟

أومأ نادر برأسه، وقال بحماس:

- شوف يا عُمر.. فكرة تصويب مسدس عن بعد دي موجودة وحصلت في الحقيقة كتير.. وناهيك عن الأدب.

فكرة الفخ.. بمعنى تفتح ضلفة دولاب المسدس يضرب في وشك.. تفتح باب تقوم قنبلة تنفجر، دا وارد وبيحصل.

اللي خلاني أفترض حدوث دا في حالتنا.. إن بصمات البنت مش على الزناد.. وممكن يكون زوجها أخد بصمتها بعد ما رجع من برَّا.

والراجل عنده معدات شغل.. تسمح له يثبِّت المسدس.. ويوجهه في اتجاه معين ويضرب لما حاجة تحصل.. يعني المنجلة دي مثلًا.

ثم قام والإثارة تملأه، وأشار على إحدى الصور التي تُبيِّن بعض المعدات في شقة المهندس، في تلك الغرفة التي كان يعتبرها الأخير ورشة، ثم أكمل نادر بحماس علا مُعدَّله:

- بس في مشكلتين:

إن الست اتضربت بالنار وهي واقفة قصاد باب الأوضة.. وباب الأوضة في عكس اتجاه السلاح.. يعني السلاح موجه في جنب اتجاه الباب.. فاهم؟!!

مش زي المعتاد في الحالات دي إنه يبقى مواجه للضحية.

يعني كان فين الفخ؟ يعني هي مثلًا شدِّت أو حرَّكت حبل برجلها؟ كانت الشرطة هتلاقي أثار تثبيته في الحيط، وهيثير اشتباههم.

ولو ما حصلش وحد لاحظه، تظهر المشكلة التانية: وهي ازاي عرف إن راسها هتكون في الحتة دي تحديدًا، وفي لحظة انطلاق الرصاصة؟

ماهي لو خبطت خيط.. وارد توطي.. وارد تبقى خارجة بضهرها لأي سبب.. وارد تبقى مزنوقة وماسكة بطنها فتعدي الرصاصة من فوق راسها.

دي الحتة اللي مش قادرين نوصل لها، وأشار حوله إلى الصالة الفارغة، ثم قال بضيق مَن لا يتقبَّل الخسارة، وشعر بتفوق منافسه عليه:

- إزاي ثبَّت الست لثانية كاملة على الأقل.. عشان يضربها بالنار بالظبط في المكان اللي يتفهم على إنه انتحار؟ عملها ازاي دي؟

ممكن لو اتكلمت مع الراجل دا أعرف اوقَّعه، ثم نظر إلى عُمر، ووضَّح:

- يعني ترمي السؤال.. وتلاحظ تأثيره على اللي قصادك.. لعبة حظ.. بس غالبًا بتنفع مع اللي عندهم حاجة يخافوا منها، لأنك كل ما بتقرب من اللي بيخافوا منه.. بيبان عليهم، ثم سرح لثوانٍ وبصره يدور في الفراغ، وكأنه ينصت لأحدهم، ثم نظر إلى عُمر وسأل فجأة، وكأنه يُمرِر له سؤالًا تلقَّاه لتوِّه:

- تعرف تجيبه هنا؟!

* * *

٦٧

فتحت والدة الرائد باب غُرفته، ونظرت إلى ابنها، الذي كان يجلس على مكتبه. رفع عينيه إليها، بتساؤل صامت، فابتسمت، ودارت الألم الذي يعتصر روحها، ويخنقها، قدر إمكانها، وقالت:

- لو جالك نفس تاكل يا حبيبي أنا مستنياك.

أجاب بصوت مُنهك:

- اتغدي انتِ يا حاجّة.. انتِ تلاقيكِ ما أكلتيش حاجة من الصبح، أنا شربت قهوة كتير.. نفسي مسدودة.

هزّت رأسها، ولم تُجِب، وأغلقت الباب خلفها، ثم فتحت السَدَّ لدموعها لتُغرق وجهها، فتماسُكها أمامه يستنفد كل جهد تستطيعه، هي أم، ولا تستطيع أن ترى وحيدها في هكذا ألم، ولا تستطيع مساعدته. أصابها عجزها عن مساعدته في مقتل.

كانت تعلم مقدار القهر الذي يتعرض له ابنها، لأنه شريف، فالفاسد عندما يُقبض عليه، لا يشعر بالقهر والظلم، لأنه في قرارة نفسه، يعلم أنه يستحق ما يلقاه، عكس ابنها.

وداخل الغُرفة، رفع وائل رأسه إلى سقف غُرفته، وكأنه يستجدي السماء لتساعده. مُنهكٌ، ومُجهدٌ. يشعر ببُركان غضبه، أسفل طبقة الجليد التي تُغطي وجهه.

دارت عيناه في سقف الغرفة، وكأنه يبحث عن شيء ما، ثم نزل برأسه، وأخذ يطالع الحائط أمامه، دون تركيز، وغاب وعيه، وتذكر لقطات من اليوم؛ هذا اليوم الذي يعتبره أسوأ يوم مَرَّ عليه في حياته بأسرها، بعد اليوم الذي دفن فيه والده، تحت الأرض، وتركه وحيدًا هناك، وعاد إلى منزله، وهو - والده- الذي لَم يتركه في حياته أبدًا وحيد.

"...كلامك دا خطير جدًّا يا وائل.. انت فاهم انت بتقول إيه؟ قال اللواء داخل مكتبه، لوائل الذي جاء معه، حتى يخضع للسؤال، كما سماه اللواء، ولكنه تحقيق، واستجواب، كما يعلم الجميع.

- يا افندم أنا طول السكة من القسم للبيت.. ومن البيت لمكتب سعادتك هنا بافكر.. صدقني يا سيادة اللواء ما فيش تفسير غير اللي باقوله لسعادتك. ثم رفع يده، مؤكدًا:

- وانا عارف طبعًا خطورة التفسير دا.. بس والله يا ماجد بيه لو فكَّرت معايا بهدوء هتوصل لنفس النتيجة.

- كلامك دا معناه إننا عندنا في الوزارة واحد بيشتغل قاتل بعد الضهر يا وائل.. ومش كدا وبس.. دا كمان بقاله سنين.

تنهّد الضابط بضيق، فهو يعلم أن ما يطرحه عصيٌّ على التقبُّل، وخاصة من قِبَل رجل أفنى عمره في خدمة الوزارة، ويعتبر رجالها أشرف من أنجبت مصر.

ولكن في النهاية، حيث يوجد بشر، يوجد فساد. هذه هي طبيعة الدنيا، وحقيقتها، وقاعدتها الوحيدة، التي لا استثناء لها.

- يا ماجد بيه دي تاني مرة تحصل.. كل ما اقرَّب من الحد دا اتحوِّل للتحقيق.. واتوقف عن العمل.. دا غير إن دا بيفسر قنابل الغاز بتاعة الوزارة اللي اتضربت في القسم.. ما فيش تفسير منطقي غير إن كل دا مرتبط ببعضه.

- بُص يا وائل.. أنا شخصيًّا مش مصدق قصة إنك اللي عملت عملية القسم دي.. الحكاية كلها مش داخلة دماغي.. طريقة تقديم البلاغ.. وموضوع حساب الصرصار دا.. في حاجة ملخبطة في الموضوع ومش مفهومة.

بس هارجع واقول لك.. فيه تفسير.. وفيه دليل.. التفسير إنك كنت شريك حد.. وخَلَفت اتفاقك معاه فقرر يبيعك، وارد، والدليل الفلوس.. مين يا وائل هيدفع فوق الـ ١٠٠ ألف جنية عشان يلبِّسك قضية؟

على الناحية التانية.. انت ما عندكش دليل واحد على نظريتك.. ولا واحد. كلها نظريات مرتبطة بصُدف.. مش بدليل حتى شبه مُقنع، ثم نظر في بعض الأوراق أمامه، وقال دون أن يرفع رأسه عنها:

- قضية الهجَّام فيها حاجة غريبة.. ومعاك برضه قضية الست دي غريبة.. بس دا مش معناه إنهم مرتبطين، حسدك كظابط أنا ممكن افهمه كزميل.. لكن دا مش دليل يا وائل.

قال وائل بضيق:

- طب ومش غريب إن في القضيّتين كل ما اشتبه في وجود طرف تالت تحصل حاجة تبعدني عن التحقيق؟ ما فيش حاجة اسمها صدفة في شغلنا يا ماجد بيه."

مقهور هو، ولا يعلم كيف يتصرَّف. إنه شيء سيء أن تُصاب في مسيرتك الوظيفية، وتُحرم من تطبيق العدالة مرة، بسبب ذكاء الخصم، أو تفوُّقه. ولكن أن يتكرر نفس الشيء مُجددًا، ومعه تُصاب في نزاهتك، فهو شيء آخر تمامًا. شعور بالقهر، والعجز، والغضب، لا يمكن احتماله.

يشعر وكأنه دُفِن حيًّا، في قبر ضيِّق، لا يستطيع الحركة بداخله. تنفَّس بعُمق، لعلّ ضيقه يتبخَّر، ولو مؤقتًا، لكن دون جدوى.

في تلك اللحظة شعر وكأنه ارتطم بالقاع، بسُرعة قطار مجنون.

تذكر، لسبب ما، أنه كان قد قرأ يومًا، في مكان ما، جُملة تقول:

"تحقيق الشيء مرهون ببذلك كُل جهد في سبيله.

فإذا أردت شيئًا بشدة، وتعلم أنك بذلت كل جهد تستطيعه في سبيل تحقيقه، فهو قد تحقق لك بالفعل، وستساعدك كل الدنيا، وتُسخَّر لتحقيقه لك. ولكن موعد مثوله بين يديك، سيكون في أكثر اللحظات يأسًا.

فإذا يئست ضاع ما أردته."

رفع رأسه ببطء ونظر إلى الحائط أمامه، تذكر حنثه بوعده لسليمان، وعدم قدرته على إقناع أحد بنظريته في قضية القسم، ورأى أمامه جثة السيِّدة،

بدمائها التي تسببت في زيادة معدل تنفسه، تعايره بعجزه عن القبض على قاتلها.

رأى اليأس يطارده، كظِل في صحراء لا تغيب شمسها.

"فإذا يئست ضاع ما أردته"

"فإذا يئست ضاع ما أردته"

"فإذا يئست ضاع ما أردته" كَررَّ لنفسه.

"فإذا يئست ضاع كل شيء"

خطيبته، عمله، شرفه ونزاهته. ماذا تبقَّى له؟

هو لا يملك رفاهية اليأس.

"الآن أنا في أكثر اللحظات يأسًا"

"لقد اصطدمت بالقاع لتوِّي"

"يارب" ونظر إلى السقف برجاء.

عاد ببصره إلى المكتب، فوقعت عيناه مباشرة على مُفكرته، التي لا تفارقه، أمامه بالضبط، ولم يلمحها من قبل بسبب غرقه في أفكاره. بدت وكأن أحدهم وضعها هنا بالتحديد ليراها، أو أشار كيان غير مرئي لوعيه عليها فرآها، وكأنها تناديه. فمد يده وأمسكها، وقلَّب صفحاتها دون هُدًى، كيائس يبحث عن سبيل للنجاة، وفقد الأمل في إيجاده، ولكنه لم يعترف بعد.

مرّت أمامه الصفحات، وكأنها تتهرَّب منه خجلًا، لعجزها عن مساعدته.

توقفت الصفحات فجأة، من تلقاء نفسها، وكأن للمفكرة عقل، وإرادة، ليجد أمامه صفحة "الاقتحام". فدار بعينه، دون تركيز فيما كتب. حتى توقفت عيناه عند آخر ملاحظة كتبها في الصفحة، والتي بدت وكأنها تتحدث إليه، وليست مُجرد كلمات تُقرأ.

وتذكر فجأة لماذا كتب تلك الجملة يومها.

عماد المنسي.. حشرة؟!!! صدفة؟!!!

* * *

٦٨

جلس عُمر في الناحية المقابلة لمريم، في كافيه يطل مباشرة على شريان الحياة لمصر، النيل. هدوء ساحر، ونسمة لا تغادر جوار النيل في الصيف، يشتاق لها سُكان الأحياء البعيدة عنه، فيأتوه من كل صوب، حتى يلمس سحره أرواحهم، لينسوا كآبة رؤية الخرسانة في كل اتجاه، والغبار على كل حائط، والحزن على كل وجه، مؤقتًا.

ابتسم عُمر عندما نظر إلى وجه مريم، للمرة الثانية في تلك الليلة. كانت أول مرة، عندما خرجت من باب عمارتها، بعد أن وافقت على مقابلته، بعد أن أرسل إليها طلبه عبر رسالة على حسابها على الfacebook.

كانت تلك أول مرة يراها فيها، وقد وضعت بعض من الزينة على وجهها، لمسة خفيفة من سحر أدوات الزينة، كانت كافية، لتجعل من تلك الفاتنة، آية في الجمال.

- ما لك؟ بتبُص لي كدا ليه؟ وضحكت.

- انتِ عارفة.

- لا ما اعرفش. قالت هي، وكذَّبتها حمرة الخجل، فابتسم هو، ثم سأل حتى يعفيها من الخجل:

- حلو المكان؟

نظرت حولها سريعًا، وقالت:

- جدًّا.. وعجبَك؟

نظر إليها لثانية كانت كافية لجعله يبتسم، ثم قال:

- جدًّا. وضحك، فضحكت. ثم سألت:

- بتضحك ليه تاني؟

- انتِ عارفة.

- يوه بقى. فضحك، وضحكت.

تماسكا لثوانٍ، حتى طلب كل منهما مشروبه، ثم سألت مريم، والضحكة ما زالت تملأ روحها:

- بطّل بقى.. قولي عملت إيه؟! واتسعت عيناها بإثارة واضحة.

تنهّد عُمر، وقال، قد غابت عنه ابتسامته دون قصد منه:

- خلاص.. عملت الصح.. وكله تمام. شُفتِ؟ مش قُلت لك ما تقلقيش؟

- بجد؟!! طب والمعلومة اللي قُلت عليها.. طلعت اتسربت ازاي؟

- انتِ جاية مكان زي دا تتكلمي في الشغل؟

تعكّرت ملامحها، وقالت بضيق وهي تسند بظهرها على الكرسي، وكأنها تبتعد عنه، وتنظُر صوب النيل:

- أنا غلطانة.. خلاص مش عاوزة اعرف.

تأمّل في ملامحها الغاضبة لثانية، أدرك خلالها، أنه لا يريد لتلك الجميلة أن تغضب مرة ثانية أبدًا. كان يعلم أنها تدّعي الغضب، وتضغط عليه ليخبرها، لأن قصته مُثيرة، وبرغم ذلك، ضايقه غضبها المصطنع، تعجَّب من شعوره، وكيف أنه سيخضع للابتزاز بكل قناعة، ورضًى، بل واستمتاع أيضًا.

ابتسم مُجددًا، فنظرت إليه وقالت:

- يا سلام؟ يعني مش هامَّك؟

- لا هاممني.

- طب وساكت ليه؟

- مش ساكت.

- لا ساكت.

- باتكلم هنا. وأشار إلى رأسه.

- وبتقول إيه هناك؟ وأشارت إلى رأسه.

- عاوزة تعرفي باقي قصة الشغل؟ ولا تعرفي باقول إيه هناك؟ وأشار إلى رأسه مُجددًا.

فقالت بثقة، ودون تفكير، أو تأخير:

- الاتنين.

- لا.

- آه.

- حاضر.

- شاطر. وضحكت بخجل.

قطع كلامهما وصول ما طلباه، وتبادلا أثناء وضع الشاب طلباتهما، نظرة، لم يرها، أو ينظُرها، أيٌّ منهم من، أو على ملامح أحد، من قبل.

* * *

٦٩

فرك عماد قطعة حشيش صغيرة، فوق طبق من البطاطس المهروسة، وقلّبه سريعًا، ثم وضعه على الأرض إلى جوار الكنبة، فهجمت كلبته الصغيرة صوفي على الطبق تلتهمه، بعد أن رفضته منه قبل ثوانٍ، بسبب خلوُّه من الحشيش، وهي تعلم أنه يملك مخزونًا منه، بسبب حاسة الشم لديها.

"تلك الكلبة تصلُح للعمل في مكافحة المخدرات.. أو التهامها"

ثلاث دقَّات على باب الشقة، جعلت صوفي تتوقف عن الأكل، وكأنها تعلم أنها تأكل "ممنوعات"، وعماد يجفل. ثم ثلاث دقّات أخرى، جعلت صوفي تكمل أكلها، وكأن تلك هي إشارة التوقف والحركة بالنسبة لها، وجعلت عماد يتحرك صوب الباب ليفتحه.

بمجرد أن فتح عماد الباب، اقتحم وائل صالة المنزل، وأمسك بذراع عماد، ولواه بعنف، مما دفع الأخير للتأوه بشدة، وبصوت عالٍ، وانتفضت صوفي فزعة، وجرت صوب آخر الصالة، ورفعت أذنيها، وذيلها، وأخذت تنظر إلى هذا الغريب، الذي انتزع "كلبشات ميري" من حزامه، وطوَّق ذراعي الصحفي خلف ظهره، ثم أجلسه بعنف على كرسي خشبي، عكس اتجاه الجلوس الطبيعي، وجلس في مواجهته وقال:

- ماشاء الله.. ومخدرات كمان؟ وأشار وائل صوب الحشيش الذي كان عماد يستعد لتغييب عقله به، قبل أن يأتي الغريب، فسال لُعاب صوفي، ولحست لعابها، وهي تنظُر صوب طبقها الذي يقبع هناك إلى جوار قدم الغريب، بحسرة.

- في إيه؟ إيه دا؟ حاول فَكَّ ذراعيه، فآلماه، فتوقف، وقال:

- وبعدين بقى في القرف دا؟ يا باشا أنا مش جاوبتك على كل اللي سألته؟ عاوز مني إيه تاني؟

أخرج وائل مسدس مساعده النقيب شريف، الذي أعاره سلاحه، بعد إيقافه عن العمل وخضوعه للتحقيق، من جرابه، ووضعه أمامه إلى جوار الحشيش، في إشارة واضحة، وشرع في لَف سيجارة حشيش، بمهارة محترف، وقال ببطء مُستفز:

- لا يا حلو.. اللي جالك قبل كدا كان من طرف الوزير عشان مقالة تافهة عدّيت فيها حدودك.. أنا هنا بشكل غير رسمي أصلًا. شكلك ما سمعتش الأخبار.

تنفّس عماد بضيق، وقال:

- هو مش سعادتك اللي كنت هنا من كام يوم؟ وبعدين لزومها إيه الكلبشـ..

توقف وائل عن العمل الذي كان يقوم به، ونظر صوب عماد وضيَّق عينيه، وسأل:

- من كام يوم؟ هنا؟ مش فاهم.. لا لا تاني كدا؟ حد كان هنا من الداخلية؟

- أيوة يا باشا.. بس جه الفجر متأخر عن كدا بشوية.. وبرضه دخل دخلة إبراهيم الأبيض بتاعة سعادتك دي، أنا مش فاهم في إيه!!

تسارعت دقّات قلب وائل بشدّة، ها هي نظريته تقترب من الإثبات. أحدهم زار الصحفي منذ أيام، ويعمل لدى الوزارة، بالضبط كما توقع وائل.

- من الأول كدا.. وواحدة واحدة تحكي لي كل حاجة.

* * *

٧٠

تابع عُمر بنظره مركبًا صغيرًا، يسبح بسلاسة فوق صفحة النيل، وسرح في هذا الصيَّاد، الذي يراه عُمر كمَن يمتلك العالم كله بين يديه. فالنيل كله مِلك له، ويحتضنه الهدوء، من كل اتجاه، والظلام، سوى من الأضواء التي تتكسّر على أطراف النيل، لتجعل رحلته، وكأنها رحلة داخل حلم.

أنهت مريم مكالمتها، ووضعت هاتفها على المائدة، فانطلق رنين هاتف عُمر، فالتقط هاتفه، وقال وهو يضحك:

- هي قفلت معاكِ وكلِّمتني ولا إيه؟ فضحكت.

- ألو.

- صحيح يا كبير اللي نادر بيقوله دا؟

- آه يا هيثم.

- يا كبير انت كدا بتلمِّس مع الكبار.. هنعمل شغل الحكومة كمان؟ وليه يا كبير؟ عشان بنت؟ قال هيثم بحدَّة.

- انت ياد يوم ما هتفوق.. هتفوق عليَّ أنا؟

- احنا متفقين من الأول ما حدش يدخل في شغلنا.. ولا لينا دعوة بالحكومة.. شغلة القسم دي وافقنا عليها عشان فيها قرشين عنب.. بس كدا احنـ...

- باقول لك إيه يا هيثم.. أنا فاهم كل دا.. بس أنا برضه مش هاعمل حاجة غير لما نتفق عليها.. زي ما بنعمل على طول، بلاش أڤورة.

- ماشي يا كبير.. عدّاك العيب. سلام.

ترك عُمر هاتفه أمامه، ونظر إلى مريم، التي قالت:

- ممكن اقول لك حاجة وما تزعلش مني؟

- أنا عارف هتقولي إيه.. ومش زعلان، انتِ عندك حق، ولاح الضيق على ملامحه، بسبب شعوره بالذنب منذ أن كان في غرفة وائل لوضع الأموال، وتلفيق تهمة له تعطِّله عن مطاردته.

- أنا عارفة إنك كنت داخل الموضوع دا بنيّة إنك ما تشذيش حد يا عُمر.. بس الأذية جُزء من الطريق دا.. مش هتعرف تمشيه من غير ما تكون شبه اللي بيمشوه. بابا الله يرحمه كان دايمًا بيقول لي.. ما تمشيش طريق وانتِ مش مستعدة توصلي لآخره.. لأن كل طريق هتمشيه هتوصل لآخره.. يمكن انت النهاردا مش متخيل نفسك ممكن توصل لآخر الطريق دا.. وتبقى واحد مجرم ما عندكش ضمير.. بس الطريق اللي بتمشيه رجلك بتعلِّم فيه..

والطريق كمان بيعلِّم فيك.. مع الوقت الطريق هيغيَّرك.. وهتكون واحد تاني على ما توصل لآخره.

كان عُمر قد حكى لمريم ما حدث، ولكنه ترك الجزء الخاص بجدار الضابط، لم يحكِه، كما قرر، ولكنه قال لها إنه لفَّق تهمة للضابط، حتى لا يترك له مجال تتبع نظرية، توصَّلَ لها الضابط بسبب ذكائه، وسوء حظ عُمر.

أكملت مريم:

- أنا عارفة إن أنا اتفقت معاك ما احكمش عليك مهما حصل.. بس والله مش قادرة، في الأول قصّتك كانت قصة واحد شقي.. بيناكف مع الدنيا.. ويتحداها.. بس كدا بدأت تتحول لقصة واحد مؤذي ما عندوش ضمير. الظابط دا مالوش ذنب غير إنه شاطر في شُغله، بُص أنا فاهمة إنك مش هتسيبه.. وهتطلَّعه منها.. بس انت ما تعرفش حجم الضرر اللي اتسببت فيه.. وصدقني أكيد كان فيه طريقة تانية.

تنهّد عُمر بضيق، ولَم يُجِب، فأكملت هي:

- عشان خاطري ما تزعلش.. أنا اللي مشجعني اقول لك كدا.. إني شايفة ضميرك مش سايبك في حالك.. في منك أمل يعني.. مش hopeless case لسَّا، بس عمومًا اقفل الموضوع دا بقى.. عشان مش عاوزة اضايقك..

وبعدين الخنقة اللي انت فيها دي مش لايقة على المكان دا.. اعمل اللي يريَّحك.. وانا زي ما وعدتك؛ مش هاحكم عليك.

ابتسم عُمر، برغم الضيق الذي مازال يتملَّكه، وتعجّب من قُدرة مريم على جعله يرغب في فعل ما ترغب هي أن يفعله، دون ضغط منها يستفز عناده،

فقرر دون تفكير أن يفعل ما يجب عليه فعله.

بادلته الابتسامة، وقالت:

- فُك بقى.

- أنا مش عارف أنا عملت إيه أستاهل عليه مكافأة من ربنا.. بس اللي اعرفه؛ إن معرفتك هي المكافأة.

* * *

٧١

تناول وائل السيجارة المحشوَّة من عماد، الذي شرع "يلِف" أخرى، ولكن وائل استوقفه قائلًا:

- لا لا ما تلفّش لنفسك.. أنا ما ليش تُقل عليه.. نفسين بس وهاديها لك.

- ظابط مباحث ومش بيحشش؟

- أي خدمة يا عم.. باورِّيك اللي عُمرك ما شُفته. قال وائل وسحب نفسًا طويلًا وهو يشعل السيجارة.

قال عماد وهو يلقي بظهره إلى الخلف، ليرتمى على الكنبة، ويرفع قدميه على الطاولة أمامه:

- أنا اللي اعرفه إن ظبّاط المباحث مولَّعينها يا باشا.

أعاد وائل السيجارة لعماد، وسأل:

- انت اتعرفت شخصيًّا على كام ظابط مباحث يا عماد؟

- ولا واحد.

فضحك الرائد، وقال:

- يعني نُص معلوماتك عننا جايبها من السيما.. والنُص التاني من الfacebook. وطبعًا مقتنع إن كل ظبّاط المباحث مقضيينها مخدرات ونسوان.. وتلطيش وكهربا في خلق الله.. صحافة تكسف وتعِر والله.

فضحك عماد، مع الرائد وقال:

- تصدق والله عندك حق. وارتفع صوت ضحكاتهما، ثم خفت تدريجيًّا.

كان وائل قد سمع من عماد حكايته عن زيارة عُمر، ثم صارحه عماد بأنه صاحب حساب حشرة، تحت تهديد السلاح، وهو في أوهَن حالاته النفسية، وأضعفها، فتعاطف معه وائل، لأن حالته هو النفسية كانت لا تختلف كثيرًا عن حالة عماد النفسية، بعد كل ما تعرَّض له، وحكى له هو الآخر عما حدث معه منذ بدء تحقيقه في قضية الاقتحام، ثم مقتل الزوجة.

انتهى بينهما الحوار، إلى تبادل الخيبات، بدلًا من تبادل التهديد، والاعترافات.

- وانت هتعمل إيه يا وائل بيه دالوقت؟ سأل عماد.

هز وائل رأسه بأسًى وقال:

- انت رأيك إيه بعد ما حكيت لك كل حاجة؟

قفزت صوفي، وجلست وسط الرجلين، في وضع جنيني مطمئن، فداعب عماد فروتها، ثم سحب نفسًا طويلًا من السيجارة، ونفخه في سقف غرفته، وقال:

- بُص يا باشا.. مع احترامي لنظريتك.. بس الواد اللي كان هنا مش قاتل.

نظر وائل إلى عماد بعينين نصف مغمضتين، وقال:

- ودا برضه من خبرتك في أفلام السيما؟

زفر عماد زفرة خفيفة، وتبسَّم بعدها، ثم أجاب:

- لا يا وائل بيه.. القصة إن الواحد له نظرة برضه. تؤ تؤ.. الواد دا مش قاتل مأجور.. لا يمكن. أنا بصراحة حسيته كان بيضحك وبيداري وشه وهو بيكلمني.. تحسه كان بيستمتع كدا.. بس مش بالأذيّة.. حسيته كان مستمتع بالإثارة.. وبسيطرته على الموقف، دا غير إنه ما غلطش فيَّ بكلمة.. ولا لمسني. وفوق كل دا بقى.. ولا جاب سيرة القضية بتاعة الست اللي أنا كتبت عنها.. هو كان مهتم بس بحكاية جهاز البحث.

- ما هو أكيد كل دا مرتبط ببعضه يا عماد.. مش ممكن كل دا يكون صدفة.

- لا مش لازم يكون مرتبط.. اسمع مني، خدوا الحكمة من أفواه المساطيل زي ما بيقولوا.

ضحك وائل وسأل:

- هما مين؟

ارتفع صوت ضحكهما، ثم نظر عماد إلى وائل وسأل:

- بس انت يا باشا إيه اللي جابك هنا؟ وعرفت منين إن أنا ليَّ علاقة بحساب حشرة دا؟

- عشان يا غشيم يوم ما نزل موضوعك على حساب حشرة.. نزل في نفس اليوم تقريرك عن قضية انتحار الست في جرنالك باسمك. ثم رفع يده اليسرى وعَد على أصابعه بوعي شبه غائب:

- رقم واحد انت الصحفي اللي غطى قصة القسم..

اتنين انت الصحفي اللي غطى قصة الست.. وفي نفس اليوم جه واحد أخد معلومات من المجند عندي عن قضية القسم.. دا كله ما ينفعش يكون صدفة، زي ما باقول لك؛ في شغلنا ما فيش صدفة.

- بس انت دخلت دخلة واحد عارف ومتأكد مش واحد ربط موقفين ببعض. ظابط مباحث برضه وقاري.

- لا طبعًا أنا اتأكدت قبل ما آجي.

- ازاي؟ سأل عماد مُتعجبًا.

- نزلت صورتك من موقع الجُرنال.. وروحت القسم وسألت عسكري الخدمة عندي.. اتعرف عليك وقال إن انت جيت دردشت معاه واديت له سجاير، حتى بالأمارة كان اسمك أحمد يومها. وضحك.

فضحك عماد، وقال:

- يابن الَّذينَ يا وائل بيه.

تعكّرت ملامح وائل فجأة، كمَن تذكّر موعدًا مهمًّا مُتأخرًا:

- بس وبعدين؟ أنا عاوز اجيب الواد دا، الواد دا هو دليل براءتي، ما تفتكر كدا أي حاجة توصلناله.. فكَّر.. اعمل حاجة عليها القيمة.

صمت عماد لدقيقة كاملة، بدا خلالها وكأنه غاب عن الوعي، ثم قال بحماس مفاجئ:

- هو قال إنه حاطط عينه عليَّ.. وعلى كل حاجة باكتبها أو باعملها.. ولو فكّرت اعمل حاجة كدا ولا كدا هيجيبني.. بس ساعتها أنا كنت فاكره أمن

دولة زي ما قُلت لك.. بس افتكرت دالوقت.. تفتكر ممكن اكتب حاجة تستفزه تخليه ييجي هنا تاني؟

اتسعت عينا وائل، وملأها الحماس، وسأل مُستفسرًا:

- حاجة زي إيه؟

- يعني.. تسريبة.. حاجة ليها دعوة بحكايته زي ما حصل أول مرة، بس بشرط.. تعسكر معايا هنا.. عشان له جه وانا لوحدي.. هيزعلني جامد.

سرح وائل لدقيقتين، قلَّب خلالها فكرة عماد في رأسه، ثم قال:

- فكرة كويسة.. بس هنسرَّب إيه؟

خيّم الصمت عليهما لثوانٍ، ثم قال عماد فجأة، بصوتٍ عالٍ، فانتفضت صوفي، من غفوتها التي اعتادت أن تغفوها بعد كل وجبة "محشوَّة":

- لقيتها يا باشا.. أقسم بالله أنا برنس، إيه رأيك؟

- ما تقول يا ابني الأول لقيت إيه عشان اقول رأيي.

- هو انا ما قُلتلكش؟

- يخرب بيت دماغك.. لأ.

- أحيه.. دا انا نسيت كنت هاقول لك إيه. صدقني كانت فكرة عنب.

اعتدل وائل، والتقط سلاح شريف من على الطاولة، وصوَّبه إلى رأس عماد وقال بغضب:

- وغلاوة دماغك لاضربك بالنار لو ما افتكرت، دا مستقبلي يا مسطول.. فوق.

- أيوة أيوة افتكرت.. تصدق برضه السلاح بينفع.. هيبة كدا.

- يخرب بيتك قول قبل ما تنسى.

- اقول إيه؟

سحب وائل إبرة المسدس، فمال عماد بعيدًا عن السلاح، وقال:

- آه آه.. خلاص خلاص افتكرت.. أنا اسرّب على حساب حشرة قصة إيقافك عن العمل والتحقيق.. واقول إن الداخلية لقيت دليل في شقتك يدل على شخصية اللي زرع الفلوس ولفق لك القضية.. واقول إني عارف الدليل.. بس مش هانشره حفاظًا على سير التحقيق.. كدا هو هيرجع هنا تاني عشان يعرف الدليل ويغطي نفسه.

ضيَّق الضابط عينيه لثوانٍ، فكَّر خلالها، ثم قال:

- يا ابن اللعيبة.

* * *

٧٢

فتح وائل باب منزله، وبحث بعينه عن والدته، التي يعلم أنها غيَّرت موعد نومها المعتاد اليوم، وتنتظره بسبب قلقها عليه، والسبب أن شحن هاتفه فرغ منذ ساعات.

سمع صوتها تتحدث مع أحدهم قادمًا من المطبخ، فتعجَّب، من عساه زارها في هذا الوقت؟ أغلق باب الشقة خلفه، فانقطع صوت الحديث الدائر في المطبخ، عندما وصل إلى متحدثيه صوت وصوله.

ظهرت رأس والدته من باب المطبخ، ونظرت له مبتسمة بإشفاق، ثم عادت رأسها واختفت داخله، ثم ظهر بعدها آخر شخص كان يتوقعه وائل مُندفعًا صوبه دون إبطاء.

اندفعت مَيْ صوب حبيبها، وصوت بكائها يرتفع تدريجيًّا. وقبل أن يفهم الضابط، ما يحدث، أو يستفهم عنه، كانت مَيْ قد ارتمت في حضنه، وضمَّته إليها بقوة.

لَم يتوقع الاصطدام، وكادت قدماه أن تخونه، ويسقط، ولكنه تمالك نفسه، واحتضنها.

بكَت هي، وسالت دموعه دون قصد منه، انهارت مَيْ، وهي تحاول أن تتكلم، ولكن بكاءها حرمها من تكوين جملة مفهومة، فمسح وائل على شعرها، وقال بصوت مختنق:

- ششششـ.. ما تقوليش حاجة يا حبيبتي. وضمَّها بقوة، فانهارت أكثر، فبكى أكثر.

لمح من خلف غشاوة دموعه، والدته على باب المطبخ، تبكي وتبتسم. فابتسم، وبكى.

استمر بكاءهم لدقائق، انهارت خلالها كل قدرة لدى كل منهم على التماسك. ثم تبعها راحة غريبة ملأت أرواحهم، وكأن البكاء أخرج كل طاقة سلبية لدى كل منهم.

قالت مَيْ، بعدما هدأ بكاؤها قليلًا، برغم عدم انتهائه:

- والله يا حبيبي ما كنت اعرف.. أنا آسفة سامحني.. والله ما كنت اعرف اللي حصل لك. أنا ما اعرفش ازاي عمـ...

- ششششـ.. أنا اللي آسف يا مَيْ.. سامحيني.. أنا قصَّرت في حقك.

- لا يا وائـ..

- بطَّلي عياط بقى يا بت.. شكلي بقى وحش.. في ظابط مباحث بيعيَّط؟

نظرت له، واحتضنت وجهه بين راحتيها وقالت:

- انت مش ظابط مباحث.. انت حبيبي.

- عمَّك قال لها لازم تفسخ خطوبتها معاك لحد ما تخلص القضية دي عشان سُمعته.. قامت سابت له البيت وجَات على هنا.. يرضيك كدا يا ابني؟ قالت أمه.

فضحك وقال وصوته ما زال تخنقه الدموع:

- آه يا حاجة يرضيني. ثم نظر إلى عيني حبيبته، وقال:

- باحبك يا بنت المجنونة.

ضحكت وضمَّته مُجددًا، فأكمل:

- برغم إن ابوكِ يا مَيْ فيه كل العِبر.. بس عِرف يربِّي.

* * *

٧٣

...وبالطبع لَن أنفي أن هذا الحساب، هو ملك ضابط شرطة، لأن هذه المعلومة بها قدر كبير من السخافة، يجعلها عصيّة حتى على النفي.

أما الخبر الذي أنا بصدد الإعلان عنه، هو أن البحقاتننش...

انتفض عماد عندما فتح أحدهم باب شقته من الخارج، وأغلقه خلفه، ودلف إلى الصالة مصوِّبًا مُسدسه إلى الصحفي، مما تسبب في كتابته لحروف لم يقصدها.

نظر عماد، وصوفي كلاهما صوب القادم، الذي أخفى وجهه، خلف قناعه، كما فعل من قبل. ثم قال عماد:

- هو انت معاك Password الكالون؟ ولا أنا اللي محتاج اشيل الباب دا طالما مالوش لازمة؟ ولا إيه؟ وبعدين... قطع كلامه ونظر صوب جهازه المحمول، ثم نظر إلى عُمر، الذي ما زال صامتًا، وقال:

- وبعدين انت عرفت منين؟ أنا لسَّا ما نزِّلتش الموضوع أصلًا.

- موضوع إيه؟!

أدرك عماد أنه قال أكثر مما يجب.

"أنا لازم اخِف حشيش وانا باشتغل بعد كدا!!" قال عماد لنفسه.

- موضوع إيه؟! كَرَّر عُمر.

صمت عماد لثوانٍ، ثم قال عندما أدرك أن لا مفر من الكلام:

- عشان خاطري شيل المسدس دا عشان اعرف افهِّمك. وانا صدقني مش هاعمل أي حاجة تستدعي تدخُّلُه.

نقل عُمر نظره بين عماد، وطاولته، وصوفي، فقال عماد:

- ولا صوفي هتعمل حاجة.

فابتسم عُمر، رغمًا عنه، وقال وهو يُعيد مُسدسه إلى جرابه:

- طب بلاش لماضة وفهِّمني موضوع إيه.

ثم انتزع صاعقًا كهربائيًّا، في حجم راحة اليد، وضغط على زر تشغيله، ليُطلق شزرًا أزرقًا، ومعه صوت مُرعب، جعل صوفي تقفز من مكانها، وتتحفز، وتنظُر صوب الصاعق بغضب.

فقال عماد الذي لم يكن أفضل حالًا من صوفي:

- بصراحة يا باشا احنا كنا عاوزينك تيجي.

- عاوزينِّي؟! هو في حد معاك هنا؟! قالها عُمر، وألصق ظهره إلى باب الشقة، وتحفَّز.

أدرك عماد مدى جثامة خطئه، وتمنَّى لو يستطيع أن يستعيد جملته الأخيرة.

- انطق.. في حد معاك هنا؟!

- لا صدقني حضرتك ما فيش.. أنا لوحدي.

- أُمال مين اللي عاوزينك تيجي دول؟!

رفع عماد يديه ليطمئن عُمر، وقال بحذر:

- ممكن تهدا بس؟! وانا هاحكي لك كل حاجة.. وزي ما تيجي بقى.

* * *

٧٤

قالت مَيْ بضيق، وهي تفتح باب سيارة وائل:

- والله ما كنت ناوية ارجع النهاردا.. هارجع عشان خاطرك بس.

- الفجر قرَّب يطلع.. ما يصحّش كدا أصلًا. يلا اطلعي.. أنا هاستنى تطمنيني إنك في أوضتك.. وبعدين هامشي. لو سيادة اللواء قال لك اقلعي الدبلة.. ارميه من المنوَر.. بلاش من البلكونة عشان مايبوَّظش سقف العربية.

ضربته في كتفه، وضحكت، ثم غادرت السيارة، بعد أن نظرت إليه نظرة طويلة، قالت الكثير، وبادلها هو بمثلها.

أبقى نظره مُعلَّقًا عليها، حتى غابت عن نظره، ثم أراح رأسه إلى الخلف، وأخذ في استعادة أحداث هذا اليوم.

لقد ارتطم بالقاع بالفعل، ولكن يبدو وأن المقولة التي قرأها، لا يتذكَّر أين، كانت صحيحة.

فعندما تكون في القاع، لا يوجد سوى اتجاه واحد أمامك، إلى الأعلى، ولكن حذار أن تيأس، فتبقى.

رَنَّ هاتفه، فابتسم والتقطه، ولكن ابتسامته غابت، عندما وجد أن الراسل هو عماد، مطالبًا إيَّاه بالحضور إلى منزله فورًا، فنظر إلى الأعلى، وكأنه يستحث مَيْ، على إطلاق سراحه، فجاءه الفرج، واستقبل رسالتها:

"سيادة اللواء مخاصمني.. مصلحة. ما قابلتوش. روَّح نام يا حبيبي"

فوضع الهاتف إلى جواره، وتحرك في اتجاه منزل الصحفي.

فتح عماد باب شقته، فدلف وائل، ومعه صوت أذان الفجر، يملأ سماء القاهرة الناعسة، هي وأهلها، ويذكِّرهم بأن الصلاة خير من النوم.

توجس وائل عندما لاحظ توتُّر عماد، الذي قال:

- عندي ليك خبر حلو.. وخبر وحش.

- خير؟!

- تسمع أنهي فيهم؟

- الحلو.

- أنا وصلت للراجل إيَّاه.

اتسعت عينا وائل، ووضع يده بحماس وإثارة على كتف عماد، وسأل:

- بتتكلم بجد؟!! لحقت؟!!

أومأ عماد برأسه، ولكن التوتر أعاد وائل إلى توجسه، فقال:

- والخبر الوحش؟

لَم يُجِب عماد، ولكن أجابت فوّهة مسدس باردة، التصقت بمؤخرة رأس وائل، وسمع صوت سحب إبرته، وبعده صوت حامل السلاح يقول:

- إنه موجود هنا.

* * *

٧٥

انتهى عماد من تقييد ذراعي وائل، في بعضهما، خلف ظهر الأخير، وأجلسه على الكرسي، عكس اتجاهه، كما فعل معه هو قبل قليل، ثم قيَّد قدميه، إلى رجلي الكرسي الخلفيتين، فأصبح مشلول الحركة تمامًا، ثم قام بتفتيشه جيِّدًا، وتأكد من عدم حمله لأي شيء، بعد سحب هاتفه، ومحفظته، ومفاتيحه منه، كل هذا تم في دقائق، تحت إشراف، وبتوجيه من، عُمر.

نظر وائل بغضب صوب المُقنَّع، ثم إلى عماد، بنظرة لوم واضحة، فرفع الأخير كتفيه، ورمقه بنظرة "كنت هاعمل إيه يعني؟!!". ثم جلس في آخر الصالة، وكأنه يتجنب معركة على وشك الحدوث.

بدأ عُمر الكلام، وقال بهدوء واثق:

- سمعت إنك عاوز تقابلني.

- لو راجل شيل الوش دا خليني اشوفك.

تنهّد عُمر بضيق مُصطنع، وأعاد مُسدسه إلى جرابه، وهو يقول:

- تمام.. أسيبك أنا بقى تكمّل طولة لسان براحتك.

ثم توجه صوب باب الشقة، فقال وائل بحدَّة وغضب:

- استنى هنا.. رايح فين؟!

- انت هتصاحبني؟

- يعني انت جايبني هنا عشان تربطني وتمشي؟!

نظر عُمر إلى الضابط لثوانٍ، ثم اعتدل وأسند ظهره إلى باب الشقة، وعقد ساعديه أمام صدره، وقال:

- لا أنا جايبك عشان نتكلم.. بس مش هاتكلم بالشكل دا، طولة اللسان وفتحة الصدر دول تعملهم هناك في القسم.. انت هنا تتكلم كويس.. لو عاوز تتكلم.

لَم يُجِب وائل، وعلا صوت أنفاسه، وبدا عليه أنه يحاول التحكم في غضبه، فقال عُمر:

- على فكرة أنا فهمت من عماد القصة كلها قبل ما تشرَّفنا.. أنا ما قتلتش حد.. ولا قاتل مأجور.. بس أنا جايبك هنا عشان الموضوع دا، من الآخر كدا.. مُستعد تساعدني أساعدك تقبض عليه؟ ولا امشي؟

- أمال انت مين؟! وعاوز تساعدني ليه؟! زي ما انت فهمت القصة.. أنا كمان لازم افهم.

صمت عُمر لثوانٍ ليرتب حكايته، انطلق خلالها صوت إقامة صلاة الفجر، فانتظر الأخير حتى أقام المؤذن الصلاة، ثُم قال وهو يجلس في أبعد نقطة عن وائل:

- أنا عندي شرط واحد بس لو هاساعدك.. لازم توافق عليه قبل ما نتكلم.

وانتظر رد فعل من الضابط، لم يأتِ، فأكمل:

- طيب عشان التفاوض يبقى ماشي صح.. هاعرض اللي جاي أقدِّمه.. وفي المقابل انت هتلتزم بالشرط اللي عندي.

لا جواب من الضابط، الذي كان يتفحّص عُمر بكل تركيز، وتحفُّز:

- أنا هاساعدك تطلع براءة من التهم اللي بيتحقق معاك فيها.. وهاساعدك نكشف حقيقة وجودة قاتل مأجور بجد.. ولا دي كلها صُدَف.. ولو فيه قاتل فعلًا هاساعدك تقبض عليه.. وفي المقابل تلتزم بإنك مالكش دعوة بيَّ.

- نسيت معلومة مهمة جدًّا.. انت مين؟! وعاوز تساعدني ليه؟!

أومأ عُمر برأسه، وقال:

- حقَّك.. ودا هياخُدنا للشرط بتاعي، أنا اللي عمل عملية القسم.. وانا اللي لفَّق لك الفلوس.. وانا اللي هاطلَّعك منها.

تسارعت أنفاس وائل، وتوتر جسده، بشكل ملحوظ، فقال عُمر:

- اهدا يا حضرة الظابط.. واسمعني للآخر. بالنسبة لسؤالك التاني.. هاساعدك ليه، الموضوع غريب شوية.. بس هو في حاجة بتحصل بقالها أيام.. بتحاول تجمعني أنا وانت وعماد وحد رابع.. هو السبب في إني أساعدك، تقدر تقول كدا قدر.. نصيب.. علامة، بس باختصار أنا في حد اعرفه اتعرض حد من عيلته لحادثة مريبة.. فيها كل أوجه التشابه اللي موجودة في القضيِّتين اللي انت معلَّقهم على حيطة أوضتك.

انعقد حاجبا وائل، وسأل مستغربًا:

- وانت عرف... آه انت كنت في أوضتي.

- بالظبط.. تخيَّل لما اشوف في أوضتك كلام يفكرني بقضية لسَّا سامعها قبلها بيومين. دي مش صدفة.. دا قدر.. دي علامة.

"تحقيق الشيء مرهون ببذلك كُل جهد في سبيله.

فإذا أردت شيئًا بشدة، وتعلم أنك بذلت كل جهد تستطيعه في سبيل تحقيقه، فهو قد تحقق لك بالفعل، وستساعدك كل الدنيا، وتُسخَّر لتحقيقه لك. ولكن موعد مثوله بين يديك، سيكون في أكثر اللحظات يأسًا.

فإذا يأست ضاع ما أردته." تذكَّر وائل ولم يُجِب، ولكن ملامحه أعلنت اقتناعه.

- شرطي الوحيد.. هو إنك تطلّعني من موضوع القسم دا.. وانا هاسلِّمك اللي فعلًا أمر بتنفيذه.

- يعني إيه أمر بتنفيذه؟! مش بتقول انت اللي عملته.

- أنا اللي نفّذت.. بس ثروت الناظر اللي طلبه.. دي شغلانة كنت باعملها له. هسلِّمك الدليل اللي يثبت تورُّطه.. وكمان هاسلِّمك سبب العملية.. والشخص المستفيد، بس أنا هاختفي.

- ليه؟!!

- خلف اتفاقه معايا.. دا كان كدا كدا هيحصل، الخطة كانت أزرع الفلوس في بيتك.. وبعدين ابعت لك دليل تورطه.. ودليل إن هو اللي ورَّطك.. واختفي. ولا كنت هتعرف عني حاجة، بس اللي شُفته في أوضتك خلاني موجود هنا النهاردا. أنا فعلًا جيت أساعدك من غير مكسب واحد ليَّ.

ها؟! قُلت إيه؟! أساعدك واختفي؟!

- مش هيحصل.

- ما تبقاش غبي وتضيَّع حاجة قد كدا، وفتح ذراعيه على امتدادهما، ثم أكمل:

- عشان حاجة قد كدا. ثم أشار إلى عُقلة إصبعه، وأضاف:

- ودي كمان مش هتقدر تثبتها، أنا في الحقيقة ماليش وجود.

تكلَّم وائل أخيرًا، وقال:

- انت بتحاول تبيع لي حاجة مش معاك من الأساس.. برغم ثقتي بنسبة ١٠٠٪ في إنه موجود.. بس برضه وارد يكون ما فيش قاتل.. ونظريتي تكون غلط.. انت بتقايض حاجة حقيقية.. بنظرية لسَّا قيد الإثبات.

واضح إنك حسيت إني قريب منك.. فاستغليت قصة هَوَسي بالقضايا اللي شُفتها في أوضتي.. عشان تقنعني إني ابطَّل ادوَّر عليك.. وبعدين لما مش هنوصل لحاجة أصلًا.. تبقى انت أخدت مني وعد بدون مقابل.

براڤو.. فكرة عبقرية.. بس لا.

ابتسم عُمر، بسبب صحَّة منطق وائل، وبراعته، وقال:

- عندك حق، خلاص.. احنا نتفق.. لو طلع فيه قاتل.. وفعلًا ساعدتك تقبض عليه.. تحترم شَرطي.

أظُن دا دليل كفاية إني مش باستغل هَوَسك ولا حاجة.. وإني فعلًا جاي أساعدك بس. ولّا إيه؟!

أنا باراهن بحُرّيتي على صحّة نظرية سعادتك.

دا غير إني زي ما قُلت لك.. انت لا يمكن كنت حتى هتشُك في وجودي.. لولا إني شُفت الحيطة عندك.

فكّر وائل لثوانٍ، ثم سأل بتشكُك:

- ليه بتراهن طيب؟!! إيه اللي مخليك واثق كدا إني صح؟!!

- زي ما قُلت لك.. أنا باحترم العلامات جدًّا. واللي حصل معاك دا علامة.

تبادلا النظرات لثوانٍ، حتى قطع وائل الصمت، وأومأ برأسه في اتجاه عُمر قائلًا:

- اكشف وشّك.

صمت ثقيل، ثم قال عُمر:

- ادّي لي كلمتك.

- ماشي.

- وعد؟

- وعد.

* * *

٧٦

استيقَظ المهندس عادل، على صوت جرس الباب، داخل غُرفة نومه المؤقتة، التي تقع في الشقة التي يتخذها مقرًّا لعمله الخاص، والتي خصصها لنفسه، حتى ينتهي التحقيق، ويتمكَّن من العودة مُجددًا لشقته. ترنَّح في مشيته، متعجبًا من إصرار الزائر على إيقاظه، فاليوم إجازة، وأراد أن ينام حتى يشبع، ولكن كان للطارق، رأي آخر.

فتح الباب، ووعيه نصف نائم، ليطالعه وجه الرائد وائل المرهق، لا يعلم المهندس أن وائل لَم يحظَ بأي قدر من النوم الليلة السابقة، ولكنه لاحظ إرهاقه، والهالات السوداء التي تكوَّنت تحت عينيه، وذقنه التي نبتت كالشوك.

كان عُمر قد أخبر وائل بنظرية نادر، وطلب منه تدبير لقاء بينهما، ولكن وائل أكد على استحالة حدوثه، فاتفقا على أن يقوم وائل باستجوابه، حيث أن السبيل الوحيد للوصول إلى القاتل، إن وجِد، هو عبر الضغط على الزوج، وطرح الأسئلة عليه في شكل حقائق، ومتابعة رد فعله، حتى تصيب أحد نظرياتهم، ثقته في نفسه، في مقتلها، فينهار.

- أنا حبِّيت أكون أول واحد بيبلَّغك الخبر السعيد، قال وائل وهو يدلف بوقاحة إلى الشقة، ثم استدار، وواجه عادل، وقال باستهزاء:

- لا اقفل الباب.. أنا جيت لوحدي.

- اتفضل يا وائل بيه. قال عادل ساخرًا من دخول وائل قبل السماح له بذلك.

سار وائل خطوات قليلة، ودار ببصره في المكان، مكتب صغير في مواجهة الباب، يبدو وأنه يخص مسؤول الاستقبال، تعلوه لوحة كبيرة عليها اسم الشركة، ومكتوب أسفلها جُمل ترويجية، مثل "يمكنك التحكم في حركة ستائرك عن طريق الهاتف"، "لا يجب عليك القلق من ضياع الريموت، يمكننا تثبيت زر التحكم في أي مكان؛ في مسند كرسي المكتب، أو في المكتب نفسه، أو أي مكان تختاره" "يمكنك ضبط الستائر لتفتح وتغلق أوتوماتيكيًّا في مواعيد محددة مسبقًا". وإلى اليسار كنبة سوداء مغطاة بجلد لامع، أمامها طاولة زجاجية سوداء عصرية الطراز، وثلاثة أبواب مُغلقة، وباب واحد مفتوح، يظهر خلفه، مرتبة على الأرض، يبدو وأن المهندس قام لتوِّه من عليها.

جلس الرائد، وأراح ظهره، ووضع قدمًا على الأخرى، ثم أشار إلى عادل أن يجلس، وقال:

- اتفضل يا باشمهندس.

تنهَّد عادل بضيق، وقال وهو يجلس مُصطنعًا ابتسامة سخيفة:

- يا ترى إيه سبب الزيارة الجميلة دي؟

- ما فيش تشرب إيه الأول؟ بذمتك انت جيت لي المكتب مرة.. وعملت معاك كدا؟

- ما هو بصراحة دا مش وقت زيارة.. الولد أجازة النهاردا.

- أحسن برضه. بُص يا باشمهندس.. أنا جاي اقول لك إني أخيرًا عرفت انت عملتها ازاي.

توتَّر المهندس، وغضب، ثم تمالك نفسه وقال:

- عملت إيه؟!!

تجاهل وائل سؤاله متعمدًا، وأكمل:

- طبعًا عاوز تعرف عرفت ازاي.. هاقول لك.

الحقايق يا باشمهندس.. الحقايق لما بتتثبت.. الصورة بتوضح، في حالتنا دي الحقايق كانت... رفع يده وبدأ العد على أصابعه:

- واحد.. المدام اتقتلت.

اتنين.. المدام كانت لوحدها في الشقة.. أي نظرية بتقول غير كدا.. مكتوب لها الفشل، ودا اللي سيادتك مع اللي ساعدك.. لعبتوا عليه.. إنكم تودونا في سكة غير السكة الصح.. عبقري الراجل دا بالمناسبة.

بلغ توتر المهندس مداه، تململ في جلسته، وكأن كهرباءًص مسَّته، وحاول احتمالها، عرقه ظهر كنقاط لامعة على جبهته، برغم برودة الشقة التي تكفَّل بها جهاز تكييف خافت الصوت.

أدرك وائل أنه أصاب عصبًا خطيرًا، عندما لمح علامات التوتر على الرجل.

"إذًا.. هناك طرف ثالث بالفعل"

أكمل كأنه لم يلحظ شيئًا:

- رقم اتنين تنقلنا لرقم تلاتة دُغري.. تلاتة.. انت كنت عارف إنها هتتقتل.. ومش لوحدك.

أربعة...

قاطعه المهندس، وانتفض واقفًا فجأة كالمطاط، وقال:

- انت جاي تهزر؟! عندك دليل على أي حاج...

صرخ وائل فجأة، بصوت هزّ روح الزوج نفسها، وجعلها ترتعد:

- لما تتكلم مع ظابط مباحث تتكلم بأدب.. ولو ناقص أدب اعلِّمك.

ثم هدأ صوته، وعادت ابتسامته الهازئة تملأ وجهه، وأكمل، وكأنه لا يرى رعدة الخوف والتوتر التي ما زالت تسري في جسد الزوج أمامه:

- أربعة.. بصمة صباع المدام مش على الزناد.. دي برضه حقيقة.

المزيد من التوتر.

- خمسة.. طب ازاي لوحدها؟! وازاي اتقتلت؟!! أقول لك أنا: الفكرة بسيطة.. وأدوات تنفيذها كلها عندك في "الورشة". ورفع يديه بعلامات التنصيص.

- المسدس اتثبّت.. واتوجه. ها؟! قرَّبت؟ وابتسم أكثر ابتسامة واثقة تمكَّن من استدعائها، وكسا توتره بطبقة من الجليد، حتى لا يظهر على ملامحه. فهو في الحقيقة يُجرب، يصطاد، لا يعلم أي طُعم سيتسبب في استدراج الفريسة.

المزيد من التوتر، والعرق.

"اقتربت"

ولكن لا إجابة.

"الآن"

يتبادلا النظرات، كل منهما يقيِّم قوَّة الخصم. كل ثانية تمُر في هذا الصمت، يستعيد خلالها الرجل هدوءه، ويظهر ضعف الرائد.

شبح ابتسامة يلوح في أفق ملامح الزوج.

"كشف الخدعة"

مزيد من الهدوء يظهر على ملامح الزوج، وكأن توتُّره، يتسرَّب عبر هواء الغرفة، غير مرئيٍ، ليسكُن ملامح الضابط.

"سأخسر كل شيء.. لابد من الهجوم"

"تحقيق الشيء مرهون ببذلك كُل جهد في سبيله.

فإذا أردت شيئًا بشدة، وتعلم أنك بذلت كل جهد تستطيعه في سبيل تحقيقه، فهو قد تحقق لك بالفعل، وستساعدك كل الدنيا، وتُسخِّر لتحقيقه لك. ولكن موعد مثوله بين يديك، سيكون في أكثر اللحظات يأسًا.

فإذا يئست ضاع ما أردته."

رفع الرائد رأسه إلى السقف، وكأنه نبي يستجدي الوحي.

لاحظ الزوج توتّر الرائد، فأراح ظهره، ووضع قدمًا فوق الأخرى، ثم مَدَّ يده، والتقط ريموت كنترول، من على مكتب الاستقبال، وقال ساخرًا وهو يوجِّهه صوب الحائط:

- طب افرَّجك على شُغلي.. اللي كنت هاعملهولك في مكتبك وسعادتك رفضت.. على ما تفتكر رقم ستة بقى.

ضغط على زر الريموت، فانزاحت الستارة التي كانت تغطي الحائط المواجه لباب الشقة بآلية، كاشفةً عن شباك عريض، وسامحةً لضوء الشمس الباهر بملء الغرفة، بالدفء والنور المُحبب، عندما يجتمع مع برودة التكييف.

"ريموت"

"يعني كان فين الفخ؟ يعني هي مثلًا شدت حبل برجلها؟ كانت الشرطة هتلاقي آثار تثبيته في الحيط. وهيثير اشتباههم." هكذا قال هشام. فكَّر الرائد.

- بالريموت.

رمى وائل بالطعم، دون تفكير. كان يائسًا، ولا يملك رفاهية استعادة الزوج لهدوئه، وتحكُّمه بأعصابه.

- نعم؟!! استفسر الزوج غير فاهم.

- بالريموت يا باشمهندس.. ماكنة زي اللي في الستارة.. تدوس زرار.. يتحرك ترس يدوس ع الزناد. ها.. كدا قرَّبت صح؟!! وابتسم.

بداية انهيار تظهر جليَّة على ملامح الزوج، الذي تسمَّر، حتى بدا للضابط وكأنه لا يتنفّس. فأكمَل مُستغلًّا اللحظة:

- ستة.. الشقة لسَّا متشمَّعة. وملأت الابتسامة وجه الضابط، وأكمل بثقة عندما انهارت كل ثقة كانت بدأت تتجمع على ملامح الرجل:

- عارف دا معناه إيه؟!! معناه إن الدليل لسَّا هناك.. ودالوقت بعد ما عرفت أنا بادوَّر على إيه.. والفضل في دا طبعًا لسعادتك دالوقت.. ما بقاش فاضل غير مشوار للشقة.

تسارعت أنفاس الزوج، وملأ صوت تنفسه صمت الغرفة، وبدا مع صوت التكييف الهامس، وكأن طرفين يخوضان حوارًا، أحد أطرافه في أوج غضبه، والآخر في قمة هدوئه.

تمامًا كما هو الحال في الحوار الذي توقف بين الضابط، والزوج.

بعد دقيقة كاملة من الصمت، تحدث الزوج أخيرًا، وقال بتوتر بالغ، وبدا وكأنه يحاول الانتهاء من هذا اللقاء بأي شكل:

- يعني سعادتك جاي هنا بس عشان تبلَّغني إنك رايح الشقة عندي تدوَّر على ريموت عليه بصمات مراتي؟ ولا محتاج مفتاح الشقة؟ أنا مش فاهم انت عاوز مني إيه؟

شوف سيادتك محتاج إيه عشان أنا عندي مشاوير عاوز اعملها.

"ريموت"

دارت الأفكار كالإعصار، في رأس الضابط.

"نعم.. أصابت كلمة ريموت عصب الفزع والتوتر عند الزوج، ولكن ما زالت الأحجية مفتقدةً لآخر قطعة، حتى تكتمل.

أين هو الريموت؟

في الشقة بالتأكيد.

وكيف دفع الزوج زوجته للضغط عليه؟

يمكن أن يكون قد أوصله بأي شيء أو ريموت آخرًا. هذا عمله، أي مهندس ميكانيكي مجتهد قادر على فعلها.

إذن يبقى السؤال الأهم. السؤال الذي طرحه هشام من قبل"

"إزاي ثبِّت الست لثانية كاملة.. عشان يضربها بالنار بالظبط في المكان اللي يتفهم على إنه انتحار؟ عملها ازاي دي؟"

* * *

٧٧

تصفَّح نادر حساب الـfacebook الخاص به، كما اعتاد أن يفعل، كلما علق عقله عند خطوة من خطوات خطة يرسمها، أو فصلٍ يكتبه في إحدى رواياته التي لن ترى النور، أو لُغزٍ يحاول حَلَّه، بحثًا عن أي "ڤيديو كوميدي"، يشتت عقله بعيدًا عمّا يفكر فيه.

"إزاي ثبّت الست لثانية كاملة.. عشان يضربها بالنار بالظبط في المكان اللي يتفهم على إنه انتحار؟ عملها ازاي دي؟"

بقي هذا السؤال يتردد في خلفية عقله، كالصدى، واستمر هو في تجاهُله. وأقنع نفسه أن يهتم بما يطالع أمامه على شاشة الكمبيوتر.

أحد الڤيديوهات الكوميدية، التي يقوم بتصويرها هواة، ولكنها تؤدي الغرض، عن شاب يقوم بإيذاء أشخاص بشكل مُستفز، دون أدنى سبب، سوى أن يحصل على عدد كافٍ من المشاهدات، تؤمِّن له دخلًا يكفيه، فلا يعمل، ولا يفيد الدنيا في شيء، بل يؤذيها عبر إقناع عدد أكبر من المُغفلين بتقليده.

"إزاي ثبِّت الست لثانية كاملة.. عشان يضربها بالنار بالظبط في المكان اللي يتفهم على إنه انتحار؟ عملها ازاي دي؟"

في زمن الإنترنت، أصبح الخجل نادرًا، كالصدق.

أصبح هناك من هو على استعداد ليفعل أي شيء، أي شيء، في سبيل حصوله على نشوة إعجاب المتابعين، ومضاعفة عددهم.

وأصبح الاختلاف، والتميُّز، شيئًا واحدًا، وهُما بعيدان كل البُعد عن التشابه، وأصبح الاختلاف حتى في الانحطاط، مطلوبًا، وأصبح عدد المتابعين يعطي نوعًا من القداسة الزائفة لصاحب الحساب المُتخم، ومصداقية مدعومة بعدد لا بأس به من المؤمنين بكل ما يصدر عن صاحب هذا الحساب، دون النظر إلى أن كل مؤهلات هذا الشخص أنه تافه، ولا حياء عنده.

"إزاي ثبِّت الست لثانية كاملة.. عشان يضربها بالنار بالظبط في المكان اللي يتفهم على إنه انتحار؟ عملها ازاي دي؟"

مرّ أمامه أحد المواضيع المثيرة للجدل، تلك المواضيع التي يبتكرها عقل المسؤول عن صفحة ما، بهدف زيادة المتابعين، ويُغلِّفها بغلاف منطقي، قدر إمكانه، فقط لإقناع المتابعين أنه موضوع حقيقي، ومشكلة تحتاج إلى عقولهم الفذة، لتُحَل.

تلك المواضيع التي تتحدث عن فتاة، وعلاقتها بخطيبها، وعن تجاوزات قاموا بها قبل موعدها، والحقيقة أن التجاوز الحقيقي، هو السماح لهؤلاء بالوصول إلى عقول أطفالنا.

ولكن في عصر الحرية، كل تجاوز مسموح به، سوى تجاوزك في حق تلك الحرية المُزعومة.

"إزاي ثبِّت الست لثانية كاملة.. عشان يضربها بالنار بالظبط في المكان اللي يتفهم على إنه انتحار؟ عملها ازاي دي؟"

أحد المنشورات التي تستفز المتابعين، الذين يظنون في أنفسهم قدرًا من الذكاء، حيث تعرض الصفحة سؤالًا، يضمن لها آلاف التعليقات، كان السؤال:

"ما هو الشيء الوحيد، الذي تسعد المرأة، عندما يُقلل منها؟"

أجاب نادر بتلقائية، وبصوت هامس:

"الميزان"

ولكنه لم يُعلق، على المنشور.

"إزاي ثبّت الست لثانية كاملة.. عشان يضربها بالنار بالظبط في المكان اللي يتفهم على إنه انتحار؟ عملها ازاي دي؟"

فجأة، اتسعت عيناه على آخرهما، وهَب يبحث عن هاتفه.

* * *

٧٨

مَرَّت الثواني، والزوج ينظُّر إلى وائل، وعرقه يفضح توتُّره، ووائل مازال تائهًا بين أفكاره، بحثًا عن آخر قطعة في الأحجية، تلك التي يعلم وائل أنه اقترب منها كثيرًا، يكاد يشعر بوجودها على حافة إدراكه. "فكَّر"

جاهد الضابط ليمنع ما يدور داخل عقله، من التأثير على ابتسامته المُستفزة، التي تركها، لتوهم الزوج أنه يعلم، ولكنه فقط يتسلى بتعذيبه.

ومن ملامح الزوج، يبدو أن خطته ناجحة حتى الآن، ولكنه مُسكِّن مؤقت لن يدوم تأثيره. "فكَّر"

ضجيج أفكار يعلو في رأسه، يسمعها كلها، بأصوات مختلفة، تتكرر في إصرار.

"إزاي ثبِّت الست لثانية كاملة.. عشان يضربها بالنار بالظبط في المكان اللي يتفهم على إنه انتحار؟ عملها ازاي دي؟"

"ضغط على زر الريموت، فانزاحت الستارة التي كانت تغطي الحائط المواجه لباب الشقة بآلية"

"الريموت"

"لا يجب عليك القلق من ضياع الريموت، يمكننا تثبيت زر التحكم في أي مكان؛ في مسند كرسي المكتب، أو في المكتب نفسه، أو أي مكان تختاره"

وصلت في تلك اللحظة رسالة إلى هاتف وائل، فأخرجه من جيبه ليجد كلمة واحدة فقط على شاشته:

- الميزان. انطلقت منه الكلمة منه بخفوت، لتتحوَّل أفكاره المشوَّشة، فجأة، إلى صورة كاملة الوضوح.

تسمَّر الزوج، وكأن كلمة وائل كانت تعويذة، تحوَّل من يسمعها إلى صنم. مما حمَّس وائل، وجعله يلتفت لفكرته، ويدرسها، بصوت عالٍ:

- الميزان هو المكان الوحيد اللي الشخص بيقف فوقه بشكل مستقيم وثابت. أعجبته الفكرة، فاستمر:

- وهو اللي بيُستخدم في الغالب أول ما بنصحى من النوم.

وكمان مساحته صغيرة.. يعني هتقدر تتنبأ بالظبط راس الشخص فين.. لو عارف طوله.. ومكان الميزان.

وأخيرًا؛ تقدر تثبِّت فيه ريموت صغير بزرار واحد.. ودا شُغلك. وأشار إلى الحائط حيث اللوحة الترويجية، ثم أكمل:

- وكل اللي عملته لما رجعت من برَّا.. إنك نقلت مكان المنجلة اللي مثبتة المسدس.. والميزان.. وحطيت بصمات المدام على السلاح. ودا ما ياخدش غير دقيقة واحدة.

صمت الزوج ولَم يُجِب لدقيقة كاملة، فقال وائل ليقضي عليه:

- تفتكر يا باشمهندس لو وصلت الشقة وقلبت الميزان.. هالاقي ريموت صغيّر

متثبت تحته.. يتداس عليه لما حد يطلع فوقه؟ أو يمكن جوّا الميزان. ها؟ قرّبت؟! ثم ابتسم، وقال:

- ولّا نقول وصلت؟!!

لم تُبدِ ملامح الزوج سوى الانكسار، وهو يقول:

- انت ما كنتش عارف حاجة.. صح؟! انت جيت تصطاد.. وتجرب معايا نظريات.. صح؟!

رفع وائل كفّيه وصفق، وهو يقول:

- طب ما انت ذكي أهُه.. أُمال وقعت ازاي بالسهولة دي؟! أقول لك أنا ازاي؟! عشان خايف.. اللي عنده حاجة يخاف منها.. سهل يُقع.

ضاق الزوج ذرعًا، وقال بضيق، وغضب:

- عاوز إيه دالوقت؟!

- تحكي لي كل حاجة.. عاوز اللي ساعدك.. واللي نفِّذ العملية.

- أنا اللي نفّذت العملية.

سأل وائل بخيبة:

- يعني إيه؟!

- يعني زي ما انت قُلت.. ناهد كانت لوحدها.. والتثبيت والتركيب.. والريموت.. كل دا أنا اللي عملته، ما حدش اشترك في التنفيذ غيري.

- يعني كل دا كان صدفة؟!! وما فيش شبح؟!!

* * *

٧٩

القاهرة في الصيف صباحًا، في أيام العمل، لا تُطاق، بزحامها الذي يأكل أعمارنا، وترابها الذي يغطّي كل شيء، حتى أرواح من عاشوا فيها لفترة. مما يصيب سُكانها بانعدام القُدرة على احتمال بعضهم البعض، وتنخفض فيها الحدود الدُنيا للأخلاق، إلى ما تحت الفظاظة، حتى أصبحت سمات سُكّان العاصمة، هي العصبية، والفظاظة، وطول اللسان، البلطجة.

ولكن وائل لَم ينتبه لكل هذا، وهو يقود سيارته، غارقًا في أفكاره، والتي استحوذَت على كل وعيه، فلم يلحظ هذا السائق الذي سبَّه، بسبب أن آخرًا سبقه، ولا الآخر الذي أوقف سيارة نقل الركاب خاصته، ليكتمل عدد ركابها، في منتصف الطريق بالظبط، وكأنه مصاب بوسواس قهري، يجبره على هذا المكان.

اتصل وائل بعماد، وقال ما إن سمع صوت الصحفي الناعس، ولم ينتبه إلى أنه أيقظه من نومه:

- فاكر هشام، قال لك توصل له ازاي؟

- آه.. اكتب أي جملة على صفحتي ع الfacebook، فيها كلمة "مريم". قال عماد وهو يكره كل ثانية يقضيها مُستيقظًا، ويُريد العودة إلى النوم.

- طب يلا فورًا.. ولما يكلِمك.. حدد معاه ميعاد وبلَّغني. وأغلق الخط.

جلس عماد على السرير، وعيناه تأبى أن تُفتح، كحلزون ذي صدفتين، يخشى التهامه، ويحتمي بصدفه.

- كان مال أهلي أنا بالقسم.. وبالظابط.. والمجنون.. ما لي أنا. قال بضيق، وشعَر بصوفي تقفز فوق السرير إلى جواره، والتصقت به، كأنها تواسيه.

فتح حسابه على الـfacebook، وفكّر ماذا يكتب، قال بخفوت:

- جملة فيها كلمة... ثم شرعت أصابعه تكمل الجملة. كتب كلمة واحدة. "مريم". فهو لا يقوى على التفكير في أي شيء آخر. ثم ترك الهاتف إلى جواره، وأكمل نومه.

* * *

٨٠

على ارتفاع ستة عشر طابق، خلف زجاج يعزل ضوضاء، وحَر، ورائحة غبار العاصمة، ولكن لا يخفي المشهد الرائع، لنهر النيل، والكباري التي تعبر فوقه، والمراكب الصغيرة، التي تسعى لرزق يسعى إليها بأمر من السماء، يجلس عُمر، مُستمتعًا بهدوء ساحر، وموسيقى لا يعلم من ألَّفها، ولكنه أحبَّه، وبمشهد رائع، تمنى أن يبقى أمامه للأبد، وأخيرًا وليس آخرًا، يستمتع بصُحبة تلك الطفلة الفاتنة، التي كان يتابع انبهارها بالمشهد، مأخوذًا بكل هذا القدر من الفرح الذي ينطلق من ملامحها، ويملأ المكان حولها، وكأن لها هالة من فرح، يَسعد كل من يسعده الحظ ويقترب منها.

نظرت إليه، وسألت:

- يعني بالذمة ينفع تبقى هنا.. وما تتفرجش على المشهد دا؟

- زهقان منه.. جيت هنا كتير. كذَب؛ فتلك كانت أول مرة له أيضًا، يزور فيها هذا المكان. ولكنه كان يُفضل النظر إليها، على النظر إلى أي شيء آخر.

- وبالذمة دي حاجة يتزهق منها؟ حرام عليك. ثم عادت لتنظُر إلى الخارج بانبهار كامل، وكأنه يتجَدد.

جاءه تنبيه، من برنامج كان هيثم قد صنعه له، بناءً على طلبه، يبلغه بأن حساب عماد على الfacebook، نشر جملة بها كلمة "مريم". ففتح الحساب، ليجد كلمة واحدة "مريم". فضحك رغمًا عنه، وهو ينظُر إلى الهاتف.

لم يلحظ أن مريم، لاحظت ضحكته، وعقدت حاجبيها، ثم أشاحت برأسها بعيدًا، ولكنه لاحظ ضيقًا نال منها، عندما استأذنها أن يقوم بالاتصال بأحدهم، ويعود فورًا.

خرج إلى ردهة المطعم، وأخرج هاتفًا صغيرًا و بطارية من جيبه، هاتف غير الذي استقبل التنبيه، ثم وضع البطارية في الهاتف، وضغط زر التشغيل، ثم قام بالاتصال بعماد:

- ألو.

- يا جدعان حرام عليكم عاوز أنام. بحدَّة، قال عماد.

- انت بتهذي يا ابني؟ مش انت اللي بعتِّلي اكلِّمك؟!

- وائل عاوزك. بغضب.

- إمتى؟!

- قال لي بالليل. كذَب.

- ماشي.. على ١٠ كدا عندك في البيت.. سلام.

عاد عُمر، بعد أن فصل بطارية الهاتف وأعاده إلى جيبه. رمقته مريم بنظرة، حاولت أن تداري خلفها ضيقًا برز كالشمس في السماء.

ابتسم وقال:

- دا عماد.. الصحفي اللي حكيت لك عنه.

رفعت كتفيها وأنزلتهما بعدم اهتمام، وقالت:

- وانا ما لي؟ بتقول لي ليه؟

تجاهل عُمر سؤالها، وأضاف:

- كنت قايل له لو عاوزني.. يكتب على حسابه جملة فيها اسمك.. المجنـ...

- اشمعنى اسمي؟!

- مريم.. وهو مسيحي.. فالموضوع مش هيبقى غريب يعني. بس الفقري عشان عاوزني.. كتب Post من كلمة واحدة.

ثم ناولها الهاتف لترى منشور عماد، الذي كان مُجرد اسمها، فضحكت رغمًا عنها، فقال عُمر:

- عرفتِ بقى أنا كنت باضحك على إيه؟!

راوغت نظرته، التي شعرت وأنها تخترقها، وكذبت قائلة:

- عادي يعني يا عُمر.. براحتك.

- ما انا عارف عارف. ثم ابتسم، ونظر صوب النيل، فأبقت نظرها عليه لثوانٍ، وابتسمت، عاد بعدها ينظُر إليها، فحاولت إخفاء ابتسامتها، ونظرت هي صوب النيل، فابتسم هو، ثم قال:

- على فكرة احنا بقالنا ييجي نُص ساعة بنتفرج على النيل.. وما طلبناش حاجة. مش هنفطر بقى؟

- يلا.

- تفطري إيه؟! وأشار إلى قائمة الطعام، أمامها.

- مش انت جيت هنا قبل كدا؟! هات لي على ذوقك.

- لا.. أنا أول مرة آجي هنا.

- انت نسيت؟!! مش لسَّا قايل لي إنك زهقان من المنظر عشان جيت هنا كتير؟

فابتسم، وقال:

- يا ريتني بانسى.. بس للأسف ما بانساش.

- أُمال؟!

فابتسم ولَم يُجِب.

* * *

٨١

استيقظ عماد على صوت دقَّات على باب شقته، وقام مترنحًا، وفتح الباب، مرتديًا فقط "شورت" قصيرًا، ليجد أسماء صديقته أمامه، يكسو ملامحها الغضب. أغلق عينيه، وفتحهما مُجددًا، وكأنه يتأكد من كفائتهما. دفعته أسماء، ودخلت إلى الشقة، ونظرت حولها بتأفف لم يلحظه هو.

أغلق الباب خلفها، وارتمى على الكنبة، وسأل بصوت مبحوح:

- معاكِ حاجة تتاكل؟

- دا انت اللي عاوز تتاكل علقة والله. ثم صرخت فيه بحدة، جعلته يجفل:

- انت فين يا زفت بقالك يومين؟ ولا بترد ولا بتتصل ولا كتبت كلمة في المقالة اللي طلبتها منك.. قُلت اسيبك يومين عشان مخضوض من زيارة الظابط.. بس كدا ما ينفعش.. يا ابني الناس دي بتخاف مننا مش احنـ..

ضيّق عينيه، وأشار لها بكفّه أن تصمُت:

- ششش.. اهدي بس.. أنا مطبَّق ونايم الصبح.. هي الساعة كام؟

كان قد لاحظ غياب الشمس عندما فتح لها الباب، قالت:

- ٨ ونُص. ممكن افهم ما لك؟!! هتفضل مرعوب كدا من واحد جالك مخبّي وشه.. يعني هو اللي خايف منك يا عماد مش العكس.

- يابنتي اتكلمي بس وطِّي صوتك.. أنا مش اطرش.. وما طلعش ظابط. معاكِ أكل؟! وأشار إلى الكيس الذي ما زالت واقفة وتحمله.

تنهَّدت بضيق، ثم قالت:

- أيوة جبت أكل عشان عارفة إنك أكيد متنيل نايم وما أكلتش. ثم وضعت الأكل أمامه، وسألت وهي ترفع شعرها الأسود متوسط الطول عن رقبتها، وتربطه أعلى رأسها، برباط مطاطي كان حول معصمها:

- ممكن افهم بقى إيه حكاية ماطلعش ظابط دي؟

فتح الكيس، وبدأ في إخراج محتوياته، ووضعها على الطاولة، فقفزت صوفي إلى جواره، عندما وصلتها رائحة الكباب، وهي تلحس لعابها.

- دي حكاية طويلة مش هاعرف احكيها لك.. بس اطَّمني.. ما تقلقيش.. طلع كويس.

- ومش هتعرف تحكيها لي ليه؟ قالت وهي تطعم صوفي قطعة من الكفتة.

- موضوع كبير.. ومش هيفيدك في حاجة.. وبعدين مش بتاعي.. وانا ما باكشفش سر حد.

- ولما هو مش بتاعك.. ما لك وما له؟!

- يوووه.. مش هتفصلي صح؟! وبدأ يأكل بنهم.

- لأ.

- أنا وسيط بس يا سمسم.. مجرد وسيط. اهبطي بقى وخلينا ناكل.

وبعد ساعة كان عماد وأسماء في الخارج، أمام شقته، يدخنان سيجارة محشوَّة سويًّا، ويستمتعان بمشاهدة مشهد كئيب، لأسطح تغطيها، أطباق استقبال القنوات الفضائية. وأمام كل منهم كوبًا من الشاي، مملوءًا نصفه. نفخت أسماء دخانًا احتفظت به لثوانٍ، داخل رئتيها، حتى يسبب أقصى متعة ممكنة لعقلها، وأقصى ضرر ممكن لصحَّتها. ثم قالت وهي تناول عماد السيجارة:

- البلد دي عمرها ما هتنضف يا عماد.. الناس دي كلها بتسهر تتفرج على قنواتهم.. وتتلقَّن تتكلم في إيه وما تتكلمش في إيه.

احنا بنفرم نفسنا في الشارع.. على أمل في التغيير.. بس كل واحد فينا لما بيقف قصاد نفسه في لحظة صدق بيكون عارف من جوَّاه إن ما فيش فايدة.

الداخلية هتفضل مجرمة.. والنظام هيفضل يتورث.. والشعب هيفضل ساكت.. واحنا هنفضل نشتغل ع الفاضي.

ثم رفعت رأسها قليلًا، بشموخ واضح، دون قصد، وأكملت:

- ودي يا صديقي.. أقصى درجات النبل والتضحية، إنك تضحي براحتك.. وسلامك النفسي.. في سبيل قضية مؤمن بيها.. وانت من جواك عارف إنك خسرانها خسرانها.

نظر عماد إليها لثوانٍ، ثم قال:

- الحشيش دا انتِ جايباه من واحد ثورجي ولا إيه؟!!

ضحكا معًا، ثم قال عماد:

- دماغك سافرت في سكة آخرتها المعتقل.. انزلي يا بنتي هنا.. مش ناقصة طيران.

- وهو في حد بقى عارف يطير...

سمعا وقع أقدام خلفهما، فدارا، ليجدا وائل أمامهما، الذي اقترب وسلَّم على أسماء، بقبضة واثقة، ونظر إلى عماد متسائلًا، فقدَّمهما:

- أسماء.. صديقة.. وائل بيه.. صديق. اتفضل يا وائل بيه.. في الصالة وانا جاي لَك حالًا. ولّا تحب تقعد هنا اجيب لك كُرسي؟

- لا لا خليك.. خدوا راحتكم.. أنا هاقعد جوّا. قال وائل جملته، ودخل إلى الشقة.

نظر عماد إلى صديقته، ليجدها تنظُر إليه نظرة قاسية، وقالت بصوت خافت، يملؤه الغضب:

- وائل بيه دا ظابط يا عماد؟! انت بقيت بتصاحب مجرمين وقتلة؟!!

- مجرمين مين بس يا بنت المجنونة؟! وضحك. ولكنها لم تُجارِه، وأبقت نظرتها الغاضبة عليه، حتى تبخَّرت ضحكته، ثم قالت:

- آه وسيط.. وطلع كويس.. ومش هاقدر اكمّل معاكِ.. ووائل بيه صديق.. كدا بانت، وصلت يا عماد بيه. قالت ثم توجَّهت صوب السلم، فأمسك يدها، فسحبتها منه بقوة، كمن مسَّهُ تيار كهربائي، فقال وهو يقطع عليها الطريق بجسده:

- هي إيه اللي وصلت؟!! ما لك يا أسماء؟!! في إيه؟!!

- في إن سعادتك بقيت مُخبر.

- مُخبر؟!

- زيارة من ظابط.. هدِّدك.. خُفت.. وفجأة بقى كويس.. وبقى صديق.. وبيزورك في البيت.

يا ترى التقرير بتاعي اتسلَّم ولا الباشا جاي يستلمه؟!!

آخر واحد كنت اتخيّل إن...

تحرّك عماد من أمامها، فاتحًا لها الطريق الذي كان قد قطعه، ورفع كفَّه أمامها مقاطعًا إيَّاها قائلًا:

- خلاص خلاص.. ما تعُكّيش أكتر من كدا.. امشي.. امشي يا أسماء ربنا يسامحك.. بس أنا مش مسامحك.

انتِ خلاص السكة اللي انتِ فيها دي كلت دماغك.. وما بقيتيش تشوفي غير الوِحش بس.

امشي بقى عشان عندي تقرير عاوز اقدِّمه للباشا.

وعاد إلى شقَّته.

* * *

٨٢

- لا هي مش قصة اللي بيتكلم بيتحبس.. والله هي مش ماشية كدا. بس فيه ناس طبعًا بتتحبس.. ماهو ما ينفعش كل حاجة تتقال. وانت كدولة لو هتسيب كل اللي عاوز يتكلم يقول اللي هو عاوزه هتبقى فوضى. قال وائل، ثم نظر حوله، في السطح، ثم إلى السماء الغارقة في ظلمتها، وبالكاد لاحظ نجمة، أو اثنتين.

- يا باشا سامحني.. الدولة اللي تخاف من مجرد كلام.. تبقى دولة ضعيفة قوي.

ابتسم وائل، ثم قال مُستخفًّا بمنطق عماد:

- اوعى تستهين بقوة الكلام يا عماد. الكلام هو أقوى سلاح اتخلق على وجه الأرض. مثلًا النبي مُحمد بتاعنا.. كانت مُعجزته القرآن، كلام. كلام بنى أمة كاملة عايشة آلاف السنين.

وعشان خاطري يا عماد بلاش الشعارات اللي بتسمعوها على سلِّم النقابة.. وبتقروها على صفحات الfacebook.. لأنها زي ما انا قُلت كدا بالظبط: شعارات.

أطاح عماد بيده في الهواء، وقال:

- انت ظابط مباحث.. طبيعي تقول كدا.

- أهي دي تاني غلطة بتغلطوها يا شباب يا ثوري يا مؤمن بالتغيير.. التصنيف؛ كل من هو داخلية.. مجرم. كل ما هو نظام.. فاسد. كل ما هو.. وهكذا.

دا كلام لا يُمكن يؤدي إلى شيء غير المزيد من الانقسام.

- مش فاهم. ما هو السيِّئة بتعُم. وناول عماد الرائد السيجارة التي كان يحشوها.

تناول وائل السيجارة، وأشعلها، ثم قال:

- افهِّمك.. تعالى نفترض جدلًا إن فيه جوًّا الداخلية ظباط بتؤمن بقضية الثورة والتغيير، وطبعًا الكائنات دي موجودة، بس باقول لك نفترض عشان ما ندخُلش في جدل عقيم عن حقيقة وجودها.

- تمام.

نفخ وائل دُخان سيجارته، ثم ناولها لعماد:

- الظابط دا شايف وزارة فيها عيوب محتاجة تتصلَّح.. والناحية التانية شايف شباب بيقول على كل من ينتمي للوزارة مجرم وفاسد وقتَّال قُتلة.. عملًا بمبدأ السيئة بتعُم.

انت لو مكانه هتختار تُقف في صف مين؟!

لَم يُجِب عماد، ولكن وجهه أجاب، بأنه فهم مقصد الرائد، الذي أكمل:

- ما فيش شك إن فيه مشاكل وعيوب وكوارث.. بس ما فيش حاجة بتتغير في يوم وليلة.. اللي يقول يا كله يبقى تمام حالًا يا مش لاعب.. دا واحد مش عاوز يلعب.. دا واحد عاوز يبوظ اللعب.

أنا لما باسمع كلام الشباب الثـ..

قاطع كلامه صوت عُمر، قادمًا من خلفهما، والمعروف لدى الجالسين بهشام، مُتشحًا بالكامل باللون الأسود، ومرتديًا قفازًا رفيعًا كعادته:

- خُد با لك يا عماد.. الباشا عاوز يجنِّدك وتبقى مُخبر.

ضحكا، ثم قال عماد:

- أنا عارف.. أنا باجاريه لحد ما يتسطل بس يا إتش.

- إتش؟! تعجَّب عُمر، ثم استدرك:

- آه إتش. ونظر إلى وائل، وقال:

- غلبان قوي عماد دا.

- يا عيني مصدَّق إنك اسمك هشام.

فابتسم عُمر، عندما أدرك وائل مقصده، دون توضيح، ونظر كلاهما إلى عماد، الذي كست ملامحه علامات خيبة الأمل:

- أنا يعني غلطان إني طيب وقلبي أبيض؟! وبعدين ما لكم بتبصّوا لي زي ما اكون أخوكم الصغير كدا ليه؟!

ضحكا مُجددًا، ثم عرض عماد السيجارة على عُمر، فرفض، وسأل:

- ها يا باشا.. طمني.

ابتسم وائل، ثم قال بفخر:

- طلع فيه قاتل بجد يا هشام.. أنا كنت صح.

* * *

٨٣

- أنا كنت متأكد.. أنا باسأل عن التفاصيل. ورفع عُمر كتفيه باستهتار.

فقال وائل، بصوت كسته خيبة الأمل، حيث كان ينتظر دهشة، وسعادة، على أقل تقدير من هشام:

- إيه اللي كان مأكد لك كدا؟!

- ما انا قُلت لك يا وائل بيه.. العلامات اللي جاية من فوق ما بتغلطش. وأشار صوب السماء.

أومأ وائل، ثم قال:

- هو مش قاتل قوي. تقدر تقول.. عقل مُدبر. مش عارف يتسمَّى إيه بصراحة.

- ما توضَّح طيب. وانت يا عمدة.. ما فيش حاجة تتشرب. قال عُمر.

- بيرة؟!

- اقعد يا عماد.. اقعد أنا آسف. فغادر الأخير، دون كلام في اتجاه شقّته، ثم نظر عُمر إلى وائل وقال:

- ها يا باشا.. وضَّح.

- بعد ما انهار الباشا واعترف.. سألته كان في حد معاك؟ قال لأ. المهم باختصار أقنعته إني اقدر اعتبره ساعدنا في التحقيقات.. لو سلِّمنا القاتل. اعترف. طلعت القصة إيه بقى؟!

فيه كذا منتدى على الإنترنت.. بتدخل عليهم تكتب بطريقة مُعينة المُهمة في شكل إعلان.. والشبح دا بيشوفهم.. وبيبعت لك بعدها يقول لك إنه قبل يساعدك.. وممكن ما يردش عليك أصلًا.

بس هو مش بينفِّذ الجريمة؛ هو بس بيخطط لك الجريمة، يعني بيقول لك ازاي تقتل الشخص دا.. وتفلت من العقاب، انت اللي تنفذ أو تجيب حد ينفِّذ، هو بس مستشار.. بيبيع لك خطة ع الورق.

باختصار: ما فيش طريقة للقبض على البني آدم دا، واضح إنه فعلًا بينتمي لجهاز أمني.. أو كان.. طريقته ما فيهاش ثغرات، دا غير إن شرط عادل كان إنه هينكر أي تفصيلة لها علاقة بالراجل دا في تحقيق رسمي.. عشان قال لي إنه هيقتله ويقتل كل اللي يعرفهم.. هو قال لي أنا بس، يعني مش هاقدر اعمل قضية رسمية عنه.. وحتى لو عملت ما فيش خيط ابدأ منه.

بس على الأقل اتأكدت إنه مش خيال.

لم يتحدث أو يُعقِّب أحدًا منهم لثوانٍ، وتركهما وائل قليلًا ليستوعبا ما قيل.

تحرك شيء ما، خلف كراكيب ملأت الجهة الخلفية من شقة عماد، حيث ظلام دامس، فأجفل الجميع، وعادت لهم الحياة من جديد، فقال عُمر:

- يا ابن الصايعة.. وهو صاحب فكرة الميزان؟!

- صحيح.. جبتها ازاي فكرة الميزان دي؟!

- مش قُلت لك عندي أذكى محلل جرائم في مصر؟! حلَّها طبعًا.. بس أخدت منه شوية وقت.. ومراجعة للمحاضر وصور مسرح الجريمة كذا مرة.

دا حتى عرف قضية سليمان الهجام اتعملت ازاي.

- حل القضية من الورق بس؟! وبعدين استنى استنى.. جاب الورق منين؟!

- ما بلاش نتكلم في الماضي يا وائل بيه.

هز وائل رأسه علامة على عدم الرضا، فسأل عُمر مُغيِّرًا الموضوع:

- طب وهنوصل للشبح دا ازاي؟!

- مش معايا غير اسم الكام موقع.. بس صدقني أنا بافكر فيها من ساعة ما سِبت عادل.. ما لهاش حل.

هو بياخد بياناتك.. ويدرس حالتك.. ولو شك فيك مش بيظهر، والفلوس طبعًا بياخدها كاش.. بس أصلًا مش هنوصل للمرحلة دي.. دا مش غبي.

وأخرج ورقةً بيضاءً من جيبه، وناولها لعُمر، الذي قال:

- هنشوف.. طب وعملت إيه في الزوج؟!

- كلِّمت وكيل النيابة طبعًا.. والمباحث.. جُم استلموه مني.

- تمام.. كدا يبقى مش فاضل غير حاجة واحدة بس. وأخرج USB Memory من جيبه، ورفعه أمام وجه وائل:

- دليل براءة سعادتك.

مَدّ وائل يده، ولكن عُمر استعادها، وقال:

- لسَّا عند وعدك.. ها؟!

- طب أفهم الأول.

- القصة باختصار: ثروت الناظر طلب ڤيروس يمسح صحيفة الحالة الجنائية لشخص ما.. عندك هنا بيانات الشخص دا، وعندك برضه ڤيديوهين.. واحد لعملية الاقتحام.. متسجل بكاميرا كانت متعلقة في شنطة اللي نفِّذ الاقتحام بتاع القسم. وأشار إلى نفسه. ثم أكمل:

- والتاني لعملية زرع الفلوس في أوضة سعادتك.. متصور بنفس الكاميرا.. ونفس الشخص، كدا يبقى فاضل ربط كل دا بثروت شخصيًّا. بُص يا سيدي؛ ثروت شخصيًّا مش بيستخدم مواقع التواصل.. وصعب نربط جهازه هو الشخصي بأي شيء.. ولكن المساعد الشخصي بتاعه.. هادي علم بيستخدم كل شيء.. صورة حلوة اتبعت له عليها ڤيروس صغير.. قِبِلها.. دخلنا جهازه الشخصي، سعادتك هتلاقي مراسلات بين هادي علم وبين الشخص اللي عمل العمليتين.. بالاتفاق والمقابل وخلافه.. وهتلاقي صور من

الڤيديوهين عنده على جهازه، طبعًا هو شخصيًّا ما يعرفش عنهم حاجة. بس هيأدوا الغرض.

تساءل وائل:

- وليه مش هالاقي الڤيديوهات؟! ليه صور بس؟!

- تحميل ڤيديو كامل على جهاز من بعيد بياخد وقت.. وممكن المستخدم يلاحظ. الصور سهلة وسريعة.. وبعدين الهدف من وجودها.. كأن المنفذ بعتها بس كإثبات إنه عمل العملية وتمت. ووجودها على جهازه بيثبت عليه التهمة تمامًا.

- طب وليه هنلبسها للغلبان دا مش المتهم الحقيقي؟!

- غلبان مين بس يا باشا.. فَشَر.. دا زبالة، هو اللي متفق معانا على كل حاجة أصلًا.

- طب وثروت؟!

- الفكرة إن هادي لما هيلبسها.. وهو عارف إن أنا اللي ملبسها له.. وهو برضه عارف إن ثروت هو السبب عشان ما رضيش يحاسبني.. هيبقى قصاده إنه يلبسها هو.. أو يسلِّمك ثروت.. وانت وشطارتك بقى يا حضرة الرائد.

لاحت علامات الضيق على وجه الرائد، فابتسم عُمر، وقال:

- قول قول.. ما لك؟!

- حاسس إني باعمل حاجة غلط.. أنا عارف إني اديت لك كلمة.. بس انت اللي نفِّذت العمليتين.

- محسسني إني بالبِّسهم لحد بريء.

- انت بتسلِّمه بس عشان نصب عليك في فلوسك.

- وانت تفرق معاك باسلِّمه ليه؟

- وانت مش شايف فرق؟! طبيعي.. ما انت...

- نصّاب؟! آه.. ما عنديش أي مُشكلة.. بس الصفقات دي بتتعقد من يوم ما الدنيا قالت يا أنظمة وأجهزة أمنية.. ولا عاوز تفهمني إن الأجهزة الأمنية مش بتعقد صفقات مع تجار مخدرات.. وقتَّالين قُتلة.. وكمان إرهابيين؟! لمنع ضرر أكبر؟!! بلاش مثالية.. ما حدش فيها نضيف.

- اتكلم عن نفسك.

ارتفع صوتهما، واشتعل الحوار.

- عمومًا احنا فيها.. اعمل زي كل الأغبياء اللي التاريخ بيرقَّص من الضحك عليهم، وقام وتوجه صوب السلم.

- أغبياء؟! وقام وائل منتفضًا، فدار عُمر وواجهه، وقال:

- طبعًا أغبياء.. اللي يكون هدفه ١ و ٢ و ٣.. و١٠. ويجيلُه من ١ لحد ٨ على طبق من دهب.. ويرفضهم عشان مش كل اللي هو عاوزه يبقى غبي.

اللي أنا باسلِّمهولك دا كنز.. سيادتك هتقبض على مجرم.. وكمان هتبقى بطل. ومش عاجبك؟! وزعلان عشان باقول لك يا غبي؟! طب مش زعلان إنك فعلًا غبي؟!

وبعدين دا كان اتفاقنا.. هتلتزم.. أهلًا وسهلًا.. مش عاجبك.. أنا هامشي.. وحظ سعيد في إثبات براءتك.

- من تهمة انت اللي ملفقها لي يا مجرم، وتوجه صوبه بسرعة.

- ما انت لو مش غبي ما كنتش عرف...

ظهر عماد في اللحظة الحاسمة، واعترض طريق وائل، ومنعه من الوصول إلى عُمر، الذي كان واقفًا هناك بلا حركة. وقال عماد:

- صلّوا ع النبي كدا يا رجالة.. أظن أول مرة تسمعوها من واحد مسيحي.

لم يضحك أحد، ولكنهم على الأقل توقفوا عن التشاحن، فقال عماد:

- يعني ادخل اعمل كوبايتين شاي.. أرجع الاقيكم ماسكين في بعض؟

- كوبايتين؟ سأل عُمر مُغيّرًا الموضوع، ونازعًا فتيل المعركة.

رفع عماد زجاجة بيرة إلى أعلى، فهزَّ عُمر رأسه، ثم نظر إلى وائل، الذي أعطى لهما ظهره، وتوجَّه صوب السور، وأسند عليه مرفقيه، وأخذ ينظُر إلى لا شيء تحديدًا، ويفرغ شحنة غضبه في الهواء.

بعد دقائق، أسند عماد مرفقيه على السور إلى جوار الضابط، وترك زجاجة

البيرة إلى جواره، وشرع يلف سيجارة، فنظر إليه الأخير، ثم نظر خلفه بحثًا عن هشام، فلم يجده. وكبرياؤه منعه أن يسأل عنه، أو عن دليل براءته. فعاد ينظر أمامه، صامتًا.

هكذا خرج هشام من حياته، كما دخلها، مُتسللًا.

وكان وداعًا صامتًا، يليق بالأعداء.

لاحظ وائل حركة من عماد، فنظر إليه، فوجده يمِد له يده بالـ USB، فلم يتحرك ليأخذها، فقال عماد:

- ما علش يا وائل بيه بس انت لسَّا من شوية كنت بتكلمني في إن التغيير مش بيتم خبط لزق.. وكل حاجة بتتعمل واحدة واحدة، سامحني هو عنده حق.. انت آه ما أخدتش كل حاجة.. بس من غيره مش هتاخد حاجة خالص.

هزّ وائل رأسه، ثم قال بخفوت، وبصوت مكسور:

- أنا مش متضايق عشان كدا يا عماد.. أنا متضايق عشان فشلت، هو اللي كسب.. تفوق عليَّ.. ودا غايظني.

- بس انت مش في مُقارنة معاه من الأساس.

- أنا مش باقارن نفسي بيه.. أنا زعلان إني أخفقت.. زعلان إني احتاجت مساعدة من حد أنا باعتبره... وقطع جملته، وصمت.

- ومين يا باشا بينجح على طول؟! مين مش بيحتاج حد من وقت للتاني يساعده؟! حتى لو كان بيعتبره...؟!!

زي ما بتقول.. يعني في شُغلكم ما عندكمش مُخبرين بيبيعوا برشام؟!! في شُغلي ما فيش ناس بتصرف على الجرنال بحملات دعاية ما لهاش لازمة غير إننا نلمَّعهم وقت ما يحتاجوا؟! دا حتى في شغل النصَّابين.. أهُه هشام جالك بنفسه وحط إيده في إيدك.

صدقني يا باشا.. في الدنيا هنا.. مش هينفع تفضل نضيف بس.. ولا وسخ بس.. ولا هتفضل ماشي مستقيم على طول الخط.

الخَط الوحيد المستقيم في الدنيا.. اللي لازق في الحيط.. عاوز تمشي مستقيم بس.. امشي جنب الحيط يا باشا، بس اللي زيِّنا اختاروا ينزلوا الساحة.. والساحة ما فيهاش سكَّة طوَّالي.. لازم تغزّل.

- إيه الكلام الكبير دا يا ابني؟!

فرفع عماد سيجارة كان يُدخنها أمام وجه وائل، علامة على أن الفضل يعود إليها.

* * *

٨٤

ومعنا لقطات حيَّة من المؤتمر الصحفي الذي عقده رجل الأعمال ثروت الناظر، بعد القبض على مساعده، ومُدير مكتبه.

"وهذا تلفيق واضح كوضوح الشمس.. وهو ليس بجديد على نظام احترف البطش بالمُعارضين.. وزرع الأدلة.. وتضليل العامة.. وتشويه سُمعة كل من يقول كلمة حق في وجهه"

أغلق عماد صوت التلفزيون، وتناول سيجارة من أسماء، التي اعتذرت له منذ أيام، على ما بدر منها في حقه، بعد أن تأكدت من انتمائه، الذي لا شَك فيه للقضية، بعد كتابته مقالة من العيار الثقيل قبل أيام، على خلفية القبض على مُساعد أحد كِبار معارضي النظام.

* *

مقال في جريدة "**الضمير**" بعنوان:

"لماذا كان يجب إقصاء ثروت الناظر الآن؟!"

بقلم: عماد المنسي.

ماذا تعتقد سيكون رد فعل أي مُشجع لنادي الزمالك، إذا علم بعدم قدرة محمد أبو تريكة على المشاركة في مباراة فريقه القادمة ضد الزمالك؟ وماذا تعتقد سيكون رده، إذا ما عرضت عليه، وسيلة تمكِّنه من منع اللاعب من المشاركة؟

تستعد كل أجهزة الدولة حاليًا، وكل قوى المُعارضة، إلى معركة، يعتقد البعض، أنها ستكون فارقة، في مستقبل كل أطرافها.

رجل الأعمال ثروت الناظر، يُمثل لقوى المعارضة، صانع الألـ...

ابتسم وائل عندما تلقى هاتفه رسالة من مَيْ، وتوقف عن قراءة المقال، وشرع في كتابة الرد، ليرسله إليها، ولكنه تراجع، وقرر الاتصال بها.

* *

- يا ندلة أنا ما بقيتش باشوفك. قالت چينا صديقة مريم، عبر الهاتف.

وضعت مريم هاتفها المحمول أمامها، وضغطت على زر تشغيل السمَّاعة الخارجية، وأكملت وضع زينتها، وهي تقول:

- مش انتِ اللي كنتِ بتشجعيني في الأول.. وقُلتِ هاطيَّر مننا المُز؟! أهُو أنا اللي طِرت يا لمضة.

- أفهم من كدا إن في حاجة؟! بذمتك لسَّا ما قالهاش؟! سألت چينا بخُبث، تستنطق مريم.

- يوه كام مرة هاقول لك أنا وعُمر صحاب بس يا چي؟ اهمدي بقى.

- انتوا الاتنين مجانين على فكرة.. بقالكم أكتر من شهر تقريبًا كل يوم بتتقابلوا.. وصحاب بس؟ يا مجانين.

- مجانين بس مبسوطين.. الحب بيقلب بكُره يا چي. سيبيني بقى عشان هاتأخر كدا.

دارت مريم، لتجد والدتها واقفة أمام باب غُرفتها، حيث لم تلحظها في المرآة. تسمَّرت الفتاة في مكانها لثانيتين.

"سمعتني"

اقتربت الأم من وحيدتها، وابتسمت، فَلان تخشُّب وجه مريم قليلًا، ولكن بقيت الدماء تأبى العودة إليه. احتضنت الأم ابنتها بقوة، وقالت:

- تبقي حمارة لو فاكرة إن أمك لحد دالوقت مش ملاحظة إن في حد في حياتك. دا انا أمك يا مريم.

تلعثمت مريم وقالت كلمات من نوع:

- ما فيش.. دا بس.. يعني أصلًا.. هافهمك بس... احنـ...

قاطعتها الأم قائلة:

- أنا واثقة في اختيارك يا مريم.. وواثقة في اللي انتِ تشوفيه في مصلحتك. يلا مش هاعطَّلك.

وغادرت الغرفة، وبعدها غادرت دموع مريم مُقلتيها، وأفسدت زينتها.

* *

- "**الجريمة للجميع**".. الرواية هيبقى اسمها كدا. قال نادر، لعُمر عبر الهاتف.

- يعني انت مش متصل تاخد رأيي بقى.. ينفع تكتب رواية عن الشبح دا ولا لا.. دا انت مختار الاسم كمان.

تجاهل نادر ملاحظة عُمر، وقال:

- كان نفسي اقعد معاه.. كان إيه؟! ما زال نفسي.

- ماعلش بقى يا دوور.. عمرك سمعت عن حد بيقعد مع شبح؟ وبعدين هو انت ناقص جنان يا ابني؟! بس اكتب اكتب.. كويس عشان تلاقي حاجة تتشغل فيها بدل القعدة دي.

- المهم نتقل ع الشغل شوية.. عشان الرواية دي هتاخد وقت.

- تفتكر هنخلَّص الفلوس اللي معانا قريب؟ هيثم أصلًا بيفكر يبطل بعد ما عرف إن نصيبه معدّي النُص أرنب.. المهم.. يلا سلام عشان خارج.

* * *

٨٥

تناول وائل كوب الشاي الذي تدلت منه تلك الورقة الصفراء التي عُلِّقت في خيط تمنى أن يتعلق في الأشد منه رقبة هذا الذي يبحث عنه، مِن عماد، ووضعه على السور أمامه، ونفخ دُخان سيجارته إلى الأعلى، فتلاشى بفعل نسمة بطيئة، بالكاد تلطف حرارة الجو.

أشعل عماد إحدى سجائره المحشوَّة، مُطلقًا سحابة من الدخان، ثقيل الرائحة، فقال وائل وهو يبتسم:

- انت بتفوق إمتى يا عماد؟

- لما تبقى فيه حاجة تستدعي.

فضحك وائل، فقال عماد مؤكدًا:

- باتكلم بجد.. أفوق ليه؟

- بُص حواليك كدا.. هو في حد فايق؟ عشان افوق له؟ وأشار صوب القاهرة.

القاهرة التي تعلَّم فيها، أن يُقهر، دون خجل، وأن يقهَر، دون شعور بالذنب.

تعلَّم فيها أن قلمه هو مصدر دخله، وليس سلاحًا، كما قرأ على صفحات الfacebook، قبل أن يُقهَر.

تعلَّم فيها أن للحقيقة وجوه عديدة، كلها تكذب.

فاختار أن يكذب الكذبة الأغلى، التي تؤمِّن له مخزونًا يكفي من المخدر، الذي يُعينه على تحمُّل مرارة قَهره.

- مسيرهم يفوقوا. أجاب وائل.

- تؤ.. ما حدش هيفوق.. ما حدش عاوز يفوق أصلًا. يعني عندك أسماء صاحبتي.. لما قُلت لها الحقيقة خوِّنتني وعاملتني على إني مُخبر.. ولما كدبت عليها في مقالتين عن المناضل ثروت.. وموضوعين على حساب "حشرة".. رجعت اعتذرت وعرفت إني منهم.

أنا عارف إنك ظابط شريف.. بس لو قُلت كدا قُصادها أبقى باطبِّل للنظام. وانا عارف إن ثروت دا ارتكب الجريمة اللي هشام لفَّقها له.. بس لو قُلت لها كدا.. أبقى مُخبر. واديني باقابلك من وراها وكأني مُخبر بجد.. وباعمل حاجة غلط.

كان قالها لي مرة كمال حجاب.. الناس بتحب اللي يكدب عليهم. وطلع عنده حق.

الناس بيحبُّوا اللي يقول لهم "أنا هاقول لكم الحقيقة" ويكرهوه لو نفِّذ كلامه.

- عندك حق يا عماد.

- إمتى بقى نشوف مصر فيها انتخابات بتخلص بنسبة ٦٠ %٤٠%؟ والناس بتحاسب الرئيس؟ والصحافة بتقول الحقيقة؟

و الن...

- يا ابني قول الحمد لله.. الشعب دا ما ينفعش يتقسم نُصّين.. هياكلوا بعض، اسألني أنا، شوف في أي مركز ولا مدينة صغيرة.. لازم تبقى في عيلة كبيرة هي اللي مسيطرة.. لو في منطقة عيلتين قوّتهم قريبة من بعض.. الحرب بينهم مش بتخلص. واللي بيدفع التمن الناس اللي مش مع حد. وآخرتها بياخدوا صف عيلة منهم.. مش لهدف غير إن الحرب تخلص.. لدرجة إنهم بيشجعوا القضاء على العيلة التانية.. وهما في الحقيقة بيشجعوا انتهاء الحرب.

تحرك شيء ما خلفهما على السطح، فالتفت عماد، ونظر وائل خلفه دون أن يلتفت، ليجدا أن صوفي هي من استيقظت، وخرجت من باب الشقة التي نسي عماد أن يغلقه خلفه، فابتسما. وقال وائل:

- افتكرتها هشام.. كان بيظهر فجأة كدا.

- تصدق وحشني فعلًا.. ما سمعتش عنه حاجة؟!

هَزّ الرائد رأسه بأسًى، فقال عماد:

- كان نفسي نبقى صحاب.

- صحاب مين بقى؟! ما هي بانت.. هو لعبها صح.. لعب عليَّ لعبة هاساعدك.. وهنعمل.. عشان يقنعني أمشِّي قصة ثروت زي ما هو رسمها. وانا كنت في وضع ما يسمحش غير بأني أوافق.. وأخد مصلحته ومشي.

اسمع منِّي يا عماد.. اللي زي دا لو سلِّم عليك يبقى عاوز منك حاجة.

ونظر أمامه إلى الفراغ، ولَم يُصرِّح بأن ضيقه من هشام، جزء كبير منه، بسبب أنه بالفعل افتقده، وأنه كان يتمنى أن يقابل هذا الشاب في ظروف غير تلك اللي قابله فيها.

* * *

٨٦

تنعكس أشعة الشمس، وتتكسر، على سطح النيل، إلى آلاف القطع اللامعة الصغيرة، ويلهو سطح النهر مُداعبًا إيَّاها، وكأنه يستمتع بدفئها، فيعكسه ليستمتع به كل متابع لجمال المشهد، وخاصة من على ارتفاع شاهق، مثل عُمر.

طائر أبيض جميل، يُحلق في الهواء، فوق النيل، وكأنه يطمئن عليه، ويتابع زحفه الهادئ صوب الشمال، تابعه عُمر بنظره، وشعر بالغيرة منه، وتمنَّى لو يستطيع رؤية هذا الجمال، بعيون هذا الطائر، في تلك اللحظة بالتحديد.

كان المشهد جميلًا وساحرًا إلى أقصى درجة، لا ينقصه سوى وجود مريم معه.

ابتسم عندما شعر أنه يفتقدها، لم يعتَد على مثل هذا الشعور بالافتقاد.

ذاكرته مكَّنته من استرجاع كل ذكرى عاشها، وقتما يشاء.

كان دائمًا يفتقد النسيان، ولكنه أصبح، كعادته، يتذكرها طول الوقت، ويرغب في المزيد، حتى يرغب في تكرار المواقف التي عاشها معها، كما هي، دون ملل.

غَيَّرَته هي، ولكن ليس كما يفعل الزَمَن؛ ببُطء. بَل تغَيَّر في الثانية التي وَقعت عليها عيناه.

هو فقط لَم يعترف لنفسه بهذا وقتها، وما زال يتجاهله.

جاءت، شعر باقترابها، فالتفت في اتجاه الباب، ليجدها على بُعد خطوات منه، ابتسمت، وقالت:

- كنت عاوزة أخُضك.. عرفت منين اني جيت؟

- شُفت انعكاسك في القزاز. كذَب.

كانا قد اتفاقًا، ضمنيًّا، أول مرة تحدثا، على أن يبقيا أصدقاءً، لأن كل منهما لا يرغب بالمرور بتجربة الفقد مرة أخرى، وكان كل منهما يحترم هذا القرار جدًّا. ولا يسمح لنفسه بأن يتخطاه، برغم رغبته، فكان عُمر يتجنب أي كلام قد يبدو وأنه يحمل في طيَّاته، أي مشاعر تجاهها، وإن وجدت، وكانت هي تفعل مثله.

- وشَّك منوَّر كدا ومبسوط.. ما لك؟ وابتسمت وهي تجلس.

- انتِ قُلتِ أهُه.. مبسوط.

- عشان؟

- ما فيش حاجة تضايق. وابتسم، ثم سأل:

- مممم انتِ مش حاطَّة أي Makeup.. اشمعنى؟!

- إيه؟ مش حلوة؟

- انتِ كدا أحلى أصلًا.. وما اعتقدش انتِ ينفع تكوني مش حلوة.. حتى لو حاولتِ.. أنا بس باسأل عن سبب التغيير.

تنهَّدت وحكت له ما حدث قبل نزولها من المنزل، عندما سمعتها والدتها، وأدركت أنها لن تخرُج للقاء چينا، وأنها كانت تكذب عليها. فصمت لدقيقة، ثم قال:

- طب ما تحكي لها.. وآجي اقابلها كمان عشان ما تقلقش عليكِ.

- يا عُمر هتقول إن فيه بينْنَا حاجة.. ومش هاقدر ألومها. ما انت فاهم الناس بتفكر ازاي.

- عارف.. بس ممكن تفهم وترتاح وترتاحي.. مش عاوزك متضايقة.

نظرت صوب النيل لثوانٍ، وقالت وكأنها تحدث انعكاسها على الزجاج:

- وانا مش عاوزة اتضايق.. ولا عاوزة ازعَّلها.. ومش عاوزة اخسرك.. ومش عاوزة احس تاني إني ضعيفة.

- وليه بتقولي ضعيفة؟ إيه اللي خلاكِ تحسِّي إنك ضعيفة يا M؟ هكذا اعتاد أن يناديها. "إِم"

كست وجهها حمرة الخجل، ولم تُجِب، ففهم مقصدها، وأجاب بعد تفكير، حتى لا يتخطى الخط الأحمر، الذي وضعاه، دون اتفقاق، بينهما، خوفًا على علاقتهما:

- يا M ما فيش ضعف ولا حاجة.. خلِّيكِ واثقة في نفسك.. انتِ مش بتعملي حاجة غلط عشان تبرريها.. بس ماما من حقها تطمّن عليكِ. دا عادي، وانتِ لو حكيتِ لها كل حاجة هتثق فيكِ.

تعكَّرت ملامحها، وقالت:

- هي قالت لي كدا من غير حتى ما احكي لها.. عينيها بتقول إنها مقتنعة إننا بنحب بعض.. ما حدش هيفهم اللي بينْنَا يا عُمر، الناس دايمًا بتحكم غلط، ليه لازم نحب ونتجرح ونخسر الناس القريبين مننا؟ ليه لازم نضعف ونتكسر؟

- انتِ ليه دايمًا بتربطي الحب بالضعف والكسرة.. الحب ضعف بس مش بيكسر.. الحب هو الضعف الوحيد اللي بيقوِّي.

الحُب اكتمال يا M؛ الحب بيكون نقطة الضعف وسبب القوة في نفس الوقت، لو ما بقاش نقطة ضعفنا يبقى احنا مش بنحب كفاية.. ولو مش سبب قوتنا يبقى مش بنتحب كفاية.

ثم أشار إلى النادل، الذي لمحه قادمًا صوبهما، كي يعود أدراجه، وينتظر لدقائق حتى يستدعيه، حتى لا يقطع حديثه، وأكمل:

- عارفة أنا دايمًا باتصور الحُب ازاي؟!

كانت عيناها تلمع، مثل لمعان انعكاس آلاف الشموس على صفحة النيل، وهي تنصتُ له، فهي لم ترَ فيه هذا الجانب من قبل، كان دائمًا الشاب الخطير، الشقيّ، المستهتر. ولكنه الآن يكشف عن وجه آخر، هادئ، وساحر، وفيلسوف.

"ترى هل كان هناك هذا الشاب مُختبئًا ينتظر من يستدعيه؟! أم أنا من زرعته بداخله، وها هو يتفتح أمامي، كوردة ترى الشمس لأول مرة؟!"

أكمل:

- زي لما يكون فيه مكعبات متركِّبة بشكل حلو.. وبعدين ييجي حد يفُكَّها.. ويعيد تركيبها تاني فتبقى في مُنتهى الجمال، دا اللي بيحصل لما حد بيحبِّنا بجد.

بنكون نفسنا برضه.. بس بترتيب مختلف، وبنشوف نفسنا بعيون اللي بيحبنا.. فنبقى أحلى كتير.

اتسعت ابتسامتها، مما لفت نظره إلى أنه بدأ يتخطى الخط الأحمر، فصمت، ولكنه لم يستطع منع الابتسامة، حاول، حتى لا يُتهم بأنه يقصد ما قصده بالفعل، ولم يستطع، وكأن روحه تعكس ابتسامتها.

هل تستطيع المرآة الامتناع عن عكس صورة من تراه؟!

"كيف يمكنني رؤية كل هذا السحر ولا أبتسم؟"

غيَّرت هي الموضوع، حتى لا يتوها في اللحظة، وينسيا نفسيهما:

- شايفة كدا ما فيش شغل بقالك فترة.

أشار للنادل، بأن يأتي، وأجابها:

- أجازة.. بنستمتع شوية وهنرجع.

انتظر حتى طلبت ما أرادت، ثم أشار للنادل، بأصبعين قائلًا:

- اتنين.

- أنا عاوزاك تبطل الشغل دا يا عُمر.

نظر إليها بصمت، ثم تنهَّد، وفتح فمه ليتعترض، ولكنها استدركت:

- بُص يا عُمر.. أنا مش باقول لك بطَّل.. أنا باقول لك أنا عاوزة كدا. وصدَّقني مش هتضايق لو رفضت. ومش باربط صداقتنا بتنفيذك لكلامي.

فيه فرق لما اقول لك بطَّل عشان احبَّك.. وبين لما اقول لك بطَّل عشان باحبك.

في الأولى أنا باربط حُبي بتصرَّفك.. والحب ما ينفعش يكون مشروط.. وفي التانية بيبقى رغبة في إنك تكون أحسن مش أكتر، عشان باحبك.

ثم استدركت، وقالت بخجل:

- باحبك كصاحب يعني.

* * *

٨٧

عاد وائل إلى منزله، بعد يوم طويل، قضاه في التنقل بين المحلات، مع خطيبته، لتسأل عن، وتجرِّب، المئات من قطع الملابس، حتى تشتري في النهاية، قطعة أو اثنان.

"كيف كان آباؤنا يخوضون تلك التجربة، في شوارع وسط البلد، صيفًا، قبل ظهور المولات المُكيَّفة؟!"

دخل غُرفة نومه، وخلع قميصه بأسرع وقت ممكن، وشرع في خلع باقي ملابسه، ولكنه تسمَّر فجأة، عندما لاحظ وجود ورقة مطوية، على وسادته.

نظر خلفه صوب باب غرفته، هل هي أمه من وضعتها؟ ولكنها قابلها في طريقه إلى الغُرفة، ولم تذكر له شيئًا، ربما كتبت له شيئًا، خشيت أن تنساه، ثم نسيته بالفعل.

مدّ يده والتقط الورقة، وفضَّها، وقرأ بصوت خافت:

"الساعة ١٠ في المكان دا..."

دار ببصره في الغرفة لثانيتين، ثم ابتسم رغمًا عنه.

* * *

٨٨

وصل وائل إلى حيث وجَّهته الورقة، قبل موعده بدقيقتين، مُجرد تقاطع مُزدحم، في منطقة مصر الجديدة، يستحيل إيجاد مكان فيه للانتظار بالسيارة.

صف السيارة، كصف ثالث، سامحًا للسيارات خلفه بالمرور، ولكنه قبل أن يبدأ البحث عن صاحب الموعد، وقفت إلى جواره درّاجة بُخارية، ورفع سائقها، عُمر، زجاج خوذته، ومال نحو وائل، وقال:

- قدامك ٤ دقايق تلاقي مكان تركن.. وتعالى هنا مستنيك. ثم تحرك وأوقف درَّاجته بين سيَّاراتين، وأبطلها، ونزل مِن عليها، ودار على عقبيه ونظر صوب وائل، الذي ابتسم له، وهز رأسه مُحيِّيًا إيَّاه، فرَد التحيَّة بمثلها.

بعد دقائق أقبل وائل على عُمر، حيث كان، وسأل:

- مش هتبطَّل شغل السيما دا؟ ما تتصل بيَّ زي باقي الخلق ما بتعمل.

- وانا برضه زي باقي الخلق يا وائل بيه؟

- مش هتقول لي اسمك إيه بقى؟! وجايبني هنا ليه؟!

- هشام طبعًا. وضحكا، وهزَّ وائل رأسه في غير اقتناع، ثم نظر عُمر إلى ساعته، وقال:

- دقيقة ولا اتنين كمان وهتعرف.

توجَّس وائل، ونظر حوله في قلق، وسأل:

- هاعرف إيه؟!

نظر عُمر صوب الطريق خلفه، ثم عاد ينظر إلى وائل وقال:

- من غير ما يبان عليك حاجة بس.. شايف الراجل المليان شوية.. أبو شعر أبيض خفيف دا؟!

حرَّك وائل عينيه صوب الرصيف، ولمح الشخص المقصود، وقال دون أن يرفع عنه عينيه، وسأل:

- ما له؟!

- أقدِّم لك يا وائل بيه. ثم صمت لثانيتين، حتى نال الفضول من وائل، وبلغت الإثارة أقصاها، وظهرت على عينيه، التي صرخت تستنطق عُمر، وهز الرائد رأسه وكأنه يسأل: "هو؟!"

فأومأ عُمر برأسه، وقال:

- الشبح.

* * *

٨٩

نظر وائل إلى الرجل؛ مجرد رجل كبير السن، ممتلئ الجسد، حليق الوجه، ذي شعر أبيض خفيف مُسرَّحًا بعناية إلى الخلف، ويرتدي قميصًا فاتح اللون، وبنطالًا مصنوعًا من الكتان.

يسير ببطء، ولا ينظر إلى أحد، وكأنه وحده في الدنيا.

سأل الرائد:

- أنا مش فاهم.. ازاي؟!

- ليَّ صديق هاكر عبقري.. نفس الشخص اللي لبِّس ثروت الصور.. عمل بحث دقيق على كل المواقع اللي اديتها لي.. ورفعنا طلب على موقع منهم بإعلان عشان نستدرجه.. باختصار؛ هو عمل حصر لكل الأجهزة اللي فتحت الإعلان.. وقارنها بكل الأجهزة اللي فتحت كل المواقع الستة.. طلعوا فوق المية بشوية.. بدأ يبحث الـ١٠٠ جهاز.. اللي يطلع بتاع طفل.. من الصفحات اللي بيفتحها.. واللي يطلع بتاع ست.. المهم فضل كدا لمدة أسبوعين متواصلين لحد ما وصل إنه بقى واثق إنه جهاز من ٣.. واحد فيهم طلع فيه انترنت كافيه.. راقبته يومين.. وقارن الحركة على المواقع بالكافيه لحد ما تأكدت إن هو دا.

تابع وائل بنظره الرجل يدخل إلى باب عمارة عتيقة، فسأل:

- وساكن هنا؟!

- لا.. ما اعرفش عنه أي معلومة.. ولا حتى اسمه. هو عنده مكتب هنا، أو شقة.. ما اعرفش، بس هو مأجر هنا في الدور التاني، من غير عقد.. لأن صاحب عقد الإيجار الأصلي ميت.. وصاحب العمارة مأجر كذا شقة غير قانوني.

- طب وانت يعنـ...

- عيب عليك يا وائل بيه.. أنا متأكد.

- طب والمفروض اعمل إيه دالوقت أنا؟! دا ما فيش أي شيء معاك نقدر نستغله ونقبض عليه بيه.

- لا دي بتاعتك انت بقى.. أنا اللي عليَّ عملته.

- أنا هاطلع له.

اعتدل عُمر، وقال وهو يضع خوذته فوق رأسه:

- أي أوامر مني سعادتك؟! أظن أنا كدا ردِّيت لك الواجب وزيادة.

أمسك وائل خوذة عُمر، وقال بحزم:

- استنى هنا رايح فين؟! انت طالع معايا.

- لا يا باشا.. انسى. مش هيحصل.

* * *

٩٠

فتح الرجل العجوز باب شقته، والاستغراب يكسو ملامحه، ونظر إلى الشابين الَّذَين يقفان أمام عتبة بابه بتساؤل واضح، فقال وائل:

- مساء الخير يا أستاذ.. ممكن ناخد من وقتك دقيقة؟

- بخصوص؟! قال بصوت هادئ، ومشروخ، وعميق.

- بخصوص شغل حضرتك.

- اللي هوَّ؟! بتوجُّس.

ابتسم وائل، ومال قليلًا فظهر للرجل سلاحه الميري، مُعلقًا في حزامه، وقال:

- هنفضل واقفين ع السلم كدا؟!

نقل الرجل بصره بين السلاح، وحامله، وعُمر، ثم تحرك جانبًا، وقال:

- اتفضل يا افندم.. أنا بس من حقي أفهم.

دخل الشابان، ودارا ببصرهما في الصالة الواسعة، بسقفها العالي، وأثاثها القديم، وشعرا وكأنها داخل موقع تصوير لمسلسل قديم، قال وائل وهو يجلس ويضع قدمًا على الأخرى باستفزاز:

- معقول سعادتك مش فاهم؟

لم يُجِب الرجل، ولم يتحرك من أمام باب الشقة، ولكنه أغلقه، فقال وائل:

- عندنا فزُّورة.. والعصفورة قالت لي إن انت ذكي كفاية إنك تحِلَّها.

لا رد. فأكمل:

- كنت بتشوف ألغاز المفتش كرومبو؟ أهي حاجة زي كدا. ست لوحدها في البيت.. ما حدش دخل ولا خرج عليها من الصبح.. لقيناها مضروبة بالنار في راسها رصاصة قاتلة، سهلة طبعًا؛ انتحرت.. صح؟!

لا رد، ولا ردة فعل من أي نوع.

"هذا الرجل وكأنه خُلِق من فولاذ" فكَّر عُمر.

أكمل الرائد:

- لا هي ما انتحرتش.. ماتت مقتولة.. الفزورة بقى: حصلت ازاي؟!

هنا فقط تحرَّك الرجل، وتوجه صوب الكرسي المواجه لوائل، وجلس مُثبِّتًا نظره على الرائد، وقال:

- ريموت كنترول صغير بيشتغل بالبلوتوث مش الأشعة.. عشان ما يكونش مهم توجيهه ناحية عدسة.. يتثبِّت في الميزان.. تطلع المدام وتُقف مفرودة عشان الميزان يقرا صح.. يتحرك موتور صغير يشد الزناد.. الموجه مسبقًا على مكان راسها بالظبط حسب طولها.

بُهِت الرائد، ومعه عُمر، ولم يستطع أي منهم الحديث لدقيقة كاملة، وعينا العجوز مُثبَّتة على وائل، بتحدٍ لَم يختبره الرائد من قبل.

بعد دقيقتين على الأقل من الصمت، والذي ملأه صوت زحمة السيارات في الأسفل، قال العجوز:

- أنا كدا كسبت.. صح؟!

قال الرائد:

- انت فاهم انت بتقول إيه؟!

- احنا بنلعب.. دا اللي أنا فاهمه. وانا كسبت. دالوقت أنا اللي عليَّ الدور اسأل.

لا رد. فأكمل الرجل:

- جبتني ازاي؟!

هنا تحدث عُمر:

- من غير دخول في تفاصيل؛ الموضوع احتاج هاكر عبقري.. وإعلان فخ عشان تفتحه بس وما ترُدش عليه.. وواحد فاضي يراقب كذا مشتبه فيهم.. وييجي ٣ أسابيع.

هَزَّ الرجل رأسه مُتفهما، ثم نظر صوب الرائد، وقال:

- أي خدمات تانية يا حضرة الظابط؟!

لا رد من وائل، الذي ما زال مأخوذًا بما تحقق له أخيرًا، ولا يعلم كيف يتصرف، فهو لم يستعد لهذا اللقاء.

نظر عُمر إلى رفيقه، يستحثُّه صامتًا على أخذ زمام المبادرة، بعد إعلان الرجل غير المباشر عن نفسه، حتى قال الرجل:

- سيادتك جاي من غير قوة.. ولا إذن نيابة.. ومعاك واحد صاحبك، ثم أشار إلى عُمر، وقال:

- دا مش منظر ظابط. يبقى مش معاك دليل واحد على أي شيء.

السؤال بقى؛ عاوز إيه؟!

- عاوز رقبتك على حبل المشنقة.

"تحدَّث أخيرًا"

- ليه بس؟! أنا عملت إيه عشان كل دا؟

- انت لسَّا مُعترف.

- ما حصلش.. انت اتهيأ لك بس إني اعترفت، واحتدت نظرة التحدي في عينيه.

- ليه؟! سأل وائل.

ابتسم الرجل لأول مرة، وقال:

- هنكمِّل لعب؟! سؤال بسؤال؟! ماشي، أقول لك ليه؛ أكل عيشي.

أنا زيي زي أي مُحامي سعادتك بتنده له باسمه وقبله أستاذ لما بييجي لك مكتبك، برغم إنك عارف إنه بيتلاعب بالأدلة.. وبيرشي الأمين عشان يبدِّل الحرز.. ويخرَّج المجرم براءة. أنا بقى باضمن براءة المجرم قبل الجريمة مش بعدها.. فرقت؟!

طب انت عارف إن المحامي دا بيخالف القانون.. وانا لأ؟! ما تستغربش.. دي حقيقة، أنا مش باعمل حاجة في الحقيقة.. أنا مُجرد مُستشار.. القانون بتاعكم ما عندوش عقوبة للي زيي.

- شيطان يعني.. بتغوي البشر.. وتقول هما اللي بيغلطوا مش أنا، قال عُمر.

- وهو الشيطان يبقى غلط لما يقول كدا؟! البشر هما اللي بيعصوا.. مش هو اللي بيعصِّيهم.

- وعشان كدا هيدخل النار. زي مانت هتـ... قال وائل.

قاطعه الرجل:

- لا.. الشيطان هيدخل النار عشان خالف أمر خالقه.. مش عشان بيغوي البشر، والدليل في شكل سؤال؛ لو ما كانش ركع.. وما أغواش البشر.. كان هيدخل الجنة؟!

- انت بتحرَّض على القتل.

- غير صحيح.. أنا الشخص بييجي لي مقرر جاهز.. نفسه هي اللي وسوست له.. عشان هو بني آدم.. قاتل بطبعه وغريزته، أنا بس مستشار متخصص في فتح ثغرة قانونية يعدِّي منها.

- انت مريض.

- لا. أنا ما هو أسوأ.. أنا بشر.

"ليتك هنا يا نادر" فكَّر عُمر.

- انت بتكره البشر قوي كدا ليه؟

- البشر والقانون.. أعدائي، وكسا الاشمئزاز ملامحه.

- أقول لك أنا فزّورة بقى يا حضرة الظابط؛ لما زوج يرفض يطلق مراته ويغتصبها يوميًّا.. ويستغل نفوذه عشان يخوِّف أهلها.. ويجبرها على الانتحار.. مش يبقى قاتل؟ لما يطلَّع عليها إشاعة بعد موتها ويدنس ذكراها.. مش يبقى قاتل؟ لما أهلها نفسهم يصدقوا لمجرد إنه قوي وصاحب نفوذ..

مش يبقوا قتلة؟ لما الناس تتناقل سيرتها اللي هو شوِّهها بينهم ويثبِّتوها.. مش يبقوا قتلة؟

أهُم كل دول بقى؛ القانون اللي سيادتك بتخدمه.. مش بيجرَّم منهم ولا واحد، زي ما هو مش بيجرَّمني كدا.

قانون أعرج.. وضعه بشر.. عشان يفلت من العقاب كل اللي ذكي كفاية إنه يفهمه.

سؤالي لسيادتك؛ انت بتخدم القانون؟ ولا العدالة؟

- انت عِشت قصِّة حُب فاشلة.. وبتطلعها على كل الناس؟! بتحمِّل البشر كلها نتيجة فشلك في حماية اللي بتحبها؟!

لاحت علامات الغضب على ملامح الرجل لأول مرة، ولكنه تمالك نفسه، وقال:

- ما جاوبتش على سؤالي.. وبلاش سذاجة وتقول القانون والعدالة واحد.. لأنك عارف إن دا مش حقيقي.

- لو بتخدم القانون.. أنا قانونًا ما ارتكبتش ولا جريمة.. ومافيش دليل واحد على وجودي من الأساس.

لو بتخدم العدالة.. يبقى تستقيل فورًا.. لأنك في الوظيفة الغلط، لأن ما فيش حاجة اسمها عدالة في عالم يحكمه البشر.

العدالة دي زي الديمُقراطية والإنسانية كدا.. مجرمين بيضحكوا بيهم على مُغفلين. العدالة والإنسانية والديمُقراطية والمساواة والعدل الاجتماعي كلها

شعارات.. آلات جبَّارة اتعملت عشان تخدم الأشرار.. وزيت التشحيم بتاعها هو دم البشر.

ابتسم عُمر، فنظر له وائل شذرًا، ثم نظر إلى الرجل، وقال:

- وانت بقى اللي بتحقق العدالة في الدنيا.

- واضح إنك ما بتسمعش.. أنا بشر.. ما ليش في العدل دا.. ما اعرفوش.. أنا كل اللي باعمله إني باساعد البشر يظهروا على حقيقتهم.. وباكشف ثغرات القانون.. بفضح أعدائي يعني.

- ومستفيد إيه؟!

- باشوف الناس بتتعذِّب.. أعدائي.

- بتعذبهم بقتلهم؟!

- لا اللي اتقتل مش بيتعذِّب.. اللي بيتعذِّب فعلًا اللي ارتكب الجريمة.. وأهل المقتول. ثم أشار إلى الأعلى بسبَّابته، وكأنه تذكر شيئًا لتوِّه، وقال:

- في جملة تقريبًا سمعتها في فيلم.. بتقول: أنا لم أخدع أحدًا في حياتي أو أسرق... وتوقف ليتذكر، فقال عُمر:

- أنا لم أخدع أحدًا في حياتي.. ولم أكذب ولم أسرق أو أقتل.. فلماذا حياتي سيِّئة إلى هذا الحد؟ - لقد أجبت بنفسك عن سؤالك.

دا الكاتب ليونيد خلينوفسكي.

- ممم مُثقف صاحبك يا حضرة الظابط.

- مش فكرة ثقافة.. أنا بس ذاكرتي قوية شوية.

- وما لك بتقولها كدا كأنها لعنة؟!

- لأن هي كدا بالفعل.. ممكن بقى أعرف أهل المقتول ذنبهم إيه؟! قال عُمر مُشمئزًّا.

- في اللحظة اللي هتفهم البشر على حقيقتهم.. هتدرك إن كُلهم مُذنبين.. حتى اللي ما ارتكبش جريمة.. دي طبيعته.. هتظهر عاجلًا أم آجلًا.. زي قصة العقرب والضفدع كدا، ما فيش بشر أبرياء.. لازم وسطهم تكدب وتسرق وتقتل.. زي ما الكاتب دا قال، وأشار إلى عُمر.

- لو ما فيش أبرياء ما كانش ربنا خلق الجنة.

زفر الرجل زفرة استهزاء وقال:

- ربنا بتاعك نفسه مش بريء.

لَم يُجِب وائل، ولكن غضبه بدا واضحًا، فأكمل الرجل:

- أثبت لك؟! مش في الشرع اللي بيعمل فعل.. أو بدعة.. بيتحاسب عليها هو وبيفضل يتحاسب على كل من اتبعوه؟! حتى لو هو نفسه تاب عنها؟! طب ما احنا لو طبَّقنا نفس القاعدة على ربنا هنحاسبه على خلقه للشر، وكل أفعال الأشرار.

هنا قال عُمر:

- انت بتهذي حرفيًا.. أولًا ما ينفعش نطبق قاعدة بشرية على الخالق.. ولكن نفترض جدلًا إنه ينفع.. بما إنك بتحسبها بالمنطق.. اللي بيبدع بدعة

بيتحاسب لأنه ضلل الناس وفهمهم إن دا الصح.. مع إنه غلط.. وأدَّى بهم لطريق الضلال، ولكن ربنا لما خلق الخير والشر.. قال للناس الصح فين والغلط فين، انت اللي بتختار تروح يمين ولا شمال.

- ولما هو قادر يمنع الغلط.. ساكت ليه؟

- عشان هيحاسبك.. هيجازيك خير لو انت اخترته.. وشر لو انت اخترته.

نظرتك؛ زي نظرة كتير من الأغبياء اللي بيبصوا على الصورة بعين واحدة. وفاكرين إن اللي اتظلم في الدنيا ومات وما أخدش حقه.. إن حقه ضاع. لكن اللي خلقنا عادل.. وكل اللي ما أخدش حقه في الأرض بسبب ظلم البشر.. هياخد حقه فوق.. لدرجة إن اللي أخد حقه في الأرض هيقول يا ريتني اتظلمت.

دا أنا عندي يقين بيه؛ دي حاجة اللي زيّك ما يعرفهاش.. اسمها الإيمان بالله.

نظر وائل إلى عُمر بإعجاب، وقال العجوز:

- طب بما إن القاعدة قلبت على حصة دين.. اتفضلوا يا بهوات شرَّفتونا.

طول ما انت مش مقتنع إن البشر مجرمين.. مش هاقدر اقنعك إن خلقهم كان غلط. ومافيش مجنون بيشوف نفسه مجنون الحقيقة.

- بالظبط كدا.. لما بتتزنق بتمشي، قال عُمر.

لَم يجِب الرجل، فقال وائل:

- انت فاكر إني هاسيبك؟!

- لا طبعًا.. أنا واثق في غبائك. ماعلش يا حضرة الظابط.. بس انت فعلًا مضطر تسيبني.. لأنك لو قبضت عليَّ هتبقى بتضيَّع وقت. لأن ما فيش أي دليل على وجود التهمة اللي انت بتتهمني بيها.. ولا أي دليل ضدي. وحتى لو الزوج اللي انت مسكته اعترف.. هو ما يعرفش أنا مين. ودا دليل تاني على إن القانون اللي انت بتخدمه أعرج.

انت في بلد شعبها بيؤمن إن العيلة اللي ما فيهاش صايع حقها ضايع، وعاوز تطبق القانون؟! يا راجل كَبَّر مُخك.

لَم يُمهِل الرجل أيًّا منهم وقتًا ليُجيب، فقام، وقال:

- بس أنا عشان واثق إنك مش هتسيبني.. وهتضيَّع وقتك ووقتي.. هاعرض عليك عرض لا يمكن ترفضه.

ضيَّق الرائد عينيه، وسأل صامتًا عن العرض، فقال الرجل:

- مقابل كلمة منك إنك ما شُفتنيش.. أنا هاديلك وحالًا.. ملَف فيه كل الجرايم اللي خططت لها.. وكل بياناتها.. وبيانات مُرتكبيها الحقيقين.

- بالبساطة دي؟!

ضحك عُمر ضحكة خافتة، وهز رأسه، فنظر وائل صوبه، ثم نظر إلى العجوز الذي قال:

- هاسيب صاحبك اللي يجاوبك.. ومستني كلمتك.

نظر وائل إلى عُمر، الذي قال:

- انت لسَّا ما فهمتش؟ هو مش فارقة معاه الناس اللي خطط لهم.. كلهم بالنسبة له يستحقُّوا القتل.. بالظبط زي الشيطان اللي هيتبرأ من أتباعه.

نظر وائل إلى الرجل، فأومأ مؤكدًا على كلام عُمر، وقال ساخرًا:

- أنا برضه يهمّنِي العدل بتاعكم يتحقق، ها يا حضرة الظابط.. قُلت إيه؟!

لم يُفكر وائل، وقال:

- موافق..

بس أنا اضمن منين إنك هتسلِّمهم كلهم؟!

- لو سمعت أي حاجة من اللي قُلناها النهاردا ما تسألش السؤال دا. قال الرجل وقام مُتوجِّها صوب غرفة مكتب، فقام وائل يتبعه، فهو لا يريد للرجل أن يغيب عن نظره، نظر الرجل إليه، ثم أكمل طريقه ولم يُعقِّب.

دخل غرفة المكتب، وتوجه إلى خزانة حديدية وفتحها، وأخرج منها رزمة أوراق ثقيلة، ناولها إلى وائل. الذي سأل:

- هما كام جريمة؟!

- ٤٧.. أنا كنت ناوي ابطَّل عند الـ٥٠.. وابدأ اشوف طريقة أنشر بيها قصِّتي.

وأخرج ظرفًا من الخزينة، مكتوبًا عليه: "**مُذكرات**"، ورفعه أمام وجهيهما، وأكمل:

- بس طالما انت لقيتني النهاردا.. يبقى جه وقتها.

قال عُمر، وهو ينظُر إلى الظرف:

- أعرف روائي ممكن يدفع نُص عمره ويقرا مُذكراتك دي، دا حتى اختار اسم الرواية اللي هيكتبها عنك. "**الجريمة للجميع**".

مَدَّ الرجل يده بها إلى عُمر، وقال:

- عجبني الاسم.. بس أمانة عليك توصَّلها له.

ثم نظر خلفه، وقال:

- وخُد دي كمان.. وأشار إلى آلة كاتبة عتيقة.. دي اللي كتبت عليها كل حرف في كل ورقة بين إيديكم.

كان وائل يقلب الأوراق بحثًا عن قضية بعينها، حتى وجدها؛ قضية سليمان الهجَّام.

نظر إلى الملف الذي يحمل اسم "**عملية تلفيق الهجّام**"، وتجمَّعت الدموع في مُقلتيه، وكأنه يلتقي صديقًا قديمًا عائدًا من الغربة. ولكنه أجفل عندما سمع صوت عُمر يقول مذعورًا:

- إيه دا؟! احنا ما اتفقناش على كدا.

فدار مواجهًا الرجل، ليجده حاملًا مسدسًا، ومصوّبًا إيّاه صوبهما، فمَد يده تلقائيًّا صوب سلاحه، فحذَّره الرجل:

- بلاش تعمل حاجة تندم عليها.. انت اديتني كلمة.. وانا مش طالب منك غير إنك تنفِّذها، دا مُجرد ضمان إنك هتلتزم بكلامك.. خدوا كل حاجة واتفضلوا يلا.

* * *

٩١

انتهى عُمر من تثبيت الآلة الكاتبة، على درّاجته البخارية، ثم بدأ في البحث بين ملفَّات الجرائم، التي وضعها وائل على إحدى السيارات الواقفة.

- ممكن بس اعرف انت بتدوَّر على إيه؟!

أجاب عُمر وهو لا يزال يبحث:

- في قضية أنا شاكك إن الشيطان دا له يد فيها.. وهي كانت السبب اللي خلّاني أساعدك من الأساس نوصل له.

هزَّ وائل رأسه، ولم يُعقِّب، حتى انتهى عُمر من البحث، ثم نظر إلى وائل وابتسم وهزَّ رأسه:

- إيه؟! لقيتها؟

ضحك عُمر، وقال:

- لا.

- وإيه اللي بيضحك؟!

- إن لولا كلام معين سمعته عن القضية دي.. اللي طلع كله مُجرد صدفة.. ما كنتش فكرت أساعدك.. ولا اتعرف عليك.. ولا كنا هنوصل للشيطان دا. مش قُلت لك يا باشا؟ علامة، وأشار إلى السماء.

أومأ وائل وقال:

- ونعِم بالله.

شبك عُمر ذراعيه أمام صدره، وأسند ظهره إلى السيارة، وقال لوائل:

- بس أنا استغربت بصراحة لما وافقت على طول تاخد القضايا وتسيبه.

انت طبعًا عارف إنه بعد ساعة بالكتير مش هيكون له وجود.. هيختفي. صح؟!

- عارف طبعًا.. أنا مش غبي، بس أنا فيه واحد مرة قال لي.. لما تكون عاوز من ١ لـ ١٠ ويتعرض عليك من ١ لـ٨ ما ترفُضش. وانا بصراحة اقتنعت بكلامه.

دا غير إن الشيطان دا هيُقع هيُقع.. أنا بس ضمنت انتصار. زي ما الراجل قال لي مرة.

فابتسم عُمر، وقال:

- كلامه زي الفل بصراحة.

- فعلًا.. أثَّر فيَّ واتعلمت منه.

- وانت كمان أثَّرت فيه واتعلِّم منك.

تبادلا نظرة عرفان، وشكر، كالأصدقاء. ثم قال وائل:

- ما ينفعش تسيب صاحبك دا ينشر سيرة الشيطان دا ويعمل منه بطل.

- لا بطل إيه؟! ما تقلقش يا باشا.. هيطلع شيطان كما يستحق.

صمتا لثانيتين، ثم انتصب عُمر، وقال:

- أسيبك أنا بقى يا وائل بيه، ومد يده إلى الضابط، وأكمل:

- خُد بالك من نفسك.

- مش هارجع تاني مرة البيت ألاقي ورقة على سريري؟

- مين عارف؟ وابتسم.

- وانا لو احتاجتك؟

صمت عُمر لثوانٍ، ثم قال:

- انده لي من الحساب الشخصي بتاعك ع الfacebook.

- مريم برضه؟!

قال عُمر وهو يركب درَّاجته، ويضع الخوذة:

- لا لا.. ارتجل.. وانا هاعرف إن الكلام ليَّ.

- خُد بالك من نفسك يا... اللي مش هشام، الطريق اللي انت فيه دا خطر.

- ما تخافش عليَّ يا باشا.. عُمْر الشقي.

ثم أغلق خوذته، وقاد بعيدًا.

* * *

٩٢

خبر في جريدة "**الضمير**":

"انتحار رجل خمسيني في شقته بالمنيل"

قرأ وائل تفاصيل الخبر، ثم أغلق الجريدة، واتصل بمعاونه وطلب منه التواصل مع فريق البحث المسؤول عن تلك القضية، والحصول منهم على صورة المُنتحر.

لا يعلم لماذا شعر، أنه هو الرجل الذي قابله منذ أيام، ربما لأن استسلامه له، بدون إنكار أو مقاومة، أرسل رسالة مُبطَّنة مفادها، أنه أنهى عمله، أو انتقامه، وحان وقت اعتزاله.

شَكَّ وائل في إمكانية حدوث ما حدث، إن صحَّت توقعاته، ولكنه لم يحاول منع الرجل، فالعدالة تتحقق، عاجلًا أو آجلًا.

رَنَّ هاتفه، فأجاب بلهفة واضحة:

- ألو.

- ناجي رجب معاك يا وائل بيه.

- صباح الفل يا ناجي بيه.. تعبت معاليك معايا.. وصلت لحاجة سعادتك؟!

- أيوة سيادتك.. سليمان معاك أهُه.

- ألو، قال سليمان الهجّام بصوته الأجش، عبر الهاتف.

فقال وائل:

- اِزيَّك يا سليمان؟! عارفني؟!

- أيوة يا بيه.. سعادة الباشا هنا قال لي إن سعادتك عاوز تكلمني وطبعًا فاكر اسمك.

- مش هاطوِّل عشان ما نعطَّلش ناجي بيه.. أنا وصلت لحل قضيِّتك يا سليمان.. ووصِّيت بنفسي ظابط مباحث شاطر في الأقصر اسمه عصام ناجي.. هيتابع القضية.. عشان يوصل لاعتراف يخرَّجك من جريمة القتل.

- ياه يا وائل بيه.. والنبي صحيح يا بيه؟! مش عارف اقول لك إيه.

شعر وائل باختناق صوت الرجل، وكأنه على وشك البكاء، فقال:

- قول الحمد لله.. انت اتحبست الكام سنة اللي كنت هتتحبسّهم في السرقة.. المؤبد هيتشال بإذن الله.. ربنا ما بيظلمش حد.

انت ما تعرفش كام واحد مصيره.. وحياته اتغيرت.. عشان اللي بيحصل دا يحصل يا سليمان، ربنا كبير قوي، افتح معاه صفحة جديدة يا سليمان.

- ونعم بالله يا بيه، ونعم بالله.

* * *

لا يُمكن اختصار الحياة كُلها في كلمة واحدة، إلا إذا كانت اسم مَن تعشَق.

٩٣

فتحت والدة مريم باب الشقة، لتجد شابًا وسيمًا، يرتدي "چينز" أزرقًا، "وتي شيرت" أبيضًا، وابتسامة ساحرة، فهزَّت رأسها، بتساؤل، فقال:

- مساء الخير يا ماما.. أنا اسمي عُمر.. كنت جاي عاوز حضرتِك.

ظهرت مريم، بملابس البيت، خلف والدتها، وبُهتت عندما وجدت عُمر صديقها، على باب شقَّتها، واتسعت عيناها على آخرهما، واقتربت، فابتسم ونظر إليها، فنظرت السيِّدة خلفها إلى وحيدتها، ثم أفسحت الطريق عندما فهمت أنه صديق مريم الخفي، وأشارت له بالدخول.

استأذنت السيِّدة من عُمر، وذهبت إلى المطبخ لإعداد الشاي، فجلست مريم أمامه، غير مُصدقة، وقالت:

- انت بتعمل إيه هنا يابن المجنونة؟!

فضحك، وقال:

- بصراحة كنت باتفرج على فيلم من شوية.. وحصلت حاجة حبيت اقولها لك.

- نعم؟ وما اتصلتش بيَّ ليه؟!

- لا لا ما ينفعش في التليفون.

نظرت صوب المطبخ، وقالت:

- طب قول يا مجنون.

- أنا لما باتفرج على فيلم وبتكون فيه لقطة مؤثرة؛ رومانسية.. أو بطولة.. أو تضحية.. دموعي بتنزل وساعات بابكي فعلًا.

ما تستغربيش استني هتفهمي.

أنا لما باكون باشوف فيلم مع حد.. وبيحصل كدا.. باتكسف وبامسك نفسي.. وامنع دموعي.

النهاردا وانا باشوف الفيلم حسيت إن لو انتِ موجودة معايا مش هاداري دموعي، هاشاركك اللحظة زي ما هي، ساعتها حسيت قد إيه انتِ مميَّزة عندي، فحبيت تعرفي غلاوتك.

انتِ الوحيدة يا مريم اللي عرفتني زي ما انا.. من غير أي أقنعة ولا تعديل ولا تذويق.. وقبلتني زي ما انا. دا بقى كان آخر سر عني ما تعرفِهوش. واديكِ عرفتيه.

ملأت الدموع مُقلتي مريم، وهي تسمعه، ولم تلاحظ هي، ولا عُمر أن والدتها، تراقبهم من على بعد خطوات.

- حاجة أخيرة؛ من النهاردا أنا هاتغيَّر عشانك.. هبقى الحد اللي انتِ نفسك أكونه.. مش عشان انتِ عاوزة دا.. لكن عشان انتِ تستاهلي دا.

آه.. حاجة كمان: من النهاردا انتِ بتاعتي.. لوحدي.

هربت دموعها من عينيها، ولكنها لم تكترث، وقالت بعناد:

- يا سلام.. ليه يعني؟ اشتريتني؟

- آه اشتريتك.

رفعت حاجبيها، وسألت:

- والله؟! واشتريتني بكام بقى إن شاء الله؟!

- بيَّ، وابتسم.

* * *

٩٤

"اليوم أتممت عليكم لعنتي"

كتبها الرجل، ثم ترك الورقة في مكانها على الآلة الكاتبة، منتصبة أمامه كشاهد قبر.

ثم أمسك بمسدسه، الذي كان إلى جوار آلته الكاتبة، ورفعه مصوِّبًا إيَّاه إلى رأسه، الذي رفعه بشموخ مُشمئزٍّ، وكأنه يتعالى على شبح الموت، ويقول له لا تتوقع خضوعًا، ولا خوفًا.

فالخوف بالفعل لا يعرف طريقًا إلى قلب هذا الرجل، وهو مَن اعتاد أن يفرض الخوف والموت على أعدائه البشر.

يُقال أنه عند الموت، يمُر أمامنا شريط حياتنا كاملًا، ولكنه لم يرَ شريط حياته، ولكن تجسَّدت حياته أمامه في صورتها، تلك الفاتنة التي كان اسمها حياة، وكأن أهلها علموا أنها ستكون حياته، والتي انتهت بموتها حياته.

ابتسم لها، وتجمَّعت داخل مُقلتيه قطرات دموع، لم يذرف مثلها منذ أن ماتت هي.

لم يبكِ خوفًا من الموت، ولكن بكى لأنه الوداع الأخير؛ فالملائكة والشياطين، لا يجتمعون سوى على الأرض.

ثم أغمض عينيه، وضغط الزناد، لتتلطَّخ آخر أوراقه، بدمائه، وكأنه أراد أن يوقِّعَ سيرته، بتوقيع يليق بها.

لتنتهي قصة الرجل الذي أحب فتاة، وكره بعد موتها كل شيء.

توقف نادر عن الكتابة، أخيرًا، على الآلة الكاتبة المُزعجة، فخيَّم السكون على غرفة نومه، بعد أن استمر قرابة الساعتين يكتب بشكل متواصل نهاية روايته الأولى: "الجريمة للجميع".

ضم قبضتيه ونفخ فيهما، حتى يدفئهما، ويحميهما من برودة ديسمبر القاسية، ثم وقف، وانتزع آخر الأوراق من الآلة، ووضعها في مكانها فوق كومة كبيرة من الأوراق، التي تحكي قصة الرجل الذي لم يسمح له الحظ بمقابلته، ولكنه سمح له بكتابة قصَّته، وابتسم.

* * *

تمَّت بحمد الله

شكرًا

إيناس ناصِر صاحبة دار نشر لوغاريتم.

محمد سعيد

الأصدقاء

نيمو.. ريهام حسين - شيفون.. جنة.. مريم ميخائيل.. أماني عبد الرحيم.. نُهى خاطر.. نانسي تركي.

كريم نجيب.. القوس.. أحمد الصبَّاغ.. الباشا عبدالباسط

شكر خاص

لِمَن اقتطع من وقته، ليقرأ هذا العمل قبل صدوره، ومن ثَمَّ انتقد، ونصح، وشجَّع.

أصدقاء العُمر أحمد شرف - كيتا، وعبد الرحمن ذكي، وأحمد سعيد فرحان.

للتواصُل مع الكاتب

Email: msharabash@icloud.com

Facebook: facebook.com/msharabash

Facebook Page: facebook.com/moatazsharabash

Instagram: instagram.com/msharabash

Twitter:@ iMo3tazz

#رواية_عمر_الشقي